



مُنْتَهِيَ الْطَّلَبِ  
إِلَى تِرَاثِ الْعَرَبِ  
دِرَاسَاتٌ فِي التِّرَاثِ

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جامعة دمشق - طبعة مختصرة

دار الشروق  
استكمال المختصر - ١٩٩٨

القاهرة: ٨ شارع سليمان المصري - رابطة المدرسية - مدينة مصر  
من، بـ: ٣٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ - تلفون: ٤٠٣٣٣٩٩  
بيروت: من، بـ: ٨٠١٤ - هاتف: ٣١٠٨٥٩ - ٣١٧٢١٣ - ٨١٧٧٧٦  
فاكس: ٨١٧٧٧٦ (١٠١)

# جمال الغيطاني

في نسخة من المخطوطات  
التي يحيى الثقة العربي  
دراسات في التراث

دارالشروق



## التراث العربي بين المسابق.. واللاحق ..

لحسن حظى أتني ببدأت أكتشف التراث داخلي منذ مرحلة مبكرة . التراث كامن داخلنا ، في سلوكنا ، في حياتنا اليومية . وأعني بذلك التراث بمفهوم شامل لا يقتصر على حقبة معينة ، أو اتجاه معين . أعني التراث العربي المكتوب ، والشفاهي ، العمارة ، الرسم ، سائر الفنون . عوامل عديدة عمقت إحساسى بالتراث ؛ منها طبيعة نشأتى في حى عتيق ، عريق ، مازال التاريخ القديم سيالاً حياً فيه ، لا يتمثل فقط في الآثار المعمارية ، مساجد كانت أو أسبلة أو بيوتاً أو مزارات ، إنها يشمل العلاقات الإنسانية بالناس . إلى جانب ذلك رغبتي وطموحى منذ أن ببدأت الكتابة في الخمسينيات ، وبالتحديد عام ١٩٥٩ ، إلى ابتكار أشكال جديدة من التعبير . وليس التوصل إلى أشكال فنية جديدة فقط هو المدى في حد ذاته ، لكنها الرغبة في إيجاد أفضل شكل يتسع قدرًا كبيرًا من الحرية ، الحرية في الإبداع ، في التفكير ، في تجاوز أشكال الكتابة القديمة . شكل يحقق لي قدرًا أكبر من حرية التعبير . وقد وجدت ، من خلال توجهى التلقائي إلى التراث العربي أن هذا التراث يحتوى على عناصر القصص ، وفلسفة الرؤى التي تمكنتى من تحقيق هذا القصور من الحرية . وأذكر ، عندما كتبت قصة « هداية أهل الورى لبعض ما جرى في المقشرة » أن أحد الأصدقاء قرأها خطوطه ، وقال لي : إنها مرحلة جديدة في القصة ، ويومها عدت إلى البيت وأنا أردد بيني وبين نفسي « إنه يجاملى .. أحثّأ تمثيل شكلًا جديداً » ، ولكن بعد صدور مجموعة القصصية الأولى « أوراق شاب عاشر منذ ألف عام » ، كتب النقاد عديداً من الدراسات حولها . هذه الدراسات ساعدتني في بلورة وتعزيز التوجهى إلى التراث العربي ، والشعور الأعمق بالثقة فيه ، والاتجاه إلى وصل السابق باللاحق . إذ إننى نشأت على التراث العالمى في الإبداع وفي نفس الوقت كنت أرى شيئاً فشيئاً أن ثمة أشكالاً من القصص والحكى والرؤى ، قد انقطع عهدها بها ، أو إذا جاز التعبير قد حدث انفصال بيننا وبينها . وقد جاء هذا الانفصال ، أو ببدأت هذه الفجوة في

تقديرى اعتباراً من نهاية القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ قيام الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال بونابرت ، حدثت هذه الفجوة في الإبداع في إطار توجه عام إلى الحضارة الأوروبية ، شمل جميع المجالات ، بدءاً من المعمار وحتى أساليب الكتابة ، وصاحب ذلك شعور عام أن الحضارة الأوروبية هي المصدر وهى المرجع الذى ينسب إليه القياس ، ووصل ذلك في بعض المراحل إلى شعور بالدونية الثقافية .

في الفلسفة مثلاً نجد أن معظم الجهود التى تمت ، قمت في حدود نقل فلسفات ولدت في الغرب ، وشرحها . وفي الجانب المقابل نجد بعض الجهود التى اتجهت إلى شرح الفلسفة الإسلامية ، وإعادة نشر بعضها ، وليس كلها أو معظمها . ولم تسم حتى الآن محاولة متكاملة تستهدف التوصل إلى فلسفة ذات أصول عربية متكاملة ، وإن توسيع الاجتهادات والجهود ، وأحسن منها بالذكر جهود الدكتور إبراهيم مذكور في تحقيق مصادر الفلسفة العربية والإسلامية وشرحها وتدريسيها ، والجهد العلمي الممتاز الذى بذله الدكتور حسين مروة ، والدكتور الطيب التزيني ، والاجتهادات الأخيرة والدراسات التى يقوم بها الدكتور محمد عابد الجابري والدكتور جلال أمين والدكتور محمد عماره وعادل حسين والشاعر الكبير أدونيس ، كل منهم في مجال اختصاصه ، وفي حدود اجتهاداته . وبالطبع فإن عرض أفكار كل منهم مما يخرج عن هدف هذا المقال . إن الجهود عديدة ، والقضية مثارة في أكثر من مجال ، ولكن ما يعنيها هو المجال الإبداعي ، هو إعادة التئام الفجوة التي حدثت بين القديم والحديث ، بين السابق واللاحق ، بين ما تعلمته وترسب في وجدانى من تراث عالمى ، وتراث عربى أصبح مهجوراً .

\* \* \*

من خلال تجربى الخاصة ، ومن خلال كتابات النقاد عنها ، والجهود الفكرية الحديثة التى تتخذ التراث العربى محوراً لها - ليس من منطلق سلفى بحث ، وليس بهدف التقويم ، أو الاحتفاء بالقديم - ومن خلال فهمى للتراث على أنه هذه العناصر الحية المستمرة فى واقعنا اليومى المعيش ، وفي عناصر الثقافة الشفاهية أو المكتوبة ، ومن خلال إحساسى بخطورة التوجه الكامل إلى الحضارة الأوروبية ، والذى ترجع جذوره إلى الحملة الفرنسية ، أمكننى بداية تحديد المتابع أو المصادر التى يمكن أن تجرى بها فن القصص العربى . ويمكنتنى أن أوجزها فيما يلى :

« هناك بالطبع المصادر التى يتحدد فيها القصص العربى المباشر وأبرزها شكل المقامات ، والملامح العربية الكبرى التى أصبح بعضها شعبياً وشائعاً ، مثل سيرة عترة وسيرة سيف

ابن ذي يزن ، والزبير سالم ، والأمية ذات الهمة ، وأبي زيد الهملاوي . هناك أيضاً أيام العرب ، وموسوعات الأمثال العربية ، وأخص بالذكر موسوعتين ، الأولى للميداني ، والثانية للزمخشري . إن أهمية هاتين الموسوعتين لا تقتصر فقط على إيرادهما لآلاف الأمثال العربية التي ما زال كثير منها حياً حتى الآن ، ولكن في إيرادهما لمحات الحكايات التي تشرح الأحداث التي أدت إلى ضرب هذه الأمثال . سوف نجد فيها فناً فريداً للقص ، خاصة للقصة القصيرة ، أسلوباً خاصاً جدًا لا يمكن إلا أن نجد له في هذين المصادرين .

\* أما الشق الثاني من المصادر فلأسمه أساليب القص غير المباشرة . ومن ذلك حوليات التاريخ العربي الكبرى ، تلك التي تسجل الأحداث التاريخية الكبرى ، والتي تصل في دراميتها إلى مستوى العمل الإبداعي ، أو توحى بأعمال إبداعية كبيرة . أو تلك الحوليات التي تسجل ملامح الحياة العادية للناس في أزمنة مختلفة . يمكننا أن نجد هنا أساليب مختلفة للقص هنا من ناحية الشكل ؛ أما من ناحية المضمون فلاحدود للمحوادث الوحيدة ، والتي تضفي عمقاً على الحاضر اليومي الآن . وهنا ذكر حوليات الطبرى ، وأبن كثير ، والدينورى . أما فيما يتعلق بتاريخ مصر ، فإنه يكاد يكون مدوناً يوماً بيوم منذ الفتح العربى وحتى يومنا هذا ، بدءاً من ابن عبد الحكم ومروراً بالقضاءى والمسحى والمقرىزى وأبن واصل وأبن تغري بردى وأبن إياس وأبن عبد الظاهر والجبرى . بل إن هذا الشكل من الكتابة «الحوليات» ينفرد به التراث العربى . وهناك العديد من الدراسات الاستشرافية لعلم كتابة التاريخ عند العرب ، أبرزها دراسة روزنتال .

\* ينفرد التراث العربى أيضاً بوجود شكل آخر من التأليف ، أعتبره مصدراً مهماً من مصادر القص ، أقصد «الخطط» ، حيث يدون تاريخ المكان ، ليس مجردًا ، إنما في تطور ما جرى عليه من أحداث ، وما تتعاقب عليه من بشر ، وما جرى عليه من معمار وهدم . وأشار هنا إلى خطط المقرىزى ، وخطط على باشا مبارك ، وخطط الشام لمحمد كرد على .

\* مؤلفات السحر والتنجيم في التراث العربى ، مثل شمس المعارف الكبرى ونذكره العارفين ، وغيرها . وهنا أشير إلى الثراث الشعبي في هذا المجال فلم نكن نعيشه كتراث ، ولكن كواقع حى . فالطفل الذى يمرض وتعد له أمه حجابة ، تفعل ذلك باعتباره تصرفًا حياً وجزءاً من ممارساتها اليومية . قد يقول البعض إننى أدعوه إلى المخرافة - فيها أكثر ما عانيت من سوء الفهم - ولكننى أبادر إلى القول إننى أستفدت النظر إلى أساليب القص في هذه المؤلفات ، وهو أسلوب جدير بالدراسة .

\* وللتراث العربي فرع مهم يمكنني أن أسميه «كتب البحاث» والتي هي في معظمها تفسير للمعديد من الظواهر الطبيعية التي كان الذهن البشري يعجز عن تفسيرها بحكم محدودية العلم الطبيعي في هذه الحقب . وأخص بالذكر كتاب عمر بن الوردي «خريرة العجائب» ، وكتاب إبراهيم بن وصيف شاه «ختصر العجائب» ، والجزء الأول من تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، لماذا ينظر البعض إلى هذا الجزء من التراث على أنه أقل من تراث الأساطير اليونانية !؟ ألم تحفل قصائد الشعر العربي بالرموز اليونانية بينما لم يجر التعامل مع التراث العربي بنفس القدر . باستثناء المرحوم الشاعر أمل دنقل - وأعود إلى القول أيضاً إنني لست ضد الميثولوجى اليونانى أو الإغريقى ، ولكننى أدعو إلى الاهتمام بنفس القدر ، بنفس المستوى بالتراث الأسطورى العربى ، أدعو إلى عدم اعتباره أقل شأنًا من التراث الذى تعلمناه من الغرب ، إن الشوجة إليه ليس فقط لتفريده ، وإنما لأنه متصل بأعماقنا ، كثير من عناصره مستمرة في حياتنا الحاضرة ، ومؤثرة أكثر مما نتصور ، لقد وجهت اهتمامى خلال السنوات الأخيرة إلى محاولة استيعاب التراثين الفارسى والهندى ، كثيرون منا يعرفون الإلیاذة والأوديسة ، لكن كم اهتم بقراءة «المهايرات» الهندية ، أو الشاهنامة الفارسية ، وهنا يجب الإشارة إلى صعوبة الحصول على مصادر هذين التراثين ، فالشاهنامة الفارسية التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن عزام لم تطبع إلا مرة واحدة في الأربعينيات وكذلك ترجمات الدكتور يحيى الخشاب للقصص الفارسية ، أما المهايرات فلم تطبع إلا مرة واحدة في بيروت ، والأدب الفارسى يظل محصوراً في إطار الدراسات الجامعية على الرغم من الدراسات العميقه التى قدمها الدكتور حسين مجيب المصرى والدكتور أمين عبد المجيد بدوى وغيرهما من الباحثين ، للاسف فإن معرفتنا بتراث الشعوب الأخرى والثقافات الأخرى تظل محكومة بها وصل إلينا عن طريق الغرب .

\* من مصادر القص العربي أيضاً المؤلفات التى تدور حول الآخرة ، حول تصور ما سوف يجرى في العالم الآخر . ومضمون هذه المؤلفات قائم على عملية إيداع متكاملة وأشهرها: «الذكرة في أحوال الموتى والأخرة» للقرطبي ، ومؤلف آخر عن الآخرة للشيخ حسن العدوى ، إضافة إلى أن العديد من حوليات التاريخ تتناول هذا الموضوع .

\* من أهم المصادر للقص العربى ، التراث الصوفى ، في رأى أن دراسة الأدب العربى لن تكتمل إلا بشوجه جديد إلى هذا التراث الروحى ، الصوف ، وأن البحث عن أصول القصة العربية أو الرواية العربية ، أو في القص العربى ، يجب ألا يقتصر على دراسة المقامات ، والمنامة (الوهانى) ، والسير والملالح (إنما يجب أن يشمل التراث الصوفى ،

وبخاصة قصص الكرامات . فالكرامة باختصار هي خرق العادة ، والخروج إلى اللامألوف ، إلى تجاوز الواقع ، المكان والزمان . إنها قصص قصيرة ، مركزة ، موجية ، ضامرة المحتوى . إنني لست بصدد الخوض في تفسير الكرامة أو تفسيرها ، ولكنني أحاول استلفار الأنوار إليها كجنس أدبي . وقد سبقني إلى ذلك الدكتور على زيعور في كتابه « الكرامة الصوفية » وهو جزء من موسوعته الكبرى « التحليل النفسي للذات العربية » وهي الدراسة العلمية الوحيدة لموضوع الكرامة . إن الخيال الإبداعي في أدب الكرامة جدير بالتوقف طويلاً والتأمل . كثيرون انبهروا عندما قرءوا « مائة سنة من العزلة » وتوقفوا أمام مشهد طيران إحدى بطلاتها في الهواء . والترااث العربي الصوف حاشد بالذين مشوا فوق الماء ، وعدوا المسافات البعيدة في الزمن القليل ، ولم يتوقف أمامهم أحد .

\*\*\* تلك هي معظم العناصر التي توجهت إليها في الترااث العربي في محاولة لتأصيل شكل عري من القصص . في فرنسا ، سألني أكثر من صحفى أو مثقف : هل عرف العرب فن الرواية ؟ وكنت أجيب قاتلاً ، إن الفن القصصى العربى عرف أعظم - في رأى نص قصصى في العالم ، وهو ألف ليلة وليلة . ولكن عندما يوجه البعض مثل هذا السؤال ، فإنها يقصد الشكل الروائى كما عرفته الثقافة الأوروبية ، هذا ما يبحثون عنه أو يتساءلون عنه في الترااث العربى . بالطبع لن نجد هذه الأشكال الإبداعية ، ولكن المؤكد أن الترااث العربى فيه أشكاله الخاصة من القصص .

\* \* \*

إن هى الأساسى ينحصر في البحث عن العناصر التي عرضتها سابقاً ، وتجريه هذا كله إلى النشاط الإبداعى . غير أن الأمر لا يتم بمعزل عن أطراف عديدة ، منها مثلاً التوجه إلى الغرب ، واعتباره المصدر المهيمن الذى تستقى منه التقاليد الثقافية والأشكال الإبداعية والفلسفية ، وأساليب الحياة . إن هذا التوجه بدأ مع جماعة الحملة الفرنسية التى أحدثت صدمة حضارية لا شك فيها ، ولكن عند ما جاءت الحملة لم يكن في متظور قاتلها أو منظيمها أو أفرادها نقل الحضارة الفرنسية إلى مصر ، وبالتالي إلى الشرق ، بل كان المدف استعمارياً بحتاً . صحيح أن نابليون أتى معه بالطبع ، ولكن لم يأت بها ليطبع الكتب العربية ، إنها ليطبع المنشورات التى يوجهها إلى الشعب المصرى . وصحيح أنه أتى بالعلماء الفرنسيين ، ولكن لا لينقل العلم الحديث إلى أبناء الشعب ، بل ليدرس هذه البلاد تمهيداً لجعلها هامشًا للحضارة الأوروبية ، وتابعة . إن قراءة مصادر الحملة الفرنسية توکد نظرة المستعمر لديهم ، سواء في اليوميات التى كتبها بعض قادة الحملة ، أو في

الصحيفتين اللتين أصدرهما نابليون في مصر : « كوريه دى لبيجيت » و « لاويكاد اجسيان » حيث ترد تعبيرات كثيرة ، مثل « الشعب الممجى » ، « الجهلاء » ، « المتخلفون » .. إلخ . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة المد القاطع الذي وضع حداً لتطور طبيعي كان يمكن أن يمضي . إنني من المؤمنين بأن كلمة « لا » لا محل لها في التاريخ ، لها حدث حدث وما جرى جرى . ولكن ما يدعونى اليوم إلى الاجتهاد ، هو حاولة لتدارك آثار التوجه النام إلى الغرب ، بعد أن وصلت إلى حد خطير في السبعينيات دخل إلى صميم حياة الناس اليومية ، وإلى بعد القيمى للمجتمع . لقد كانت الحملة الفرنسية بمثابة بتر لتطور تاريخي ، يمكن أن يستمر في مصر بشكل طبيعي . البعض هنا لا يريد أن يرى أي إمكانية للنهوض أو التقدم خارج الأنهاط الأوروبية ، ولكن ما أريد أن أقوله هو أن مصر شهدت حاولات للتقدم والنهوض قبل مجى « الحملة الفرنسية » بمعزل عن المؤثرات الأجنبية وأشار على المستوى السياسي إلى حاولة على يد الكبير التي أجهضت . وفي رأيي ، أن بذور التحول الداخلي ، المنطلقة من الظروف الخاصة لواقعنا لم تدرس تماماً . لقد بدأت بدايات نهضة مبكرة في مصر وتركيا قرب نهاية القرن الشامن عشر ، العثمانيون بدعوا حاولة إدخال تحسينات على الجهاز العلمي والإداري والعسكري بدأ ذلك في عهد سليم الثالث . ولم تكن مجرد حاولات ، بل أصبحت تدريجياً ثابتاً تم إقراره على الرغم من المعارضة القوية في عهد السلطان محمود الثاني ( ١٨٠٨ - ١٨٣٩ ) ، الذي قبس على عسكر الإنكشارية الذين كانوا يمثلون قوة مكافحة تعمل على إبقاء أسس النظام القديم . أما في مصر ، فلم يكن الأمر جامداً عند مجى « الحملة الفرنسية » ، بل كانت هناك إرهاصات أولى لهذا التطور ، الذي كان يمكننا أن نعمسى طبيعياً لولا مجى « الحملة الفرنسية » . ثم اتسعت الفجوة مع مجى « محمد على » . وبالقضاء على المماليك في مذبحة القلعة ، القاطع العهد تماماً بالقديم وكل ما كان يمكن أن يحمله من إمكانات ، وببدأ التوجه إلى الغرب . لقد أوقف محمد على باشا البعثات إلى أوروبا في جميع المجالات ، وإلى مصر جاء الأوربيون ليحدثوا الجيش ، وليوسوا مدارس الطب والهندسة والخريبة . وأصبحت مصر في عهده دولة قوية ، ووصلت جيشه إلى مشارف الأستانة . غير أن نظام محمد على انهار في عام ١٨٤٠ . هذا الانهيار استوفقني طويلاً ، لماذا حدث ، وكان النظام القوى الذي شيده محمد على أقيم فوق بحر من الرمال ! صحيح أن القوى الاستعمارية تضافرت عليه ، وقد كانت وما زالت إستراتيجية الاستعمار تحرض على عدم قيام دولة قوية في مصر ، لأن مصر قلب العالم كما قال نابليون ، في نفس الوقت كانت هذه القوى حريصة على تهويذ الدور المصري خصوصاً الثقافي ، ومن خلال المثقفين الذين درسوا في أوروبا وعادوا إلى

مصر ببدأ الاتجاه إلى الغرب يتخد مساراً أكثر عمقاً ، يمس البيئة الثقافية الأساسية للمجتمع ، وللأفكار ، والتقاليد والعادات . لقد كان هؤلاء مخلصين لوطنيهم عندما درسوا في الغرب ونقلوا العلوم الحديثة إلى مصر ، ولكن لم تبذل محاولة في اتجاه محاولة استيعاب هذا الرافد ، من خلال القديم ، كما أن المؤسسات الثقافية التقليدية المختلقة موقعاً متراجعاً وإنغلاقياً تجاه العلوم الجديدة والأفكار الجديدة . وساهم النظام الحاكم في تعميق الاتجاه إلى الغرب ، حتى أن الخديوي إسماعيل أعلن أنه يريد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا . لقد أصبحت أوروبا إذن هي المثل ، وهي المرجع ، والمقصد . وببدأ ذلك ينعكس على أوجه الحياة المختلفة . ومع ذلك ، ببدأ أيضاً الإحساس بالدونية تجاه الحضارة الأوروبية وأنماطها الثقافية . يقول جمال الدين الأفغاني :

« لقد شيد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطرائف من شبابهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والأداب ، وكل ما يسمونه « عدنا » ، وهو في الحقيقة مدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة؟ .. نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتندرون بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية (القومية) وما شاكلها ، وسموا أنفسهم زعماء الحرية ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المأكل والملابس والفرش والأبنية ، وسائل الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجور ما يكون منها في الملك الأجنبية وعدوها من مفاخرهم .. فنفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جنوح لأنف الأمة يشهو وجهها ويحيط بشأنها لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المتخليين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافقين لطرحه الأعداء إليها ، وطلاعهم لجيوش الغاليين ، وأرباب العبارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم .. <sup>(١)</sup> . »

\* \* \*

ربما كانت العبارة أقرب الفنون إلى الرواية ، من هنا جاء اهتمامي بها ، وبخاصة العماره الإسلامية العربية التي نشأت في ظلال جدرانها ، وانطبع تفاصيلها على الصفحات الأولى من ذاكرتي . كما أن العماره من أصدق الفنون بحياة الإنسان ، إذ إنها الإطار الذي

(١) الأعيال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : ص ١٩٥ - ص ١٩٧ .

يقضى فيه حياته ، سواء في بيته أو عمله ، أو عند تأدبة شعائره الدينية . يقول الدكتور ثروت عكاشه :

« . . . ما من شك في أن الإنسان منذ أن وجد على الأرض وهو دائم الجهد في تكيف الطبيعة حوله للأمة حاجاته الجسدية والروحانية ، وأنه كذلك بفطرته وحسه المرهف للجمال وعشيقه للإبداع قد حاول أن يصوغ كل ما تشكله يداه في قالب فني ، يمحكيه مرة صورة ومرة ثالثة ومرة كلمة ومرة نغمة »<sup>(١)</sup> .

إذن . . العيارة امتداد للبيئة ، جزء من الواقع نفسه ، ولكل واقع عمارته ، ومفهومه الخاص لهذا الفن النابع من الواقع ، من المذاخر ، من التقاليد الاجتماعية ، من المواد المحلية المتاحة . وقد كانت العيارة العربية نابعة من الواقع نفسه ، تتكيف معه وتختضب خصائصه . وإذا ما دخلنا أحد بيوت القاهرة القديمة ، على سبيل المثال بيت السحيمي ، سوف نجد عمارته تعكس التقاليد الاجتماعية ، والتقاليد الفنية . فالبيت مفتوح على الداخل ، حياة الإنسان الخاصة مقصونة . النوافذ تطل على الفناء الداخلي حيث الحديقة تماماً كلوحات الخطط العربيين حيث تتجه حركة الخط إلى الداخل في حركة مستمرة لانهائية وتدور حول مركز موقعه القلب . مركز العيارة العربية ومحورها كان الإنسان نفسه . فالجدران مصممة بطريقة خاصة لتلذّر الرياح والحر وقوس المذاخر ، وابتكر المعماري وسائله الخاصة للتهوية (الموقف) ، ولتسخين المياه أو تبریدها ، وفي ذروة الحرارة ، تكون درجة الحرارة داخل بيت السحيمي أقل من الخارج عشر درجات . هكذا يقول المهندس المعماري العظيم حسن فتحى . وفي العيارة الإسلامية العربية نفسها ، تجد فروقاً واضحة . فالملائدة العراقية لها شخصيتها المتميزة ، ولو أن معمارياً مصرياً وضع مذنة عراقية على بناء مسجد مصرى لما انتسى الأمر . فما البال عندما تم استيراد الطرز المعماري الغربي بلاد الشوج والضباب لتزرعها في قلب مدننا الحارة ، ما البال وقد شيد المعماريون الذين درسوا المعمار الأوربي ونقلوا تصميمات أبراج الألمنيوم المصممة إلى قلب عواصمها الغربية الحارة . هنا يبدو الاتجاه الأعمى إلى الغرب ، والانقياد الشام ، ولكن كنت أبتسّم ساخراً عندما أرى بعض الأثرياء الجدد وقد بناوا بيوتهم الخاصة ذات أسقف مدببة ، أسقف مدببة في بلاد لا يسقط فيها الشوج أما مطراها فشحيح ، يقول المهندس حسن فتحى في كتابه « عيارة الفقراء » هل يمكن تخيل شجرة ليمنون تطرح ثمرة تفاح ؟ بالطبع لا ، والوضع في العيارة

(١) الفن الجمالي في العيارة الإسلامية : ص ١٢ .

التي استوحى تصميماتها من الغرب ، يترجم هذه المحاولات الشائعة لزرع طرز مستوردة غريبة في بيئة مختلفة ، إنه نفس المنطق الكامن وراء انتشار الأسماء الأجنبية في السبعينيات للمتاجر والمراكز التجارية ، حتى إن متجرًا مخصص في بيع الأزياء الإسلامية أطلق صاحبه عليه «شوبينج سنتر» ! لقد بدأ اتجاه العمارة إلى الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أصبحت العمارة الغربية هي التموج الذي يحتل مع توجهه الصفة إلى الغرب ، واعتباره المصدر ، إلى أن وصل الأمر إلى ما وصل إليه في السبعينيات . لقد تم التخلص عن تقاليد العمارة العربية ، وتحول البيت من الداخل إلى الخارج ، واستبدلت بمواد البناء مواد غير ملائمة لطبيعة المناخ (الأسمنت - الألمنيوم) . واليوم تقوم في القاهرة وفي العديد من العواصم العربية أبراج هائلة تقضي بناطحات السحاب في نيويورك وتحمل أسماء أجنبية أصبح تداوّلها سهلاً وشائعاً (سكاي سنتر - كايرو سنتر . . . الخ) . وانتقل التشويه إلى القرية المصرية نفسها ، فتخلص المعماري الريفي عن المواد الملائمة للطبيعة والمناخ والتي كان الأجداد يبنون بها منذ آلاف السنين ، ليستخدمو الطوب الأحمر والأسمنت ولم تلق نظريات المهندس فتحى طريقها إلى التنفيذ ، وهي نظريات قائمة على تطوير العمارة للإنسان بحيث تكون نابعة من البيئة . لقد انمحضت الخصوصية القوى تعبّر عن ضرورة حياتية وليس عن قيم فنية مجردة إزاء تزايد الاتجاه إلى الغرب والنقل المباشر عنه بدون مراعاة الواقع المحلي . وما يقال عن العمارة ، ينطبق أيضًا على تخطيط المدن . كان تخطيط المدينة العربية القديمة يخضع لاعتبارات عديدة نابعة من الواقع ذاته . يقول الدكتور ثروت عكاشة :

« وكان العرف المتبّع في بعض قواعد التخطيط ، مثل مراعاة العوامل الجوية ، ومتطلبات الأمن والناحية التعبيرية الجمالية مطابقًا في كل المستويين الوعي والتلقاء . فكانت الشوارع والحاورات تخطّط متعرجة ضيقّة لأن المساكن والقصور والمباني العامة تضم أفيون وحدائق تستقبل الشمس والهواء من ساحتها الداخلية التي لا تجعلها في حاجة إلى الشارع المتشعّع ، فاقتصر اتساعه على ما يفي بمتطلبات المرور وضدو الباعة الجائعين ، ورواحتهم ، كما كان يتعرّجه وضيقه يوفر مساحات ظليلة ويتبع احتزان الهواء الرطب ليلاً حتى يشيعه أثناء ساعات القيظ ملطفًا من حرارة الجو ، على العكس من الشارع المستقيم الواسع كالبولفار الأوروبي المعاصر الذي تستبيحه الربيع صباحًا ومساءً»<sup>(١)</sup> .

(١) التقييم الجمالية في العمارة الإسلامية ، د . ثروت عكاشة : ص ٥٨ .

لقد بدأ التغيير الكبير في مدينة القاهرة على يدّى على باشا مبارك الذى وضع أساس التخطيط الأولى للحدث للمدينة ، وشق مجموعة من الشوارع المستقيمة على نمط الشوارع الباريسية . شارع محمد على شق وكأنه نسخة أخرى من شارع ، نول بباريس . ويسبب شق هذا الشارع أذى أكثر من ثلاثة أشواط إسلامياً وهكذا بدأ تغريب المدينة . وعند مراجعة ما حدث للفاشرة ، فلا يعني هذا التهجّم على دور على باشا مبارك أو الانتقاص منه ، ولكن قام بذلك في إطار مفهوم معين يرى أن تطوير المدينة وتحديثها يجب أن يتم على النسق الأوروبي ، وكان ذلك حلقه في الاتجاه إلى الغرب . ما أريد أن أؤكد عليه أو أوضحه أن مراجعة دور على باشا مبارك أو غيره من كبار المثقفين المصريين أو العرب الذين رأوا أن التقلّع عن الحضارة الأوروبية سوف ينتقل ببلادهم قدماً لا يعني النيل من شخصوصهم ودورهم . لقد اجتهدوا وحقّ لنا أيضاً أن نراجع ما قاموا به وأن نجتهد أيضاً ، وإذا كان الاجتهد مباحثاً في أمور الدين ، أفلّا يكون مباحثاً في القضايا الثقافية ، وتاريخ الفكر ، والتطور الفنى ، والمعمارى ، إنّى أرى باختصار شديد أن الاتجاه إلى الغرب أو التغريب قد وصل إلى نقطة خطيرة ، موضة في سبعينيات هذا القرن بحيث أصبحت خصائص الشخصية القومية مهددة معظمها بالاندثار والتغيير ورافق هذا ظروف عالمية عديدة ، والاستعمار القديم في الماضي كان يستفزّ المّشاعر القومية ، والرغبة في الحفاظ على السابق . وفي المغرب العربي الكبير ، سواء في المغرب أو الجزائر أو تونس ، تمت المحافظة على الطابع المعماري للمدن القديمة . صحيح أن العمارة الأوروبية موجودة ولكنها قائمة بعيداً عن الأقسام القديمة . في تونس مثلاً نجد السوزارات الهامة ورئاسة الوزراء في المدينة القديمة ، كما أن فاس القديمة ما تزال محتفظة بطبعها . لقد كان الاستعمار القديم غشوماً ، يستفزّ المّشاعر القومية لأنّه يحمل السلاح ، ويسعى إلى الطمس التام للقديم . أما ما نتعرض له في العقود الأخيرة فغزو من نوع آخر ، غزو هادئ ، يتم بالفيلم ، بالفّكر ، بتعزيز الدونية الثقافية . يتم بإشاعة أنهاط معينة من الحياة بمتجّر الريمبى وكتّاكى . وهو لا يأتي إلينا على ظهور البارج ، بل إنّ قوّاً منا يذهبون ويدفعون الأموال الطائلة ليأتوا به ( انظر إلى انتشار العلم الأميركي على الشاحنات والقمصان .. إلخ ) .

وهنا يجب أن أوضح أنّى لست أبداً ضدّ الفكر الغربي أو الإيداع الغربي ، فمنجزات الحضارة الأوروبية ملك للإنسانية كلّها الآن ، ولكن ما أتبه إلى أنّ الخصوصية مهددة بالزوال ، وهذا يعني فقدان الأمة لحيتها . لا أريد استخدام تعبيرات تبدو مبالغة ، لكن هذا ما أستشعره خلال السنوات الأخيرة . والقضية الأساسية التي أتصور أنّ الفكر العربي والفن العربي مطالبان بالتجهيز إليها ودراستها والتوصّل إلى نتائج محددة فيها ، هي

كيف يمكن تزاوج السابق باللاحق دون أن يطغى السابق على اللاحق ، ودون أن يطمس اللاحق ما سبق .. تلك هي القضية .

\* \* \*

إنني من المؤمنين بعنصر الاستمرارية في الثقافة المصرية . المجتمع المصري قديم ، وبالتالي فإن الثقافة المصرية قديمة . عمرها المكتوب سبعة آلاف سنة ؛ أما غير المكتوب فلم يقف إنسان على مقداره بعد ، وخلال هذا التاريخ الطويل عرفت مصر حضارات متعددة وثقافات مختلفة ، وقد أخضعت مصر الولادين إليها ، وكما ذاب فيها الفرس والرومان والإغريق والكرد والأتراك والعرب ، ذابت فيها أيضًا ثقافاتهم ، انصرفت وتشكلت من جديد ، إن الثقافة المصرية حية ، متعددة ، ولكنها لا تفقد جوهرها ومضمونها . وقد فصلت هذه النقطة في بحث قصير ضمته هذا الكتاب . ولكن ما أريد توضيحه ، هو أنني عند ما أقول التراث ، فإنني أعني التراث الذي يتمتع إلى هذه المنطقة من العالم التي نعيش فيها ، ويمكن تشبيه حلقاته بدواير متداخلة ، بالنسبة لمركز منها هو التراثان العربي ، والإسلامي ، ثم التراث القبطي الذي أدعوه - كمسلم - إلى معرفته انتلاقاً من التكوين الثقافي ، كثيراً ما أسأل نفسي ، لماذا يعرف المصري قبطي الديانة ، أعياد المسلمين وعاداتهم وقد يلم بثقافتهم ، بينما نجهل نحن المسلمين كثيراً من التفاصيل عن الحياة الفكرية والروحية للأقباط ، مع أننا نشكل أمة واحدة ، كذلك التراث الفرعوني الكامن في حياتنا الحالية ، هناك عناصر عديدة مستمرة ، بدءاً من التقويم القبطي - الفرعوني الذي مازال الفلاح المصري يتبعه لتنظيم شتون زراعته ، وحتى بعض الألفاظ التي ما تزال مستخدمة في لغتنا اليومية ، ثم التراث الإفريقي ، ثقافة القارة التي ننتمي إليها . ثم تراث الأمم القريبة منها : فارسية ، وهندية ، وصينية ، إضافة إلى كل الثقافات التي قامت في هذه المنطقة : بابلية ، وأشورية ، وعبرية ، وبربرية ، وتراث أوربي .

إن هذه الدواير كلها حولي .. التراث الإنساني كله يصب في تكويني . إنه ملكي وأنا ملکه ، وهذا التفاعل يشري ، بشرط لا أغيب أو تغيب عن الدائرة المركز ، أقصد التراث العربي بمفهومه الشامل .

\* \* \*

في السنوات الأخيرة ، لاحظت ندرة في مصادر التراث العربي ، أصبح من الصعب جدًا الحصول على كتب العمالق ، أو التوحيدى ، أو الجاحظ ، وغيرهم من أعمدة لغة

الضاد . في نفس الوقت الذي تنشر فيه طبعات شتى لكتب محدودة من التراث ، تغذى انهاeات معينة وتقتصر التعامل مع التراث وتقديمه على جوانب سطحية ، شكلية تماماً . وكثيراً ما كانت أقف مبهوراً أمام فهارس المخطوطات العربية المكذبة في سائر مكتبات العالم . ما من فرع في العلم والثقافة إلا وتجد فيه مؤلفات عربية في شتى المراحل التاريخية ، مؤلفات استفادت منها أوروبا وأدت إلى عصر النهضة ، وأهملناها نحن . بل إننا أعدنا اكتشاف معظمها من خلال الغرب نفسه عندما بدأ اهتمامه بها .

ولإباء ندرة المصادر ، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى ، وتعذر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة ، فكانت في التعريف بمصادر تراثية فيها يصعب الحصول عليها الآن ، إما لصدرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية . كيف يمكن إذن لأديب في بداية الطريق أن يتكون ؟ ذكر أنى في بداية السبعينيات اقتنيت أربعة عشر جزءاً من كتاب الأغانى ودفعت ثمناً لها جنيهين وثمانين قرشاً ، ومازالت أذكر ليلة عودتى إلى البيت بالأغانى ، والنجم الزاهى لابن تغري بردى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وكل ما دفعته كان أقل من عشرة جنيهات ، الآن تباع الأجزاء المتوفرة من الأغانى في طبعة رديئة بأكثر من مائتين جنيه . والأغانى من أعمدة الأدب العربى لا تتصور مكتبة أديب أو مؤرخ أو مفكر بدونه .

إباء هذه الظاهرة ، فكانت في إعداد عروض وافية لم عدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها ، فإذا اهتم قارئ بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعاني ما عانيناه في البحث عنه ، وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التي طبع فيها الكتاب ، آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة في الأدب ، والتاريخ ، والفن الحرى ، على أن أتبع هذا المجلد ، بأخر أخصصه للتعریف بكتب الترجم في التراث العربى ، وثالث أقدم فيه بمصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العهارة الإسلامية من القدماء والمحدثين . راجياً بذلك أن أكون قد أسمحت بجهد ضئيل في التعريف بتراثنا العريض ومصادره التي يصعب الوصول إليها والعثور عليها ، يوماً بعد يوم ، متمنياً من الله العلي القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نظم سعى إليه من التعريف بتراثنا العريق الذي يحيا فينا ولا نراه .

جمال الغيطانى  
القاهرة ٢٠ رمضان ١٤١٧ هـ  
٢٩ يناير ١٩٩٧ م

## عناصر الاستمرارية في الثقافة المصرية

يختلف مفهوم الثقافة بمعناه الاجتماعي العلمي عن معناه العام . فطبقاً للمفهوم الأول تتضمن الثقافة كل ما يمكن أن يُعلم بواسطة العلاقات الإنسانية المترادفة ، ويشمل ذلك اللغة ، والفن ، والصناعة ، والعلم ، والقانون ونظم الحكم ، والأخلاق ، والدين ، وكل المنتوجات التي تتجسد فيها عناصر ثقافية معينة ، مثل طرز العماره والآلات ، وأساليب المواصلات .

إن معنى الثقافة معنى عام ، يشمل أسلوب الناس في مجتمع من المجتمعات . من هنا فإن هذا المفهوم الشامل للثقافة يختلف اختلافاً كبيراً عن المفهوم الذي يقصر الثقافة على نوع معين من النشاط الإنساني ، مثل الأداب والفنون .

والثقافة أو المعرفة الإنسانية ، تكون عن طريق وسائل هامتين ، هما الاكتشافات والاختراعات أولاً ، ثم التعليم الذي ينقل ما سبق معرفته إلى الآخرين ، أو من زمن إلى زمن .

والمجتمع المصري مجتمع قديم ، وبالتالي فإن الثقافة المصرية قديمة عمرها المكتوب سبعة الألف عام ، أما غير المكتوب فلم يقف إنسان بعد على مقداره الحقيقي ، وخلال هذا التاريخ السحيق عرف المجتمع المصري حضارات عديدة ، وتعاقبت عليه ظروف مختلفة ، وديانات بعضها اخترعه ، وببعضها وفده عليه من هذه الحضارات ، أقدم حضارة عرفها الإنسان ، وعلى الرغم من الظروف الصعبة والظلم المتساقبة ، والبؤس ، وتولى الغزاة ، المجتمع المصري فإن ظل متاسكاً ، حيوياً مستمراً ، منذآلاف الأعوام ، والعمل مستمراً لم يتوقف أبداً على ضفتى النيل . الجهد الإنساني يبذل في مختلف المجالات بلا انقطاع والملاحظة العامة التي نستنتجها من قراءة التاريخ المصري ، استمرارية الثقافة ، وحيويتها الممثلة في تجددها واستيعابها للظروف المغيرة . وعلى الرغم من عنصر

الاستمرارية في الثقافة المصرية ، فإنه من الصعب القول إنها ثقافة جامدة ، محافظة على القديم . فالمصريون عبر تاريخهم الطويل غيروا من لغتهم عدة مرات ، من الهيروغليفية إلى الديموطيقية ، إلى القبطية ، إلى اليونانية ، إلى العربية واستبدلوا بدينتهم دينا آخر مرة أو مرتين . جعوا بين القديم والحديث في العديد من مظاهر حياتهم ، واستطاعوا استيعاب كل الغزارة الدين وفدوا على أرضهم ، لم تصبح مصر فارسية أو رومانية ، أو عربية ، بل طوعت الفرس ، والرومان ، والعرب ، فأصبح جميع هؤلاء مصريين ، ذابوا في المجتمع المصري ، وانصهرت ثقافاتهم في الثقافة المصرية ، أصبحت ثقافاتهم تشكل عناصر من الثقافة المصرية ، ولم تصبح الثقافة المصرية مصبوغة بهذه الثقافات الواقفة . بل إن الثقافة المصرية طواعت كثيراً من هذه العناصر الواقفة لظروفها وعناصرها هي . وفي العصر الحديث ، نجد أن الأتراك الذين استعمروا مصر أكثر من ثلاثة قرون اضطروا إلى تعلم اللغة العربية ، نفس الأمر واجهه الإنجليز الذين استعمروا مصر لمدة سبعين عاماً خلال القرن الأخير ، لم تحدث مصر اللغة الإنجليزية ، ولكن الإنجليز هم الذين تعلموا اللغة العربية ، ثم خرجوا في النهاية . ويرجع هذا إلى الركائز الثقافية العريقة في مصر ، والتي استمراريتها ، وحيويتها ، كان المصريون مجددين في الجانب المادي والعمل من حياتهم ، فالزارع المصري جدد أدواته الزراعية ، وأضاف إليها على مر الزمن ، واستتبع أصنافاً جديدة من المحاصيل ، كان أبرزها في العصر الحديث القطن الذي بدأ زراعته في بداية القرن التاسع عشر ، كما جدد أنواع الحيوان المستأنس ، وأضاف إليها ما لم يكن معروفاً من قبل .

إن ذلك يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تجدد الثقافة المصرية وحيويتها . ويمكننا ملاحظة هذا في الجانب غير المادي ، لقد شغلت فكرة الخلود المصريين منذ فجر التاريخ ، وأول تصور للعالم الآخر نجده في الفكر الديني المصري القديم ، انشغل المصريون بهذه الحياة الأخرى ، واهتموا ببناء مقابرهم ، وحفظ أجسادهم وكان هذا الاهتمام من أعلى المستويات ، الفرعون ، حتى أقر الناس ، وكان الجميع يهتمون ببناء المقابر ، وتزيينها ، وتزويدها بما يحتاج إليه الميت في العالم الآخر ، والاهتمام بالعالم الآخر عند المصريين منطلق من حب حميق للحياة ، ورفض للعدم ، نلاحظ أن هذا المضمون استمر مع تغير الديانات ، وتعاقب العصور ، في العصر الفرعوني على سبيل المثال كان أول عمل يشرع فيه الفرعون (الملك) هو بناء هرم ليكون بمثابة مقبرة تحفظ جسمه من الفناء ، ويجواره معبد تمارس فيه الشعائر الدينية ، وبعد آلاف السنين ، وبالتحديد في العصر الوسيط ، عصر المماليك بعد فتح العرب لمصر بخمسة قرون ، نجد أن السلطان

المملوكى المسلم - وهو ذو أصول أجنبية - يشرع بمجرد توليه الحكم فى بناء مسجد ضخم يضم فيه قبة تحوى مقبرته . ويستمر ذلك حتى عصرنا الحديث ، فعندما توفي الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، تبين أنه كان قد اختار مكان دفنه فى مسجد شارك فى تأسيسه والإتفاق على بنائه ، ودفن فيه بالفعل ، وضريحه الآن قائم يزار ، أى مصرى الآن سواء كان مسيحيًا أو مسلماً يحتل مقبره الأخير حيزاً هاماً من تفكيره ، وكثيراً ما نقرأ على شواهد القبور الحديثة عبارات كتبت بوصية من الموتى ، نصوصها تطلب من الأحياء التذكرة والاتعاظ بها انتهوا إليه ، وقد وصل إلينا نصوص مشابهة فى المضمون من العصر الفرعونى السحقى .

إن الدين المسيحى ، والدين الإسلامى ، لم يغيرا من جوهر نظرية الإنسان المصرى إلى الموت ، وإلى العالم الآخر ، والتفاصيل العديدة تؤكد ذلك ، أذكر في طفولتى جلوسى مع أمى فوق سطح بيتنا تلمس أشعة الشمس ، وفجأة سكتت أمى ، وأسرتني بالصمت ، وراحت ترقب في رهبة ذبابة زرقاء اللون ، بعد اختفائها ، قالت لي إنها روح جدلى جاءت لطمئن علينا ، وهذا موروث ثقافى قديم يمت إلى العصر الفرعونى ، حيث كانت الروح تتجسد أحياناً فى شكل طائر أو ذبابة زرقاء أو قط أسود ، والمصريون على صلة دائمة بموتاهم ، وإذا ما جاء الميت فى الحلم وطلب شيئاً ما فلابد من تنفيذه ، وفي أيام الجمع ، والأعياد والمواسم ، نشاهد طوابير الرجال والنساء والأطفال متوجهين إلى المقابر حاملين الزهور والصدقات من طعام وهدايا توزع على الفقراء . نجد هذا في مصر، بينما يعد ذلك في البلاد الإسلامية الأخرى - خاصة السعودية - من الأمور المخالفة للشرع ، ويكتفى القول إنه لا توجد قبور معروفة للموتى في الحجاز ، وأذكر أننى كنت أشهد حفلًا للمصاولة أقيم في خلاء مدينة أم درمان وكان الناس يعبرون فوق عدة مقابر بسيطة يطعون المقبرة ، وكانت في داخل أستكر ذلك .

كذلك فإن نظرية المصريين تجاه القديسين ، والأولياء لم تتغير ، عرفت مصر الفرعونية الثالوث القديم ، الآلهة إيزيس ، والإله أوزيريس ، والابن حورس ، وعند ما جاء الدين المسيحى إلى مصر لم يجد أرضاً خالية ، فقد عرف الفراعنة الثالوث المقدس ، كما عرفوا التوحيد ، وسرعان ما استوطنت الثقافة المصرية الدين الجديد وحل الثالوث الجديد ، الأب والابن والروح القدس ، محل الثالوث القديم ، وبعد استقرار الدين المسيحى في مصر ، شهدت الكنيسة صراعاً حاداً كان طرفاًه الكنيسة المصرية ، والكنيسة البيزنطية ، وكان محور الخلاف طبيعة المسيح ، آمن المسيحيون بالطبيعة الألهية لابن مريم فجاء

آريوس أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الآب الذي لا شريك له ، وبذلك أكمل نوعاً من الوحدانية ولو أنه لم ينكر الوهبة المسيح كلية ، تمسك المصريون برأيهم ، ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تختلف الفريق الغالب يحمل معنى مناورة الضعيف للغالب ، والحرص على التميز ، وعدم الذوبان والالحاد ، لم يكن المصريون يريدون لكتسيتهم أن تصبح في المرتبة الأضعف بالنسبة لبيزنطة ، وهي الأحداث المسيحية ، فإذا كانت القسطنطينية هي عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية المصرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية في العالم ، وتفاصيل الخلاف عديدة ، ولكن موقف الكنيسة المصرية ظل استقلالياً ، في جوهره يمثل المحافظة على عناصر استمراريتها الثقافية المصرية ، لقد احتفظت مصر الفرعونية بثقافتها الدينية وطقوسها ، ثم جاءت المسيحية وحاولت تغيير هذا ، وجد الشعب المصري نفسه مخاطلاً بشعوب الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فإن الثقافة المصرية لم تضعف ، ولم تذوب ، لم تجد الثقافتان البيزنطية واليونانية سبيلاً إليها ، بل العكس هو الذي حدث ، إذ تدهورت أهمية العنصر اليوناني دون توقف ، وتبوأت اللغة القبطية - أي اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية - مكانها بدلاً من اليونانية ، وكما كانت مصر في أيام ضعفها تلقى بمقابلتها إلى كبير كهنة آمون - رع في طيبة فإن جميع القرى الوطنية المصرية التفت حول البطريرك ، بابا الإسكندرية أصبح رمزاً للموروث الثقافي المصري ، وقاومت الكنيسة المصرية كل محاولات التذويب واحتفظت بمعذهبها الخاص إلى الآن .

ومع دخول العرب إلى مصر ، والانتشار الإسلام في مصر ، شهدت استمرارية الثقافة المصرية فصلاً جديداً ، فكما لم تجد المسيحية عند دخولها إلى مصر في شعب مصر أرضاً بكرًا وصحراء جرداء ، كذلك فإن الإسلام أيضاً لم يجد في شعب مصر عند دخوله أرضاً قاحلة ، لقد استوعبت الثقافة المصرية رموز الدين الجديد وطقوسه الشبيهة أشد الشبه بها كانت تعنى من رموز وأسرار ، لم تغير النظرة إلى الموت كثيراً إلا في بعض التفاصيل الصغيرة ، خاصة فيما يتعلق بالحرص على تحنيط الجثث أو الدفن داخل توابيت خشبية أو حجرية ، لقد أبطل الإسلام ذلك ، وبالطبع اختلفت الشعائر ، ولكن جوهر النظرة إلى العالم الآخر ظلت كما هي ، والصلة بالموتى ، والحرص على زيارتهم ، وتقديم ذكرائهم ، والامتنال إلى مطاليبهم التي يريدونها عندما يزورون الأحياء في الرؤى والاحلام ، واستمر تقديس المصريين للقديسين وأولياء الله المسلمين ، وذلك بواسطة إقامة أضرحة لهم ، ومجدهم ، والاعتراف بالواجبات نحوهم والحرص على أدائها ، على الرغم من أن هذه

الطقوس مناهضة لروح الدين الإسلامي ، التي تغير من التمسح بالأضرحة وتقبيلها ، والطواف حولها ، وهكذا نلاحظ أن المكانة التي كانت الأمة يحيط بها في الزمن الفرعوني ، نالها بمرور الزمن القديسون المسيحيون ، وأولياء الله المسلمين ، وهؤلاء الأولياء يهارسون تأثيرهم من العالم الآخر على الأحياء في عصرنا هذا ، وقد اكتشف باحث اجتماعي مصرى نابه هو الدكتور سيد عويس أن ظاهرة إرسال الرسائل إلى الموتى مستمرة حتى عصرنا هذا ، خاصة للإمام الشافعى ، المعروف بين الناس باسم قاضى الشريعة أو رئيس المحكمة الباطنية التي تعقد جلساتها في العالم الآخر ، تماماً كما كانت محكمة التاسع الائتمى تعقد جلساتها في العالم الآخر خلال العصر الفرعونى ، كان المصريون في العصر الفرعونى يرسلون شكاواهم إلى الموتى مكتوبة على قطع من الخزف ، وما زال المصريون يكتبون الرسائل إلى الإمام الشافعى ، ( ولد عام ١٥٠ هجرية - ٧٦٧ ميلادية ) وبعد أحد أربعة أيام في الإسلام ) . غير أن أشهر الأولياء في مصر قاطبة هو الإمام الحسين ، ويعتبر أحد المصريون في كل عام بموعد الإمام الحسين حيث يجتمع آلاف الرجال والنساء والأطفال كل مساء قبل ليلة المولد بأسابيعين ، يجتمعون يومياً ، يتلون الأذكار ، ويرقصون ، ويغدون ، والإمام الحسين له مكانة كبيرة عند سائر المصريين ، إذ إنه سيد الشهداء ، وابن السيدة فاطمة ابنة رسول الله محمد ، ويکاد الحسين يكون قد احتل موقع أوزيريس في عملية استمرارية الثقافة المصرية ، وأوجه الشبه عديدة بينهما ، منها الصفات المشتركة والنهائية المأساوية ، أما شقيقته السيدة زينب فتحتل في قلوب المصريين مكانة عظيمة ، إنها نفس مكانة أوزيريس الألهة الفرعونية القديمة ، المخلص ، النقية والسميدة زينب لها عند المصريين منزلة خاصة ، ويطلقون عليها أسماء عديدة منها « غفران مصر » ، و « صاحبة الشورى » و « رئيسة الديوان » ، والديوان هو مجلس يعقد في العالم الآخر يعقد مساء كل سبت وترأسه السيدة زينب ، وينظر في أمور العالم خلال أسبوع مقبل . وكما دافعت الإلهة أوزيريس عن ابن أوزيريس شقيقها وزوجها في الوقت نفسه ، وحث حورس الابن ، فإن السيدة زينب شقيقة الشهيد الحسين قد حثت ابنه الوحيد الذي يبقى على قيد الحياة ، على زين العابدين ، وهو الوحيد الذي تبقى من مأساة كربلاء ، من أبناء الحسين .

ونلاحظ أن تقدیس المصريين لآل بيت النبی لا يعني أنهم يعتقدون المذهب الشیعی، والحقيقة أن المجتمع المصري لا يعرف التفرقة بين مذهب السنة والشیعه وهذا المذهبان الرسميان في الإسلام ، وما ساعد على عدم وجود هذه الحساسیات هو عمق الموروث الثقافي المصري ، وقدرته على استيعاب كل الحساسیات ، لقد استمرت مكانة الآلة أوزیزیس في الضمیر المصري ، والثقافة المصرية ، وإن تغيرت صفاتھ وأسیاده ، في أسطورة

أوزيريس الفرعونية القديمة تقول الرواية إن أعداءه عندما ظفروا به قطعوه إلى أربعين جزءاً، وفرقوا هذه الأجزاء على جانبي وادي النيل، وإن لم يزيس راحت تتبع هذه الأشلاء وتعيد دفن كل منها. حدث ذلك في العصر الفرعوني السحيق. وفي عصرنا الحديث، يمكن ملاحظة عدد كبير من الأضرحة تنشر في الريف المصري والمدن المصرية، كل ضريح منها يسمى «سيدى الأربعين»، وربما يمكن القول إنه لا تخلو مدينة مصرية من «سيدى الأربعين»، ومعظم هذه الأضرحة مجرد نصب رمزية خالية، نصب رمزية لشىء أعمق وأكبر يستقر في وجادان الشعب المصري، متصل بمكانة أوزيريس الفرعون، أو الحسين في عصرنا الإسلامي.

إن عناصر الاستمرار الثقافيّة عديدة ومتعددة، خاصة في تفاصيل الحياة اليومية وتركيب القرية المصرية، والمدن، وطبيعة البيت الداخلي، ومواعيد الزراعة التي مازال الفلاح المصري يعرفها طبقاً للتقويم الفرعوني القديس، وينفس الأسماء الفرعونية القديمة، كذلك أنواع الطعام، وطرق إعداد الخبز وصناعة الأثاث، ومضمون التعاويد التي تُلقي في المناسبات المختلفة والطقوس الاحتفالية، سواء عند الميلاد أو الموت.

هذه التفاصيل كافة تؤكد على قدم واستمرارية الثقافة المصرية في مفهومها العام، وقدرتها على التجدد والاستمرار.

تراجیم ..

للتقرأ هذا المختصر من كتاب «طبقات الشعراء» لابن سلام الجمحي :

٤٠ . . أخبرنا أبو خليفة . أخبرنا ابن سلام . حدثنا ابن جعديه وأبو اليقظان عن جويرية بن أسماء ، قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاختلفت قريش في جنازة كثير . ولم يوجد لعكرمة من يحمله . . . ٤٠ .

• • •

ولنقرأ هذا الخبر أيضاً من كتاب «الطالع السعيد»، الجامع أسماء نجاء الصعيد، للإدفوبي الم توفى سنة ٧٤٨ هجرية:

« علٰى بن ابراهيم بن عبد الملك نور الدين ، أمين الحكم بقوص كان من عذولها ومن الأخيار . سمع الحديث وتسوّجَه إلى الحجج ، فمرض بعكة ووصى للأيتام بما تناوله من الجامكية . وتوّقَّ بعكة سنة تسع وخمسين وستمائة . روى عنه عبد العزيز عبد الرحمن بن السكري : وكان من العقلاء ، ومع هذا طلق زوجته ، فتزوجت بالخطيب محب الدين بقوص ، فغاب عقله وخرج « غرياناً إلى الشارع ، وأخبروا الخطيب بذلك ، فأخذوها مع نسوة ، فحضرت عنده وكلمته حتى سمع كلامها فسكن ، وقامت فتركته ، فرجع عقله ، وكان من عقلاء الناس ، عدلاً . . . ثقة . . . » .

卷之三

خبران يتميّزان إلى مصادرين مختلفين ، متباعدّين في الزمان والموضوع . يترجم الأول لطبقات الشعراء . أما الثاني فيقدم عدّاً من الناس الذين عاشوا في مكان محدد ، ونبغوا في العلم والأدب أو طابت سيرهم . لكن يجمع الكتابين ذلك الفن الخاص ، المزدهر في تراثنا العربي ، فن كتابة الترجم ، والذى يُنظر إليه حتى الآن باعتباره من المصادر التاريخية . ولم ينظر إليه أحد على أنه مصدر غير مباشر لفن القصصي . فمن خلال

كتب الترجم تلك تتفضل أمامنا ألف ، وألوف من الحيوانات المندثرة ، والتي كان يمكننا أن نغيب إلى الأبد ، لو لا سطور تطول نادراً ، وتقل في معظم الأحيان ، لكنها تجسد الملامح الداخلية والخارجية . وتقصص الخطوط العربية وأحياناً تفصل لتلك الأعبار التي اكتملت دوازيرها . لتلك الشخصيات التي سمعت ، من أدباء ، وسلطان ، وأمراء ، ورجال إدارية ، وأطباء ، وحكماء ، وعلماء ، ومتصرفه ، ونساء ، وعازفين ، وأناس بسطاء ، تطالعنا هذه الملامح التي يوشك الكثير منها أن يتجمد من خلال السطور والكلمات . تتنظم هذه الطوابير الطويلة عبر صفحات كتب الترجم التي يصل بعضها إلى حد الموسوعات . هذا شكل عربى أصيل . قديم لم يتناوله أحد بالبحث المفصل ، باستثناء دراسة قصيرة ، ذات طابع تعليمي ، صدرت منذ سنوات في القاهرة للباحث في التراث العربي المرحوم محمد عبد الغنى حسن .

\* \* \*

- الترجم بالختصار نوع أدبي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما ، تعريف يطول أو يقصر ويلزم الإحساس الرواىي لتقديم الشخص من خلال الواقع والصفات حتى تكتمل صورته حية فكانه مازال بعد يسمى . والتراث العربى غنى بفن الترجم يفوق في ذلك سائر الأدب الأخرى ، حتى مجال الترجمة الذاتية ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد . نجد أقدم النماذج المعروفة على مستوى الأدب العالمى في تراثنا العربى . كثير من نصوص الشعر الجاهلى تتضمن ترجمة ذاتية ، أما أول ترجمة ذاتية مباشرة فتجدها في كتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ (٤٨٨ هـ - ٥٨٤ هـ) أى في القرن الحادى عشر الميلادى ، وفي نفس الفترة تقريراً كتب الداعى الفاطمى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى (توفى ٤٧٠ هـ) كتب سيرته الذاتية . أما الشاعر اليمنى عماره العينى فترجم لنفسه في كتاب «النكت العصرية» كما ترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم فى آخريات العصر الفاطمى ، وقد لا يعرف الكثيرون أن المؤرخ العظيم عبد الرحمن بن خلدون ترجم لنفسه في نهاية تاريخه الكبير ، لست أخوض في باب المقارنة . لكن يكفى أن نعرف تاريخ صدور أول ترجمة ذاتية في الأدب الإنجليزى . كان ذلك في القرن السابع عشر الميلادى عندما كتب صمويل بيبيس ١٦٣٣ - ١٧٠٣ م يومياته وملفوظاته وفي نفس القرن كتب ريتز مذكراته في فرنسا عام ١٦٧٢ ، في ذلك الوقت عندما بدأ في كتابة الترجم يظهر في أوروبا ، كانت الترجم العربية قد بلغت حدثاً من الكثرة والتنوع لا ينقاشه به بداية غير منتظمة الخطأ في الأدب الأوروبي ، إنها أسوق المقارنة وأضرب أسلل ليتبين لنا إلى أى حد

نعلم أنفسنا ونجهل تراثنا عندما نجهل هذا المصدر المهم الذي يمكن أن يصبح وافداً هاماً يشري فنون القصص وأشكاله في أدبنا العربي .

\* \* \*

السيرة النبوية أوسع وأشمل مافى التراجم الإسلامية ، إذ كانت المحور الذى تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره ، ثم أصبحت حياة الصحابة والتابعين محوراً هاماً للتراجم فكتب ابن سعد موسوعته عن الصحابة « الطبقات » في القرن الثالث الهجرى ، وفي نفس القرن وضع ابن سالم الجمحي كتابه « طبقات الشعراء » ، ويلاحظ اهتمام المؤلفين في هذه الفترة بذكر الأسانيد والرواية . وربما تأثروا في ذلك بطريقة رواية الأحاديث النبوية ، وفيها تلا ذلك توسيع كتب التراجم والطبقات ، والملفت للنظر أن معظم هذه الكتب التي تبىء بمحاسن روائى واضح عند مؤلفيها . وضفت بمبادرة ذاتية منهم ، لا تقرباً إلى حاكم ولا ترلقاً إلى سلطان ، ولا استجابة لطلاب ، إنما كانت بداعي ذاتى منهم . ويركز ذلك الحسن الأدبي في أعيانهم ، يقول ابن خلkan في مقدمة موسوعته « وفيات الأعيان » بعد أن يشرح منهجه في التأليف :

« وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكره به متأمله ولا يراه مقصوباً على أسلوب واحد فيملأ ، والدواعي إنما تبعت لتصفح الكتاب إذا كان مُفتناً . وبعد أن صار كذلك لم يكن يُذ من استفناه بخطبة وجيبة للتبرك بها ، فنشأ من جموع ذلك هذا الكتاب ، وجعلته تذكرة لنفسى . . . .

ولتشوق مطولاً أمام هذه العبارة الجميلة ، الدالة ، الموجبة « وجعلته تذكرة لنفسى . . . .

إننى أعتبر وفيات الأعيان درة فن كتابة التراجم العربية ، وللوقف أطول معه ، خاصة فيما يتعلق بطريقة ابن خلkan في تقديم الشخصية . في القرن التاسع الهجرى ، تجد المؤرخ المصرى ابن تغري بردى يشير في مقدمة كتابه « النهل الصاف والمستوف بعد الواقى » إلى أنه ألف كتابه هذا :

« غير مستدعي إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان . ولا مطالب به من الأصدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وترصيده من أمير أو سلطان . . . .

كان الدافع عنده ذاتياً محضاً ، ليكمل كتاب « الواقى بالوفيات » مؤلفه الصحفى المتوفى

سنة ٧٦٤ هجرية ، والذي أعقب كتاب ابن شاكر الكتبى ، « فوات السوفيات » والذي قدم فيه لمن لم يترجم ابن خلkan له .

أما ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » توفي سنة ٦٢٦ هجرية ، فيؤكد في مقدمة موسوعته النادرة أنه جمع مادة كتابه هذا « لفروط الشغف والغرام ، والوجد بها حوى والميام . لا لسلطان أجنديه ولا لصدر أرجعيه . . . » .

أما ابن بسام الشترى - توفي ٥٤٣ - « صاحب الذخيرة في حasan أهل الجزيرة » ، والذي ترجم فيه لرجال الأندلس ، فيقول عبر مقدمة جزلة مؤثرة .

« أخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات وهوى ، وتبعد حasan أهل بلدى وعصرى ، غيره لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهله ، وتصبح بحارة ثياداً مضمحة ، مع كثرة أدبائه . ووفر علىاته . . . » .

أما السخاوي صاحب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، والذي يتميز بترجمته لعدد كبير من بسطاء الناس ، أصحاب الحرف وصغر المشايخ ، ومن خلاهم يقدم صورة حية للمجتمع المصرى فيقول في مقدمته .

« والله أمال أن يهيننا الاختلاف المجانب ليلتصاف وأن يرزقنا كلمة الحق في السخط والرضا ويصرفنا عنها لا يرتضى ويقينا شر القضا . . . » .

كان أولئك الذين قدموا أجمل موسوعات الترجم العربية فنية ، وقدرة على الوصف ، وتجسيداً لحيوات الناس ، مدفوعين برغبة داخلية قوية في إعاادة خلق ما اندرس من سير الآخرين . وهذا ما جعل آثارهم تذوّق من حدود الإبداع الأدبي المستند إلى الواقع المروى ، وتحاور كافة أشكاله في مختلف العصور .

\* \* \*

تنوعت كتب الترجم تنوعاً كبيراً ، بدءاً بالترجم العامة التي تجمع عدداً من سير أناس مختلفون صناعة وطبقة وعصراً ومكاناً . لكنهم يتحدون في صفة الجدارة بأن يذكروا . من هذه الكتب ، « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » لكمال الدين الأنبارى ، المتوفى سنة ٥٧٧ هجرية ، والثانى « معجم الأدباء » لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هجرية . وكتاب « وفيات الأعيان » لابن خلkan .

وهناك كتب الترجم التي صنفت حسب العصور ، ومنها « بيتيمة الدهر » للشاعلى ، والذي ترجم فيه لأعلام الشعراء في القرن الرابع المجرى ، وكتاب « البدر المسافر وتحفة

المسافر» للأدفوكى المصرى وترجم فيه لأعلام القرن السابع المجرى، وكتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» للمؤرخ ابن حجر العسقلانى، ثم كتاب السخاوى «الضوء الامض في أعيان القرن التاسع»، وكتاب «الكتاوب السائرة في أعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزى. و «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر» لمحمد أمين المحبى وكتاب «مسلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر» للشيخ محمد خليل المرادى وفي العصر الحديث صدر كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للشيخ عبد الرزاق البيطار.

وهنالك كتب التاريخ العام التى تعتبر من مصادر الترجم شديدة الأهمية مثل كتاب «المقسط» لابن الجوزى. و «الكامل» لابن الأثير، و «النجم الزاهر» لابن تغري بردى، و «بدائع الزهور» لابن إياس، و «عجائب الآثار» للجبرى.

أما كتب الخطوط التى تناولت العمran والمجتمعات العربية فتحفل بالترجم، وأهمها، تاريخ بغداد للمخطيب البغدادى، و تاريخ دمشق لابن عساكر، و تاريخ جرجان للسهمى، و تاريخ حلب لابن العديم. و خطوط المغريزى، و خطوط على باشا مبارك.

و تعد كتب الطبقات من مصادر هذا الفن الفريد، طبقات الصحابة لابن سعد وطبقات الفقهاء، منها «طبقات الفقهاء والمحاذين» للهيثم بن عدى المتوفى سنة ٢٠٧ هجرية، و «طبقات الفقهاء» لابن إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هجرية و «طبقات الشافعية الكبرى» لتابع الدين السبکى، توفي سنة ١٧٧ هجرية. وهذا كتاب شديد الحيوية، يقدم صورة متكاملة واقعية جداً للمجتمع المصرى خلال القرن الثامن المجرى. وهناك كتاب «طبقات الشافعية» لابن قاضى شهبة الدمشقى المتوفى سنة ٨٥١ هجرية، وهناك مؤلفات في تراجم الحنابلة والمالكية والحنفية، وللمشیع العدید من كتب الترجم منها (أعيان الشیعه)، و «مقاتل الطالبین» للأصفهانی صاحب كتاب الأغانی. وبالمناسبة فإن كتاب الأغانی الشهير في جوهره ما هو إلا كتاب ترجم، هناك مؤلفات اختصت بطبقات المحدثين والحفظ والقراء، والنحو، والشعراء، والقصاء، وكتاب واحد فقط في التراث العربى للأطباء، الذى وضعه ابن أبي أصيبيحة المشرف سنة ٦٦٨ هجرية، أما طبقات الصوفية فهناك العدید من الكتب الضخمة التي تحفل بترجم رجال الصوفية وكراماتهم وحوارفهم وعاداتهم. إن المجال ليضيق بحصر تلك المؤلفات. ولكن لابد من الإشارة لثلاث موسوعات كبيرة. الأولى «حلية الأولياء» لابن نعيم الأصبهانى، وقد طبعت عدة مرات في عشرة أجزاء، وكتاب الإمام الشعراوى «لواحة الأنوار في طبقات

الأخيار» واشتهر باسم «طبقات الشعراوى الكبير» . وهناك كتاب هام صدر أخيراً في المغرب هو «التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبا العباس السبئي» لابن يعقوب يوسف بن يحيى التادلى المعروف بابن الزيات وقد صدر في الرباط عام ١٩٨٤ بتحقيق الدكتور أحد التوفيق . ونلاحظ في كتب الترجم المخاصة بالتصوفة وجود البعد الغرائبي أو العجائبي المرتبط بالرجال والنساء المترجم لهم من أصل الكرامات .

\* \* \*

هكذا . . ما قصدت إلا الإشارة إلى ذلك الفن القديم ، العريق في تراثنا ، قبل الإبحار في بحثه مضمونه ، ومحاولة تلمس أسراره ، طرق الرواية ، وأساليبها ، وما يميز هذا عن ذاك . وما يلخص به من تفاصيل وحيوات تتضمن بها السطور بعد أن خلت الأرض من أصحابها ، كما استخلوا منها يوماً . .

## لطائف المتن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق

في بداية سعيي ، زمن اكتهال غضاضتي ، وشروع أمري ، لم تكن يد الوالد الكريم ،  
تخلو من يد عند توجهه هنا أو هناك ، لزيارة قريب ، أو للفسحة . أو للطوفاف بمقام  
أحد الْكُمل الصالحين ، الشاريين في تراب مديتها الشاسعة ، كان أحد مقاصده مسجد  
سيدي عبد الوهاب الشعراي ، الذي ينسب إليه حتى بأكمله بعد من أكثر مناطق القاهرة  
ازدحاماً وأصالة ، باب الشعرية ، مازلت أذكر ظلال المقام ، ورسوخ الضريح ، وخشوع  
ال القوم ، ورائحة القدم المنبعثة من أغطية الأرض الفقيرة عند الركوع مازلت أعنى وفقة أبي ،  
وإطراقته ، والتهاسه الغوث ، العون ، من الشيخ جليل القدر الذي رحل منذ حوالي خمسة  
قرون ، مازلت أذكر مع أن الشوط طال . والمسافات انتهت ، والصحبة انفرطت بعد  
التحق أبي بالعدم . . رحمة الله .

في السنوات الأخيرة عدت إلى سيدي عبد الوهاب الشعراي من جديد ، هذه المرة عبر  
كتبه ، وأثاره ، سطوره حفزتني لزيارته . ولكن هذه المرة بمفردي ، أترحم عليه ، وأقرأ له  
ولوالدي الفاتحة ، بعد أن نقلت إلى دقائق تكوينه الإنساني من خلال ترجمته الـ ذاتية  
البديعة ، الفريدة في الأدبين العربي والعالمي ، المعروفة بلطائف المتن والأخلاق في  
وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، هكذا كتب الإمام سيدي الشعراي حياته ،  
من خلال ذكر ما من الله به عليه . وتطرق إلى أدق تفاصيل معاناته الروحية ، وصلقاته  
الإنسانية ، حتى ما يتعلق بزوجته ، رسم أيضاً صورة حية ، لمجتمعه ، ولعلاقات الناس  
ببعضهم البعض ، بحيث جاء صورة لعصر بأكمله ، يقدر ما عبر اضطرام وثراء الحياة  
الروحية . لواحد من الدين تعلق بهم الشعب . وأنزله في أرفع مكانة .

المن ، جمع منه . وخلال حياة سيدى الشعراوى أنعم الله عليه بالعديد منها . فرأى أن يذكروا . ليقتدى إخوانه به ، فيتخلقوا بها ، يقول في سبب تأليفه الكتاب :

« وقد مكثت متخلقاً بها عدة سنين ، ولا يشعر إخوانى بذلك ، وكنت أمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لي يوماً جماعة منهم ، هذه الأخلاق التى نأمرنا بها لم نجد أحداً مخلقاً بها من أهل عصرنا حتى نقتدى به فيها ، فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلقها . قطعاً لحجتهم ، وقلت لهم : انظروا إلى هذه الأخلاق التى ذكرها لكم في هذا الكتاب ، فكل خلق رأيتمنى متخلقاً به فاتبعوني عليه .

هكذا رتب الكتاب على مقدمة . وستة عشر باباً ، ونهاية ، في الباب الأول يحدد نسبة الذى ينتهي بالإمام محمد بن الحنفية وخطبه في السرد لإيراد فقرات متالية . تبدأ كل منها بجملة « فمما من الله تعالى به على . . . » ، يقول أثناء سرد نسبة :

« وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحد سلطاناً بمدينة تلمسان في عصر الشيخ أبي مدين المغربي رضى الله عنه ، ولما اجتمع به جدى موسى ، قال له الشيخ أبو مدين : من تنتسب ؟ . قال والدى : السلطان أحد . فقال له : إنما عنيت اسمك من جهة الشرف ؟ فقال انتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقر لا يجتمع . فقال له : يا سيدى قد خلعت ماعدا الفقر ، فرباه ، فلما كمل في الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له أسكن بناحية « هقر » فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال . . . » .

هكذا امتنى الجد السابع لأمر شيخه . فجاء من المغرب إلى مصر . وانتقل جذر سيدنا من المغرب إلى المشرق .

\* \* \*

ولد في ريف مصر ، في القرن السادس عشر الميلادى ، يقول عن طفولته :

« وما من الله تبارك وتعالى به على : وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثمانى سنين ، وواظبت على الصلوات الخمس في أوقاتها من ذلك الوقت ، فلا أتذكر أنى أخرجت صلاة عن وقتها إلى وقت هذا إلا نسياناً مرة واحدة فنسبت الظهر في طريق الحجارة حتى دخل وقت العصر من غير نية تأخير ، وكثيراً ما كنت أصل بالقرآن كله في ركعة وأنا دون البلوغ . فلله الحمد رب العالمين . . . » .

جاء إلى القاهرة سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وعمره إنذاك إنذاك عشرة سنين ، أقام في

جامع سيدى أبى العباس الغمرى . وحنن الله عليه شيخ الجامع وأولاده ، فأصبح كأنه واحد منهم ، يأكل ما يأكلون ، ويلبس ما يلبسون :

«فأقامت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وألاتها ، وحللتها على الأشياخ ، ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الواقع في المعاصي ، معتقداً عند الناس بعرضون على كثيراً من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وناسة أطروحها إياحة في صحن الجامع ، فيلتفطها المجاورون ، وكنست كثيراً ما أطوى الأيام وأنا دون البلوغ نعففأ عنّا في أيدي الناس ، وخوفاً من هوانى في أعينهم . . . .

حفظ متون الكتب ، حتى صار يعرف متشابهاتها كالقرآن . واستمع إلى شيوخه وشروحهم ، و كانوا نحو حسين شيخاً . وكان ينسخ الكتاب والزوابد عليه لضيق ذات يده عن شرائها يقول سيدى الإمام الشعراوى :

«وكان ذهنى بحمد الله سيالاً لا يسمع شيئاً وينساه ، ولم أزل كذلك حتى ترادرت على المموم ، لما بلغت فى السن إلى نحو خمس وعشرين سنة . وذلك نحو ثلاثة وعشرين من القرن العاشر (الهجرى) الذى دخلت فيها إلى مصر . لما جاءت دولة بشى عثمان نصرهم الله تعالى ، وقال لي مرات بداعتك نهاية غيرك ، فلاني مارأيت أحداً تيسّر له مطالعة هذه الكتب كلها في هذا الزمن أبداً . . . .

ثم يقول :

«وما أنعم الله تبارك وتعالى به على حال اشتغاله بالعلم على الأشياخ حفظى من دعوى العلم والتکبر به على العامة ، فلا أستحضر أنسى رأيت نفسي قط على أحد من عوام المسلمين » .

من نعم الله عليه أيضاً خفض الصوت عند حفظه . أو جده مع رفاته وكذلك كثرة المطالعة ، ومراجعة المشايخ سعياً إلى الفهم الأدق وكان دائم السعى إلى نوادر المخطوطات .

«وكان الله تعالى قد سخر لشيخ شمس الدين المظفرى يأتيه بكل كتاب طلبه من خزائن مصر ، فجزاه الله تعالى عنى خيراً . . . » وبعد ذكر تحصيله ومجاهدته في طلب العلم ، يذكر مؤلفاته وتقريره عليها عصره لها ، ويورد نصوص العبارات التي مذحوه بها ، ثم يقول :

«وما أنعم الله تعالى به على : موت جميع أشياخى وهم عنى راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى على . . . .

كان سيدى الإمام يجاهد في طلب العلم وتحصيله ، حتى أنه سعياً إلى سهر الليالي مد حبلأً من السقف أحاط به عنقه ، يجعله حولها من العشاء إلى الفجر . وملكت على ذلك سنين ، حتى لا تأخذه غفوة .

### القناعة باليسير

بعد ذكر ما حصله من كتب ، وما استوعبه من شروح ، ومتون ، يأخذنا شيئاً فشيئاً إلى عالم الروحى . فيقول مانصه :

« وكانت القناعة من الدنيا باليسير سلائى ولحمتى ، فأغتنى بحمد الله عن وقوسى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا .

ولم يقع لي أنسى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحسب إلى وقتى هذا . وعرضوا على الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكان المباشرون والتجار يأتون بالذهب والفضة فاتشرها في صحن جامع الغمرى فيلقطها المجاوروون ، وتركـت أكل لذيد الطعام ، وليـست الخيش والمرقعـات من شرامـيط الكـيـان نحو سـتـين وأـكـلـتـ الزـرابـ لما فـقـدـتـ الـحـلـالـ نحو شـهـرـين ، ثم أـغـاثـتـيـ اللهـ تـبارـكـ وـتـعـالـىـ بالـحـلـالـ الـمـنـاسـبـ لـمـقـامـيـ إـذـ ذـاكـ ، وـكـتـتـ لـأـكـلـ طـعـامـ أـمـينـ وـلـمـ باـشـرـ ، وـلـ تـاجـرـ بـيـعـ عـلـ الـظـلـمـةـ ، وـلـ فـقـيـهـ لـيـدـ فـيـ وـظـيـفـتـهـ . وـيـأـكـلـ مـعـلـومـهـاـ وـلـاـ غـيـرـهـمـ منـ جـيـعـ الـتـهـورـيـنـ فـيـ كـسـبـهـمـ ، وـضـاقـتـ عـلـ الـأـرـضـ كـلـهـاـ وـنـفـرـتـ مـنـ جـيـعـ النـاسـ وـنـفـرـواـ مـنـيـ . فـكـنـتـ أـقـيمـ فـيـ الـمـسـاجـدـ الـمـهـجـورـةـ ، وـالـأـبـرـاجـ الـخـرابـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ ، وـأـقـمـتـ فـيـ الـبـرـجـ الـذـيـ فـوـقـ الـسـوـرـ مـنـ خـرـابـ الـأـمـدـيـ مـدـةـ سـنـةـ . وـمـاـ رـأـيـتـ أـصـفـيـ مـنـ تـلـكـ الـأـيـامـ . وـكـنـتـ أـطـوـيـ الـثـلـاثـةـ أـيـامـ وـأـكـثـرـ ثـمـ أـفـطـرـ عـلـ نـحـوـ أـوـقـيـةـ مـنـ الـخـبـرـ مـنـ غـيـرـ زـيـادـةـ وـضـعـفـتـ بـشـرـيـتـيـ ، وـقـرـيـتـ رـوـحـانـيـتـيـ ، حـتـىـ كـنـتـ أـصـدـعـ بـالـهـمـةـ فـيـ الـهـوـاءـ إـلـىـ الـصـارـىـ الـمـنـصـوبـ عـلـ صـحنـ جـامـعـ الغـمـرـىـ ، فـأـجـلـسـ عـلـيـهـ فـيـ الـلـيـلـ وـالـنـاسـ نـائـمـونـ ، ثـمـ إـذـ نـزـلـتـ مـنـ السـلـمـ إـلـىـ الـجـامـعـ أـنـزـلـ بـجـهـدـ وـتـعـبـ لـغـلـبـةـ رـوـحـانـيـتـيـ وـطـلـبـهـاـ الصـعـودـ إـلـىـ عـالـمـهـ ، فـإـنـهـ لـاـ يـقـلـ الـإـنـسـانـ فـيـ الـأـرـضـ إـلـاـ كـثـرـ الشـهـوـاتـ . وـهـذـاـ هـوـ سـبـبـ تـحـريـكـ الـإـنـسـانـ رـأـيـهـ حـالـ الذـكـرـ ، وـتـلـاوـةـ الـقـرـآنـ ، فـكـانـ الـرـوـحـ تـشـتـاقـ إـلـىـ الـقـرـبـ مـنـ حـضـرـةـ رـبـهاـ ، إـذـ سـمـعـ كـلـامـهـ أـوـ اسـمـهـ فـكـادـ تـلـحـقـ بـعـالـمـهـ السـيـاـرـىـ ، وـقـدـ أـنـشـدـواـ فـيـ مـعـنـىـ ذـلـكـ :

ولـمـ بـدـاـ الـكـوـنـ الغـرـبـ لـنـاظـرـىـ

حـتـىـ إـلـىـ الـأـوـطـانـ شـبـ الـرـكـابـ

يقول سيدى الإمام الشعراوى إنه كثيراً ما خرج إلى موارد البرك التى يغسل الناس فيها الفجل والخس والجزر والبقل فيلتفت منها ما يكفيه ، ثم يقول :

« وقد مكثت أنا نحو ستة وعشرين من شرقي الكبيان وقصاصه الجلود . حتى وجدت الحلال ، وبالغت في التدقير في الورع بحماية الله عزوجل لا بحول ولا بقوى ، حتى كنت لا أكل من فراخ الحمام لأكلها من زرع الناس ، ماقد لا تسمح به نفوسهم ، ولا أمشى في ظل عمارة أحد من الولاة أو أعوانه ، ولما عمل السلطان العسورى بمصر السابطا - السقف - الخشب الذى بين مدرسته وقبته السزرقاء ، تركت المروى من تحته ، فكنت أدخل من سوق الوراقين ، وأخرج من سوق الشرب ، وأنا بحمد الله على مقام الورع إلى وقتى هذا . . . » .

### الملتفت لا يصل

يدرك الإمام كثيراً من شيوخه ، ولكن الاسم الذى يتزدّد أكثر من غيره . هو الشيخ على الخواص ، وقد أفرد له ترجمة مطولة في كتابه لواقع الأنوار المعروف بطبقات الشعراوى . بعد أن يذكر مجاهدته من أجل العلم . واستيعاب الفقه ، والعلوم الشرعية ، والiagnostics ، بعد أن يذكر قبساً من مجاهدته الروحية ، يتقدّل إلى مجاهدته على يد سيده وسيدنا الشيخ على الخواص الذى أمره في أول اجتياح به أن يبيع جميع كتبه ، وأن يتصدق بشمنها على القراء ، فامتنع مع أنه يذكر نفاسة كتبه ونذرها ، صار عنده التفاتات إليها وحزن لكثرة كتابه الخواشى والتقييدات عليها ، شعر كأنه سلب العلم ، فطلب منه شيخه أن يذكر الله تعالى فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل .

وهنا :

« عملت على قطع الالتفاتات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله تعالى من ذلك ، فأمرنى بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقنى ، فصرت أهرب من الناس وأرى نفسي خيراً منهم فقال لي : أعمل على قطع رؤية أنك خير منهم .

فعملت في المجاهدة مدة حتى صرت أرى أن أرذلهم خير مني .

ثم أمرنى بالخلطة . والمصبر على أذاهم . وعدم مقابلتهم . فعملت على ذلك حتى قطعنه . فرأيت حيثذاك أننى صرت أفضل مقاماً منهم فقال لي : أعمل على قطع ذلك . فعملت على قطعه مدة ، حتى قطعه .

ثم أمرني بالاشغال بذكر الله تبارك وتعالى سرًا وعلانية . وكل خاطر خطير لي بترك أكل الشهوات مطلقا ، فتركتها حتى صرت أصعد بالهمة في الماء . وصارت العلوم النقلية تراحم العلوم الوهبية ، ثم أمرني بالتجهيز إلى الله تعالى في أنه يطلعني على أدلةها الشرعية . فلما أطمعت عليها وصار لوح قلبي مسحوا من العلوم النقلية لا تدرجها في الأدلة ، ترددت على حيذن العلوم الوهبية ، وكان ابتداء ذلك بساحل بحر النيل عند بيت البراءة وسوق القلعة ، فيبينا أنا واقف هناك ، وإذا بباب من العلوم اللدنية افتحت لقلبي ، كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أنكلم على معانى القرآن والحديث . واستطعت منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك ، حتى استغشت عن النظر في كتب المؤلفين ، فكتبت عن ذلك نحو مائة كراسة . فعرضت بعض ذلك على سيدى على الخواص فأمرني بغسله ، وقال : هذا علم مخلوط بفکر وکسب . وعلوم الوهاب متزهه عن مثل ذلك . فغسلتها وأمرني بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال : بينك وبين علم الوهاب الخالص ألف مقام . فصرت أعرض عليه كل شيء ففتح به على ، وهو يقول : اعرض عن هذا واطلب ما فوقه . إلى أن كان ما كان . فهذا كان صورة فتحى بعد المجاهدة المذكورة . فلله الحمد والصلوة والحمد لله رب العالمين .

\* \* \*

هكذا ، بدأ سيدى الإمام الشعراوى طريق القوم . وفي ختام الباب الأول الذى خصصه لشرح عناصر تكوينه ، يورد سطوراً لشیخه سيدى على الخواص .

« كان إبراهيم بن أدهم رحمة الله ي يقول : مررت على حجر مكتوب عليه أقلينى تعتبر ، وذلك أيام سياحتى ، قال : فقلت فوجدت في باطنها مكتوبًا : « أنت بها تعلم لم تعلم فكيف تطلب علم مالم تعلم فواهله إن أمثالنا لم يطلب العلم إلا لإقامة الحاجة عليه لا غير ، ومن أدعى غير ذلك كذبته أفعاله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . . . » .

يقول الإمام الشعراوى في مفتتح الباب الثاني إن من نعم الله عليه عدم اصفائه منذ طفولته إلى من يزعم أنه يعرف علم الكيمياء ، أو يقدر على فتح المطالب ، وهذا من النعم الجليلة ، فقد تلف في ذلك حال كثير من القراء وطلبة العلم ، كان سيدى إبراهيم التبولى يقول : ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحکام المقت فيهم ، من يحب اللواط . ومن يحمل الكيمياء ومن يريد فتح المطالب .

واضح أن المجتمع المصرى كان مشغولاً بالأمرىن معاً ، الاشتغال بالكيمياء لتحويل الحديد إلى ذهب . والعنور على الكنز الخبيثة التي تضم الذهب والمجوهرات الفاسدة ،

يقول الإمام الشعراوى إن سيدى «أبو» البقاء بن البارزى أخبره عن شخص نصب عليه . فأتلف عليه نحو ثلاثة ألف دينار ، فصار يأخذ منه دفعات من المال ، ويطبخ -أى يجرى التجارب - فتطلع الطبخة فامضى ، فيقول له : المرة الثانية تصح إن شاء الله تعالى ، واستمر الأمر حتى نفذ جميع ما معه من مال .

سأله مولانا الشعراوى : وأين ، كان عقلك ؟

فقال : وهل لمحب الدنيا من عقل ؟

### المطالب

أما الشيخ محمد أبو شعر الماوردي فكان من أصحاب سيدى الشيخ «أبو» السعود الجارحى . أخبر مولانا الشعراوى أن رجلاً نصب عليه قال له : بلغنى أن في قاعتك مطلباً عظيماً ومقصودى أفتحه لك ، ولكن يحتاج إلى نحو سبعة وعشرين ألف نصف نثري بها بخورات ، ونحل بها ضيام الجن الذين يحرسون الكنز ، وكان النصاب يعرف علم الكيمياء ، فأخذه وأدخله القاعة ، وأطلق له عشباً معروفاً عنده فرأى بمخيلته أن باباً افتتح ، فنزل هو وإياه فوجداً أكوااماً من الذهب والفضة كالتلال الصغيرة ، وإذا بملك الكنز وحارسه نائم على سرير قوائمه من ذهب وهو مغطى بشباب من حرير ، وعليه شبكة من لولق . فقال له : بقى عندك شك ؟ ، فقال : لا ، فقال : أعطنى من المال لأنى لك بالبخور الذى يبطل الموضع لتتخربه ، فأعطاه جميع ما يبيده من النقد ، وأخذ أساور أمه الذهبية ، وباع حتى ملابس زوجته ، وبعد أن أخذ النقود كلها اختفى ، ولم يعثر له على أثر حتى اليوم ، وبعد أن يأتى إمامنا الشعراوى بحكايات عديدة حول الذين سعوا إلى كشف الكنز ، أو تحويل الحديد إلى ذهب ، يقول :

« وقد لعب الشيطان بجماعة كثيرة يدعون التصوف والسلوك فأتلفوا ما كان بأيديهم وأيدي أصحابهم من الأموال . وصاروا كلهم فقراء من الدنيا يأكلون بدميهم وصلاتهم ويجالسهم في الذكر خيراً وطعاماً وثياباً . فكان الذى يأكل بالطبل والمزمار أحسن حالاً منهم . لأنه قد قيل بحل الأكل بالطبل والمزمار في الجملة » .

ثم يجدها عن امتحانه لأحد الصوفية المشهورين في عصره :

« وقد امتحنت سيدى محمد الجعفى لما حججت ، وقلت له : أنا أعرف علم الكيمياء فصار يخدمي أشد الخدمة ، فلما عزمت على الرجوع من الحجج تبعنى . وقال : علمي ما وعدتني . فقلت له : هيئات . . . كيف أعلمك شيئاً يشغلك عن الله تعالى . فما زال

يقسم على فلا أجيبيه ، ثم قلت له : يا شيخ محمد أين شهيرتك بالزهد في الشام ومصر والمحجاز والروم ، وأنت تحب الدنيا ؟ قال ، فاستغفر وتاب على يدي . وكلح مني » .

### الشفقة

من نعم الله العظيم على مولانا إحساسه بالآخرين . لم يكن ذاهلاً أو غائباً عن مجتمعه أو ناسه .

« كثرة شفقتي على جميع المسلمين ، وولاة أمورهم ، حتى أني ربما أمرض لمرض ولد أمري . وأشفى وقت شفائه ، ومن شفقتي أني أحوطهم في كل يوم وليلة بها ورد في الأخبار والآيات ما يدفع عنهم الآفات المعلقة على ذلك ، حتى أني أحوط جسورهم أيام زيادة النيل خوفاً من أنها تقطع قبل وقتها أو يقطعها العصابة كذلك فيعدم الناس رى أراضيهم أو بعضها ، وكذلك أحوط زروعهم من الدودة والهياج - المشرات - والفار ، ونزول المطر الذي يحرق الزرع بعد اشتداد حبه ونحو ذلك إلى طلوع الشري » .

والمقصود بالح祸ة التي يذكرها مولانا أنه يقرأ آيات من القرآن الكريم وأوراداً تقيم حاجزاً وسياجاً حول الشيء المراد التحويط عليه لحياته ، وقد وقع لي مثل ذلك في طفولتي بصعيد مصر ، عندما كانت جدتي لأمى ترفع أصبعها وتحركها حول رأسى متمتمة بها لا أعلمها وبين الحين والآخر تقول إنها تحوطنى من عين الحسود والمرض وأخطار الطريق والجهول ، يقول مولانا وسيدهنا :

« وكذلك أحوط زهر الفواكه والخضروات خوفاً من البرد والحر الشديدين ، لأنها يسقطان الزهر فيخسر الناس الذين يزنون المال على ذلك ممجلأ ، وكذلك أحوط من يغفل عن الله عز وجل من رعاع الناس ، في مثل يوم خروج المحمل أو خروج الحجاج أو دخوهم . أو كسر النيل أيام الوفاء ، أو دخول نائب جديد البلد ، أو عمل مولد . أو عرس . أو نحو ذلك . كالتنرج على البهلوان ، فأحوط جميع هؤلاء وأحوط دورهم خوفاً أن تسرق المصووص ما فيها حال غيتهم » .

بلغ من رهافة إحساسه بالآخرين ، أنه كان إذا سمع امرأة تهتز خاضعاً صعباً ، يشعر هو بالألم الوضيع حتى تلد ، كان يرحم جميع الخلق ، فلكل مخلوق عنده رحمة تناسب حاله من مؤمن وكافر ، والرحة على الخلق مقام لم يتفرد به إلا قلة محدودة جداً من الصوفية ، ويجدها إماماناً عن رؤيا مرت به في شباهه ، إذ رأى في النام أنه في أرض من بللور واسعة عليها سور شاهق نحو السحاب ، وليس له بباب ، وهو خلف الشيف نور الدين

الشونى ، شيخ مجالس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصر وقرابها ، فيينما هما ما شيبان إذ نزل من السماء قرية من ماء في سلسلة من ذهب ، لمى أن وقف بقدر ما يصلها فمه ، شرب الشيخ نور الدين منها ، ثم أعطاه الفضيلة ، تركه حتى تجاوزه ، عندئذ نزل شيء يشبه اللوح وهو في سلسلة من فضة إلى أن وقف بقدر ما يصل إليه الفضى كذلك ، فرأى ثلاثة عبادون تتفجر بياء بارد ، على العين العليا مكتوب ، هذه العين مستمدة من حضرة الله تعالى ، أمانت الوسطى فمن العرش ، والسفلى من الكروسي ، ألممه الله تعالى أن يشرب من الوسطى . ولما قص رؤاه على الشيخ شهاب المرامى فسره له . قال له إن ذلك يعني الرحمة بجميع العالم . لأن الحق تعالى ما ذكر أنه استوى على العرش إلا باسم الرحمن .

### الأكل

يحدثنا مولانا الشعراوى على امتداد كتابه مرايا عن الأكل ، فمن من الله عليه أنه لم يأكل من طعام فيه شبهة ، وإذا استرابة فيه ينتقىه ، كذلك عدم الشبع من الحلال فضلاً عن الحرام والشبهات ، وذلك من أكبر نعم الله تبارك وتعالى عليه ، فإن أكل الحرام أو الحلال الزائد عن الحاجة يجلب النوم ، والنوم أحوال الموت ، لأنه يورث الغفلة . عن جميع المصالح ، والخير ، كل الخير في اليقظة ، والشر في النوم والغفلة ، ومن النعم أيضاً عدم اشتهاه شيئاً من المطاعم والملابس إذا دخل السوق وإذا رأى فإنه يرى ببصر عقله لا بقلبه . كذلك كرهه الأكل من الصدقات الخاصة . وأيضاً حمايته من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم من العمال ، ومشائخ العرب ، والكتاف ، وشيوخ البلد ، والمبashرين ، أى من يمتنون إلى السلطة ، قال تبارك وتعالى « ولا ترکتوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » فنهى عن الركون والاستكانة إلى الظلم . كان سيدى إبراهيم التبoli يقول : إياكم أن تأكلوا من طعام من يعتقد فيكم الصلاح من الأمراء وغيرهم . فإنكم تأكلون بدينكم . وكان رضى الله عنه يرد هدايا الولاة . وقد أرسل إليه شخص من جند السلطان في رمضان صحن كنافة مبخرة ، ونشر عليها السكر والفستق ، فأكل منها قليلاً ، فقسما قلبه جعة ، وعجز عن إخراجه بالقى . ومرة أخرى أفتر عنده شخص من مباشري القلعة في رمضان ، فوجد على مائذته أكثر من خمسة عشر لوناً ، علم أنه متهرور في مكسيه ، فأكل لأجل خاطره ثلاثة لقى بورق فجل ، وفي الليلة نفسها رأى في المنام من يقول له : امتنع من يحاذيك على الصراط من أجل الثلاثة لقى التي أكلتها الليلة بورق الفجل . عيناً حاول أن ينتقى فلم يتيسر له . يتساءل مولانا : فإذا كان هنالك مثل ثلاثة لقى بورق فجل ، فكيف

الحال فيمن يشبع ، فسأل الله تعالى من فضله أن يحميني وإخوانى من مثل ذلك بقية  
أعمرنا ، أمين والحمد لله رب العالمين .

## الولاية الحكام

يشعر إمامنا الشعراوى بالام الحكام ، حتى أنه يمرض لمرضهم ، ولكنه يحسهم كولا  
لأمور المسلمين وليس باعتبارهم حكامًا ذوى سلطة ، وقد نشر في صفحات كتابه الكبير  
من المتن المتعلقة بعلاقته بهم ، ومعظمها يعكس تعقلا ، وتجنبا وشجاعة في مواجهتهم  
عند وقوع الضرورة . يؤكد أنه لا يخاف من خلوق مطلقا ، حتى الحياة أو العقارب  
والثعابن واللصوص والجحود ، ولكنه قبل ذلك يقول :

« وما أنعم الله تبارك وتعالى به على : عدم خوف من أحد من الولاية بسبب كلام نقله  
لهم بعض الخسدة في حقهم عنى أو نحو ذلك إلا إن كان الخوف منهم يرجع إلى الخوف  
من الله عز وجل » .

ويروى إمامنا عن الأمير خضر كاشف الشرقية والقليوبية أن الشیخ المتصرف على  
البرلسى لقيه في طريق قليوب ، ومحه العسكر فقبض على طوقة وأنزله من فوق الفرس ،  
وصار يصفعه ويضرره على عياله ، حتى هدمها في عنقه بحضور عسكر السلطان ،  
حتى أن الأمير صار يرتعد من هيبه .

« ومن هنا تصدر العلية العاملون لإزاله منكرات الولاية كالشيخ محى الدين التورى ،  
والشيخ تقى الدين الحصنى ونحوهما لكمال زدهم في الدنيا ، ولو أنهم كانوا يحبون الدنيا  
لما فدر أحد منهم على خاصصة أحد الولاية » .

يقول الإمام الشعراوى إنه حل دائما على العلية الذين يدخلون على النساء ولا  
ينصحوهم ، ولا يأمرهم بمعرفة ، ومن من الله عليه نفورة من مدح النساء ، وقلة  
عبادته للظلمة ، وفي المقابل فإنه يشارك الخلق كل بلاء يقع عليهم ولا يهدى إلا إذا ارتفع .  
« وما من الله تبارك وتعالى به على : مشاركتى لكل من بلغنى أنه في ضيق في جميع ما  
يصيبه ، وينزل عليه من البلاء والمحن » .

« وما يقع لي أنه إذا كان عندي امرأة في المخاض أحسن أنى أطلق مثلها ، إذا بلغنى ما  
هي فيه من الوجع . وكذلك . إذا بلغنى أن أحدا يعاقب في بيت الولي أحسن بالفارع ،  
والكسارات وعصر الرأس ، ووضع المخرنة المحادة بالنار على رأسى . . . » .

وفي المقابل يقول إن من منن الله عليه حب الفقراء له ، واعتقادهم فيه حتى أن بعضهم يختلفون به ، ويقولون لبعضهم : وسر سيدى عبد السوهاب . فيختلفون به كما يختلفون بالمشايخ المؤتى ، المدفونين في التوابيت « مع أنى لست بشيخ ، وإنما الله تعالى مازال يسترزى بين عباده بوجوه شتى ، فله الفضل والمنة على سترى بين عباده » .

### الحياة الخاصة

لا أظن أن ترجمة ذاتية في الأدب القديم أو الحديث حوت مثل صراحة امامتنا الشعراوى وهو يسرد لطائف منه ، خاصة فيما يتعلق بزوجته ، وعندما ترجمة إلى زيارة سيدى أحمد البدوى في طنطا صحب زوجته . كان قد عقد عليها منذ سبعة شهور وما تزال بكرًا ، جاءه السيد أحمد البدوى ، وقال له : اختل بها في ركن القبة الذى على يسار الداخل وأزل بكارتها ، ففعل .

« وما أنعم الله تبارك وتعالى به على : كثرة شفقتى على ذريتى من قبل أن تحمل بهم أمهם . وذلك أنى لا أجمع أمهم قط وأنا غافل عن الله تبارك وتعالى ، ولا أجمعها وأنا غضبان ولا وأنا مقبل على الدنيا ، ولا وأنا مخاصم أمهم لحظ نفس ، ولا وأنا حسود أو متكبر على أحد من المسلمين » .

ومن لطائف المتن أيضًا كثرة صبره على زوجته إذا مرضت ، حتى أنه لا يستنكف أن يمسح ما تحتها من القاذورات إذا عجزت عن الذهاب إلى الخلاء ، أو الجلوس على الطشت مثلاً . كما كانت تفعل معه إذا مرض ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

« وإن طال مرضها واحتتجت إلى التزوج لم أتزوج عليها لشلا أجمع بذلك عليها مرضين . حسيًا ومعنوياً ، وإن خفت العنت استعملت الأدوية المسكنة لمحاجن الشهوة إلى وقت شفاء زوجتي أو موطها . كل ذلك فيما يحتمل الصحبة ولو ليلة واحدة . وشفقة على خلق الله تعالى بمثل ما أصنع معها إذا مرضت » .

يقول إن من منن الله عليه عدم بخله عليها بأجرة الحمام ، سواء كان لإزالة جنابة جائع أو نفاس ، أو حيض . لأن ذلك من جملة المعاشرة بالمعروف ، فمن بخل على زوجته لم يعاشرها بمعروف ، وعلى امتداد الكتاب يوصى بغض الطرف ، وعدم النظر إلى محسن امرأة الجار ، أو تلك التي غاب زوجها ، والرحة بالأبناء ، والمودة والقربى للزوجة .

\* \* \*

لطائف المتن دستور إنسانى رفيع فيما يجب أن تكون عليه علاقة الإنسان بمجتمعه، بأسرته ، بصحبه ، بالحكام والولاة ، يفصل أحوال المجتمع المصرى في القرن السادس عشر الميلادى ، ويثبت أن المتصوفة الكبار كانوا على صلة وثيقة بأدق تفاصيل الحياة اليومية ، كانوا طرفاً أساسياً في المجتمع ولم يكونوا على هامشه ، وقد أدرك الناس ، خاصة البسطاء حقيقة هذه النفس الشفافة . الإنسانية ، فأنزلوا صاحبها في حياته أرفع منزلة ، حتى أنهم حلفوا به . وبعد وفاته رفعوه إلى مرتبة الأولياء الصالحين . وإننى إذ أمضى لزيارة ضريحه في زمنى القاهرى العتيق ، احتوى بمنظرى مئات الساعين إليه ، القادمين من قرى قصبة ، أو أماكن بعيدة ، يطوفون بمرفقه ، يقرءون الفاتحة ، ويشون نجواهم ، ومواجعهم . لقد عبر جوهره الإنسانى الحقب والعصور المتالية . فصار ضرورةً مشعاً ، هو الذى لم يقدم على تدوين لطائف المتن الذى أنعم بها الله عليه ، إلا ليقتدى به الآخرون ، ويتبعوه ، فتصبح إنسانيتهم .

## ابن سينا .. يتحدث عن نفسه

تبعد الترجمة الذاتية في أدبنا العربي لغير المدقق ، الخبر بجوانب هذا التراث نادرة بل قد يقول البعض إنها منعدمة ، غير أن الواقع لا يؤيد ذلك ، فعلى جانب النصوص التي كتبت ترجمة ذاتية مباشرة ، أى أن الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد ، مثل (الاعتبار) لآسامة بن منقد ، و (المنقد من الضلال) للإمام الغزالى ، و (السيرة المؤيدية) للمؤيد الشيرازى ، هناك نصوص عديدة في بطون الكتب ، إلى جانب الشعر العربي القديم ، الذى نجد في العديد من قصائده ترجمة ذاتية للشاعر ، وهذا موضوع يحتاج إلى بحث ودراسة مفصلة ، وبالطبع فإننى أتحدث عن الترجمة الذاتية ، أما عن كتب الترجمة فها أغنى الأدب العربي بها ، وكتب الطبقات والتراجم يزخر بها تراثنا في مختلف العصور .

من النصوص المندسة في بطون الكتب ، نص فريد يتحدث فيه ابن سينا عن شأنه ، وتكونيه أملأه على أحد المقربين منه ، أبي عبيد الجوزجاني وهذا النص موجود في كتاب (عيون الأنبياء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيحة ، والذى حققه وشرحه الدكتور نزار رضا ، وصدر في بيروت عن منشورات دار مكتبة الحياة منذ عدة سنوات . يقول المحقق في مقدمة الكتاب :

« من أطباء العرب المعروفيين وأدبائهم المرموقين ، رجل ترجم في كتاب واحد ، لم يولف غيره . أطباء العالم المشهورين مثل بهذه التاريخ حتى يومنه الذى هو فيه ، إنه موفق الدين أبو العباس أحد بن القاسم بن أبي أصيحة السعدي الخزرجي » .

ولد في دمشق عام ٦٠٠ هجرية ، وكان والده طبيباً تلقى علم الطب في دمشق ، والقاهرة ، وذاعت شهرته حتى وصلت إلى أمير صرخد ، إحدى مدن جبال حوران ، فأرسل يطلبنه ، فرحل إليه ، وهناك عاش حتى توفي في ٦٦٨ هجرية ، وضع كتابه هذا لأمين الدولة وزير الملك الصالح ، وقد بدأ فيه بترجمة كبار الأطباء زمن الإغريق ،

والروماني، والهنود، والعرب، والمعجم . ترجم لأطباء مصر والشام ، كل قطر على حدة . طبع لأول مرة على يد المستشرق الألماني مولر الذي عثر على نسختين مخطوطتين منه عام ١٨٨٤ . ثم قامت المطابع المصرية بطبعه مرة أخرى ، نفلاً عن طبعة مولر، إلا أن العثور على طبعاته القديمة بات صعباً ، ولم يصبح متاحاً إلا بعد التحقيق الجديد الذي قدمه الدكتور نزار رضا .

\* \* \*

ابن سينا أو الشيخ الرئيس ، أو إمام العلوم كلها ، ولد عام ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) قرب بخارى . كان أبوه من أهل بلخ . أتم دراسته في اللغة والأدب وهو في سن العاشرة على يدي رجل مجهول لم تذكره الترجمة التي تتحدث عنها . ويقول الأستاذ محمد ثابت الفندي في تعليقه على المادة التي كتبها المستشرق دى بور لدائرة المعارف الإسلامية إن هذا الرجل من المحتمل أن يكون هو أبا بكر محمد بن محمد البرقى الخوارزمى (يراجع كشف الظنون لخاجى خليلة الجزء الثالث - ص ٣٧٦) ، وتقول الترجمة إنه درس الطب بمفرده ، من جهة أخرى يرى أن تلقاه على أبي سهل المسيحي ، وأبا منصور الحسن بن نوح القمرى ، عام ٣٩٢ هـ ، وبعد سقوط عرش السامانيين بين يدي أمير غزنة السلطان محمود بن سبكتكين ، خرج من كركانج إلى جرجان عام ٤٠٣ هـ ، فازاً من وجه سلطان غزنة أيضاً ، ويدرك فريد الدين العطار أنه التقى بالشيخ أبي سعيد بن أبي الحير شيخ متصوفة هذا العصر في نفس هذا العام ، في عام ٤٠٦ هـ يظهر ابن سينا في المدى ثم نجده في همدان حيث تولى الوزارة مرتين ، إلا أنه من المؤكد أنه ترك الوزارة عام ٤١١ هـ ، إذ نجد في أخبار هذا العام عند ابن الأثير ذكرًا لوزير آخر ، بعد تركه الوزارة اضطهد من قبل أمير همدان الجديد ، بث حوله البصاصين ، بل إنه سجن لفترة ، وأخيراً . فر إلى أصفهان عام ٤١٤ هـ ، وعاش مقرضاً من أميرها علاء الدولة بن كاكاويه . ثم توفي في عام ٤٢٨ هـ . ويرى ابن خلkan في وفيات الأعيان روايات مختلفة عن موضع وفاته ، كما ذهب بعض المستشرقين إلى القول بأنه توفي بالأندلس إثر دميسة من ابن رشد ، ولكن هذه أقاويل تفتقر إلى أبسط الأدلة ، وحتى الآن فإن قبره ما زال بهمدان يزار . كان ابن سينا قريراً ، جلداً ، وفي نص ترجمته صورة حية ، بلية تصف مواصلته السهر لتحصيله العلم ، وسكنه المياه الباردة على رأسه كلما أوشك على النوم حتى يفيق ، في السادسة عشرة كان قد استوعب الطب ، والمنطق ، والآليات ، وعندما تمكن من علاج سلطان بخارى نوح بن منصور سمح له بدخول دار كتبه ، ولأنه كان يتمتع بقوة ذاكرة مدهشة فقد

استطاع في فترة وجيزة أن يحصل من العلم الكثير . وفي الواحدة والعشرين بدأ يصنف الكتب . تعرضت حياته لا ضطربات بعد وفاة والده ، إلا أنه كتب أهم مؤلفاته خلال فترات الراحة والهدوء التي كان ينعم بها في بلاطى همدان ، وأصفهان ، وقد أتم في هذه الفترات دائرة معارفه الفلسفية (الشفاء) ومصنفه الطبى (القانون في الطب) . وقد تركت مؤلفاته الموسوعية أثراً عميقاً على الفكر الإسلامي ، والتصور التالية له ، وبعد موته تكونت له في الأذهان ملامح أسطورية . والترجمة التي نورد نصها تلقى الضوء على بعض مسيرته ، خاصة سنوات تكowينه ، إلا أنها تنبئ إليها من زاوية حاوله تسليط الضوء على بعض الجوانب المجهولة في الأدب العربي ، خاصة وأن كتاباً مثل (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) قد لا ينظر إليه دارسو الأدب العربي باهتمام . وكثير من المصادر التي يمكن أن تشير أدبنا الحديث في بطون كتب غير مطروقة . وهذا النص يؤكد وجود شكل المسيرة الذاتية في تراثنا العربي والإسلامي ، إلى جانب نصوص أخرى سوف نتناول تسليط الضوء عليها تباعاً .

\* \* \*

إن أبي كان رجلاً من أهل بلغ ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصوف . وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميشن من ضياع بخارى ، وهي من أمهات القرى . وبقرية يقال لها أفسنة ، تزوج أبي منها بسوندتنى وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخرى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى مني العجب . وكان أبي من أجياد داعي المصريين وبعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخرى . وكانت ربياً تذكروا بينهم وأنا اسمعهم وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي ، وابتدعوا يدعونى أيضاً إليه ، ويحيرون على أستتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله النايلي وكان يدعى المتنفس ، وأنزله أبي دارنا وجاء تعلمى منه ، وقبل قدمه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين ، وقد أفت طرق المطالبة ووجهه الاعتراض على العجيب على الوجه الذي جرت عادة القوم به .

ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على النايلي ، ولما ذكر لي حذا الجش ، إنه هو المقول

على كثرين مختلفين بالتنوع في جواب ما هو ، فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب مني كل العجب وحدر والدى من شغل بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لي أتصورها خيراً منه ، حتى فرأت ظواهر المنطق عليه . وأما دفاعاته فلم يكن عنده منها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق . وكل ذلك كتاب أقليدس فقرأته من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المخطوطة ، وما فرضت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ، قال لي النايلى تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم أعرضها على لأبين لك صوابه من خطئه ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحل ذلك الكتاب فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه ومهنته إيه . ثم فارقنى النايلى متوجهًا إلى كركانج ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعى والأكلى ، وصارت أبواب العلم تفتح على .

ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى بزرت فيه في أقل مدة حتى يبدأ فضلاء الطب يقررون على علم الطب ، وتعهدت الرضى فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة . ثم توفرت على العلم والقراءة ستة ونصفاً ، فساعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفي هذه المدة نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت النهار بغيره وجمعت بين يدي ظهوراً بكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ورتبتها في تلك الظهور ، ثم نظرت فيها عساها تنسج ، وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة . وكلما كنت أتخير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع ، وصلت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي المتغلق ، وتبشر المترس .

وكنت أرجع بالليل إلى دارى وأضع السراج بين يدي ، واشتغل بالقراءة والكتابة . فمهما غلبنى النوم أو شعرت بضعف ، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريشاً تعود إلى قرني ، ثم أرجع إلى القراءة . ومهمها أخذنى أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل انضجت في وجوهها في المنام . وكذلك حتى استحكم معى جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنسانى . وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت على المنطق والطبيعى والرياضى . ثم عدلت إلى الأكلى ، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة . فما كدت أفهم ما فيه ، والتبس على

غرض واضحه ، حتى أعددت قراءته أربعين مرة وصار لي حفظاً . وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسى وقلت : هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه . وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في السوراقين وبيد دلال مجلد ينادي عليه . فعرضه على فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة من هذا العلم . فقال لي أشتري مني هذا فإنه رخيص أبيعك بثلاثة دراهم وصاحبها يحتاج إلى ثمنه ، واشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة : ورجعت إلى بيته وأسرعت قراءته ، فافتتح على في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي حفظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدق في ثانى يومه بشيء كثير على القراء شكر الله تعالى . وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور ، واتفق له مرض الشع الأطباء فيه وكان اسمى اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فأجرروا ذكرى بين يديه وسألوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم في مداولاته وتوسعت بخدمته فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم وطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة ببعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد .

فطالعت فهرست كتب الأولى وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس فقط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى ، فرغت من هذه العلوم كلها . وكانت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أضيق ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء . وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسين العروضي فسألنى أن أصنف له كتاباً جاماً في هذه العلم ، فصنفت له المجموع وسميته به . وأتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضى . ولما إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى . وكان في جواري أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقى ، خوارزمى المولد ، فقيه النفس ، متوحد في الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول في قريب من عشرين مجلداً ، وصنفت له في الأخلاق كتاباً سميته كتاب البر والإثم . وهذا الكتابان لا يوجدان إلا عنده فلست يعر أحداً بنسخ منها ثم مات والدى وتصرفت بي الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان ، ودعنتى الضرورة إلى الإخلاص ببخارى والانتقال إلى كركاسنج . وكان أبو الحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيراً ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون

وكنت على زى الفقهاء إذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك ، وأثبتوا لى مشاهرة دارة بكمایة مثل ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ، ومنها إلى باورد ، ومنها إلى طوس ، ومنها إلى شقان ، ومنها إلى سمنيقات ، ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفاق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ومرضت بها مرضًا صعبًا وعدت إلى جرجان ، فاتصل أبو عبيد الجوزجاني بي وأنشأت فى حال قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعى لما غلا ثمنى عدلت المشتري

قال أبو عبيد الجوزجاني ، صاحب الشيخ الرئيس ، فهذا ما حكى لي الشيخ من لفظه .

\* \* \*

إلى هنا يتنهى النص الذى ورد فى عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ويكمل أبو عبيد الجوزجاني قائلًا :

هذا ما حكى لي الشيخ من لفظه !

## الاعتبار

### للأمير أسامة بن منقذ

وهو مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيزرى « إن ركوب أنططار الحروب لا ينقص أجل المكتوب ، فلما شئ رأيت معتبراً يوضع للشجاع العاقل ، والجبان الجاھل أن العمر موقت ، مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر . » .

ما خططه الأمير العربي أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » الذي بدأ تدوينه بعد أن بلغ التسعين من العمر ، عمر طويل شهد فيه أحداثاً جسمية وحاسمة ، الحروب الصليبية ، زوال الدولة الفاطمية في مصر ، عرف صلاح الدين الأيوبي والعادل نور الدين ، وعاش في البلاط الفاطمي وكان طرفاً رئيسياً في الصراعات التي جرت في عهد الخليفة الحافظ ، وال الخليفة الفائز ، خاض معارك لا حصر لها ، كان فارساً شجاعاً ، وشاعراً أدبياً ، وقطع سنوات طوالاً من عمره جواياً ، ولد في ٢٠ جمادى الآخر ٤٨٨ هـ ( ٤ يوليو ١٠٩٥ ) . أطلق عليه والده اسم أول قائد عربي عهد إليه فتح الشام ، نشأ في قلعة شيزر على ضفاف نهر العاصمة . قضى معظم شبابه ما بين بلاط نور الدين في دمشق ، والبلاط الفاطمي في القاهرة ، كهولته قد أمضها في الموصل ، في حصن كيما المطل على نهر دجلة ، زار بيت المقدس في فلسطين وحج إلى الحرمين ، وتنقل بين معظم البلاد الإسلامية وخلال سنوات عمره الأخيرة ، وفي حصن كيما ، كان يشرف على السنوات الطويلة التي قطعها في هذه الحياة الدنيا ، يتأمل ، ويسجل ، ويستخلص العبرات ، وفي حدود ما أعلم ، فإن هذا الكتاب فريد من نوعه في التراث العربي ، إذ يمكن اعتباره سيرة ذاتية متكاملة في الأدب العربي ، الكاتب والمكتوب عنه شخص واحد ، فهو سيرة ذاتية تتطرق إلى تفاصيل إنسانية لم تطرق إليها السير الأخرى كعلاقة مؤلف بوالده ، وإحساسه بالطبيعة ،

والزمن ، مما يجعل الكتاب أثراً فريداً في الأدب العربي ، حيث لا يتكلّف السجع أو يستعرض فخامة الألفاظ ، إنما يترك أسلوبه ليسترسّل على سجيته ، هناك سيرة ذاتية أخرى تسبّق الاعتبار بسنوات قليلة لأحد الدعاة الفاطميين ، وهو المزید في الدين هبة الله الشيرازى المتوفى ٤٧٠ هـ غير أن الطابع العقائدي يغلب عليها ، كما أنها لا تتطرق إلى التفاصيل .

مخطوطة كتاب الاعتبار وحيدة لا أخت لها ، محفوظة في مكتبة الاسكورسال ، وقد نشرت لأول مرة في ليون عام ١٨٨٤ . وفي عام ١٩٣٠ نشر الأستاذ فيليب حتى السفر العربي محققه في الولايات المتحدة . وقد أعيد نشره في بيروت منذ عدة سنوات ، وفي هذا الإعداد الذي أقدمه أحياول أن أجعل النص متاحاً للقارئ ، لا أتدخل قط بالتعديل في الأجزاء التي أفتّطعها منه ، وقد حرصت على توضيح خلفيات بعض الموارد التاريخية ، وإعادة ترتيب بعض الأجزاء حتى يكون متاحاً ، وأضفت للقارئ الذي تبدو أمامه كتب التراث كالألغاز والألجاجى . وتنأى عن المتناول بسبّب ظروف عديدة في حياتنا الثقافية :

### أسامي في مصر

( .. الدولة الفاطمية في مصر تزفها الانقسامات ، والاضطرابات ، تزايد الصراع بين أطراف الدولة المختلفة ، في هذه الأوقات العصيبة وصل إلى مصر من الشام الأمير أسامي ابن منقذ .. ) .

« .. لكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسة (٥٣٩ - ١١٤٤ م) . فأقرني الحافظ ل الدين الله ساعة وصولي ، فخلع على بين يديه . ودفع لي ثخت ثياب ومائة دينار . وحوّلني دخول الخمام ، وأنزلني في دار من دور الأمير الأفضل بن أمير الجيوش في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وألتها من النحاس . كل ذلك لا يستعاد منه شيء ، وأقمت بها مدة . إقامة في إكرام واحترام ، وإنعام متواصل ، وإنقطاع ناج .

( في ذلك الوقت كان ينوب الوزارة رضوان بن الوخشى ، كان شاعراً وجندىاً مقداماً ، ثم عزل من الوزارة ففر إلى الشام وطلب إلى زنكي أنابيك الموصى مساعدته ، كان يزيد غزو مصر . غير أن الأمير أسامي بن منقذ أثناه عن ذلك ، واسترضاه بثلاثين ألف دينار دفعها له من أموال الخليفة الفاطمى ، عاد الوزير رضوان إلى القاهرة بعد أن أمنه الخليفة الفاطمى الحافظ غير أنه لم يف بعهده . فقد حبسه عشر سنوات تمكّن في آخرها من

الفرار. وجمع أنصاراً كثريين ، واستقر في الجامع الأقمر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانية هزمو أنصاره ، وأسروه ، فقطعوا رأسه ، وقطعوا جسمه ، والتهموه اعتقاداً منهم أنهم بذلك يهانونه في بأسه وشجاعته . . . وبعد يومين من مقتل رضوان توف الخليفة الحافظ . . .).

« . . . وجلس بعده الظافر بأمر الله . وهو أصغر أولاده ، واستوزر نجم الدين بن مصال ، وكان شيخاً كبيراً ، والأمير سيف الدين « أبو الحسن » بن السلاط ، رحمه الله إذ ذاك في ولاته . فحشد وجمع وسار إلى القاهرة ونفذ إلى داره فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ونفذ إلى داره ، فجمع الظافر بأمر الله الأمراء في مجلس الوزارة ، ونقد النباً زمام القصور يقول « يا أمراء هذا نجم الدين وزيري ونائبي ، فمن كان يطيعني فليطعه ويمثل بأمره . . . ».

قال الأمراء : « نحن مماليك مولانا سامعون مطيعون » .

فقال أمير من الأمراء ، شيخ يقال له « لكروان » : « يا أمراء نترك على بن السلاط يقتل؟ » قالوا : « لا والله » قال « قوموا » فنفروا كلهم وخرجوا من القصر . شدوا على خيالهم وبقاهم وخرجوا إلى معونة سيف الدين بن السلاط ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالاً كثيراً وقال « اخرج إلى الحوف ، اجمع واحشد وانفق عليهم . وادفع ابن السلاط . . . » ودخل ابن السلاط القاهرة ، ودخل دار الوزارة واتفق الجند على طاعته ، وأحسن إليهم ، وأمرني أن أبكي أنا وأصحابي في داره وأفرد لي موضعًا في الدار أكون فيه .

(دارت الحرب بين ابن السلاط ، والوزير المخلوع ابن مصال وكان الأمير أسامة بن منقد في جانب ابن السلاط ، وعند مدينة الواسطى بالوجه القبلي دارت معركة حاسمة هزم فيها ابن مصال . واستقر ابن السلاط عشة في منصب الوزارة غير أن الخليفة الظاهر لم يكف عن الكيد له . . . ).

« . . . فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم من استهالم ، واتفق فيهم أن يهجموا داره ويقتلسوه وكان شهر رمضان والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل يتظرون توسط الليل واقتراقي أصحاب العادل ( ابن السلاط ) وأنا تلك الليلة عنده .

فقد فرغ الناس من العشاء وافترقا ، وقد بلغه الخبر من بعض العاملين (المتآمرين)

عليه ، أحضر رجلين من غلبهان وأمرهما أن يهجا بهم للدار التي هم فيها مجتمعون . وكانت الدار لما أراده الله من سلامه بعضهم ، لها بيان ، الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد ، فهجمت الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم إلى الباب الآخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب ، وجاءنى منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ، كانوا أصدقاء غلبهان لخبوهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك المهزمين ، ومن ظفر بهم منه قتل .

وأعجب ما رأيت في ذلك اليوم أن رجالاً من السودان الذين كانوا في العملة انهزم إلى خلو داري ، والرجال بالسيوف خلفه ، فأشرف على المقاومة من ارتفاع عظيم ، وفي الدار شجرة نبق كبيرة ، فقفز من السطح إلى تلك الشجرة فثبت عليها ثم نزل ودخل من كم مجلس قريب منه فوطئ على منارة نحاس فكسرها ، ودخل إلى خلف رجل في المجلس . وأشرف أولئك الذين كانوا خلفه . فصحت عليهم وأطلقت عليهم الغلبة . دفعوهم ودخلت إلى ذلك الأسود . فنزع كسام عليه وقال « خذه إليك » قلت « أكثر الله خبرك ، ما أحتاجه » .

وخرجت ، وسررت معه قوماً من غلبهان فنجا . . .

(استدعي الأمير أسامة بن منقذ لمقابلة الوزير ابن السلاط ، الذي طلب منه أن يتجهز للمسير إلى الملك العادل نور الدين ، يطلب مساعدته لغزو مدينة طبرية التي كان يحتلها الصليبيون ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين لمصر ، وفي هذه الأثناء يسر الوزير ابن السلاط لغزو غزة وعسقلان .

(يخرج الأمير أسامة من مصر موفداً في مهمة من قبل الوزير ابن السلاط إلى الشام لمقابلة الملك العادل نور الدين ، يطلب منه العون ضد الصليبيين) .

يقول أسامة بن منقذ

« . . . وسررت وقد أزاح علة سفري بكل ما أحتاجه من كثير وقليل ، فلها من الجفر الواحة بين مصر وللسطين » قال لـ الأولاد : « هذا مكان لا يكاد يخلو من الأفونج » .

فأمرت اثنين من الأولاد ركباً مهربين وسراً قداماً إلى الجفر ، فلما لبساً أن عاداً والمهارى تطير بهما ، قالا :

« الفرج على الجفر » .

فوقعت وجعلت الجمال التي عليها ثقل ورفاقاً من السفارة كانوا معى ورددتهم إلى الغرب ، وندبت ستة فوارس من ماليكي وقلت :

« تقدموا وأنا في أركم »

فلما وصلت الجفر ، وفيه مياه وعشب وشجر ، فقام من ذلك العشب رجل عليه ثوب أسود فأخذناه ، وتفرق أصحابي فأخذوا رجلاً آخر وأمرأتين وصبياناً ، فجاءت امرأة منها ، مسكت ثوبى وقالت : « يا شيخ أنا في حسبك » . قلت « أنت آمنة مالك ؟ » .

قالت : « لقد أخذ أصحابك لي ثوبًا وناهقًا ونابحًا وخرزة » .

قلت لغليماني : « من كان أخذ شيئاً يرده » .

\* \* \*

« ومن طريف ما جرى لي في الطريق أني نزلت ليلة أصل المغرب والعشاء قصراً وجمعاً ، وسارت الجمال ، فوقفت على رفعة من الأرض ، وقلت للغليمان : « تفرقوا في طلب الجمال ، وعودوا إلى . فلما ما أزول من مكاني » .

ففرقوا . وركضوا . كلها وكذا فيما رأوه ، فعادوا إلى وقالوا :

« ما لقيناهم ، ولا ندرى كيف مضوا » .

« نستعين بالله تعالى ونسير على النور » .

فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمر صعب وفي الأدلة رجل يقال له « جزية » فيه يقظة وفطنة ، فلما استبعانا علم أنا قد عنا عنهم ، فاخرج قداسه وجعل يقذح وهو على الجمال . . والشرار من الزند يتفرق كلها وكذا ، فرأيناهم على بعد ، فقصلنا النار حتى لحقناهم . ولو لا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا .

\* \* \*

وما جرى في تلك الطريقة أن الملك العادل (الوزير ابن السلاط) قال لي : لا تعلم الزملاء الذين معك بالمال . فجعلت أربعة آلاف دينار في خرج على بغل سروجي مجنوب ، معى وسلمته إلى غلام وجعلت ألفى دينار في خرج على حصان مجنوب معى وسلمته إلى غلام ، فكنت إذا نزلت جعلت الأخرج في وسط بساط ، ورددت طرفية عليها ، وبسطت

فوقه بساطاً آخر ، وأنام على الأخرج وأقوم وقت الرحيل قبل أصحابي ، يحيى الغلامان اللذان معهما الخرجان فينزلانها ، فإذا شداهما على الجنائب ركب وأيقظت أصحابي ، فهمتنا بالرحيل ، فنزلنا ليلة في تيه بني إسرائيل فلما قمت للرحيل جاء الغلام الذي معه البغل الجنوب أخذ الخرج وطرحة على وركي البغل ودار يريد شده ، فنزل البغل وخرج يركض عليه الخرج ، فركبت حصاني ، وقد قدمه الركابي ، وقلت لواحد من غلماني : « اركب .. اركب ». وركضت خلف البغل فها طقته ، وهو كأنه حمار وحش ، وحصاني قد أعيى من الطريق ، ولحقني الغلام ، فقلت : « اتبع البغل » فمضى وقال : « والله يا مولاي ما رأيت البغل ، ولقيت هذا الخرج قد شلت » ، فقلت : « للخرج كنت أطلب والبغل أهون مفقود » ، ورجعت إلى المنزلة وإذا بالبغل قد جاء يركض دخل في طوالة الخيل ووقف ، فكأنه ما كان تصدّه لا تضيع أربعة آلاف دينار .

\* \* \*

« ويمضي أسامة إلى الشام ، يلتقي بأسد الدين شركوه ، وبالعادل نور الدين ، يرفض نور الدين محاربة الصليبيين في هذه الفترة ، لأن أهل دمشق لم يكونوا معه ، ويرغب ذلك سمح للأمير أسامة أن يجئه تحت لوائه عدداً كبيراً من المنطوريين وسمح لعدد من جنود حرسه الخاص الانضمام إليه لينسب إلى نفسه ما قد يحوزه أسامة من نصر ، ويحاصر أسامة الفريح في عسقلان مدة أربعة شهور ، غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام الفريح من جهة ، ولإهمال قائد تفويت أوامره ، سار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب غير أن ابن السلاط أمره بالعودة إلى القاهرة ، وفي القاهرة كانت تنتظره أحداث جسام » .

« لقد كان بصحبة أسامة شاب اسمه عباس ، وهو في نفس الوقت ابن زوجة الوزير ابن السلاط . وكان عباس متالماً بسبب سفره إلى الشام لمحاربة الصليبيين ومجادلة مصر الجميلة ذات المناخ الجميل ، كذلك كان يضيق بحسبه الحياة العسكرية . وفي بلبيس أفضى عباس بمتاعبه إلى أسامة . ويرقال إن أسامة أراد حيتنـد أنه في إمكانه أن يتتجنب هذا كله بقتل الوزير ابن السلاط ، زوج أمه ، وعندئـذ أرسـل عباس ابنه المسمـى « نصرـاً » إلى القاهرة ، وقام باغتيال الوزير ابن السلاط ، وعاد عباس إلى القاهرة وتقلـد الوزارة بدلاً من ابن السلاط .

« يقول ستانلى لين بول : إن مقتل ابن السلاط بيد حفيـد زوجـته نـصرـ ، وما تـبعـه من قـتلـ الخليـفةـ بـنفسـ هـذـهـ الـيدـ الـأـثـمـةـ يـعـتـبرـ منـ أـخـفـىـ حـوـادـثـ التـارـيـخـ فـيـ مـصـرـ » .

غير أن الخليفة لم يكتف بقتل ابن السلاط ، بل راح يحرض « نصر » على قتل أبيه

عباس ، كان نصر وال الخليفة في نفس السن تقريراً ، وكانا صديقين ، غير أن تدبير الخليفة انقلب عليه .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« كانا يخرجان في الليل متنكرين وهو أتراك ، وسنها واحدة فدعاه إلى داره ، وكانت في سوق السوفين ، ورتب من أصحابه نفراً في جانب الدار ، فلما استغريه المجلس خرجوا عليه فقتلوه ، وذلك ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسعة وأربعين وأربعين ( ١٥٤ ) ورمي في جب في داره ، وكان معه خادم له أسود لا يفارقها يقال له سعيد الدولة فقتلوا ، وأصبح عباس ، جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس ، فجلس في خزانة في مجلس الوزارة كأنه يتنتظر جلوس الخليفة الظافر للسلام ، فلما جاز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال :

« مالولانا ما مجلس للسلام ؟

فقبلد الزمام في الجواب ، فصاح عليه وقال :

« مالك لا تجاويني ؟

قال :

« يا مولاي ، مولانا ما ندرى أين هو ؟

قال :

« مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال » .

فمضى ورجع وقال :

« ما وجدنا مولانا » .

فقال عباس :

« ما بقى الناس دون خليفة ، أدخل إلى الوالى أخوته ، يخرج منهم واحد نبایعه » .

فمضى وعاد وقال :

« الوالى يقولون لك ، نحن مالنا في الأمر شىء ، والده عزله عنا وجعله في الظافر والأمر لولده ، بعده » .

قال :

« أخرجوه حتى نبایعه » .

وعباس قد قتل الظافر ، وعزم على أن يقول « أخوته قتلوا » ويقتلهم ، فخرج ولد

الظافر ، وهو صبي محمل على كتف أستاذ من أستاذى القصر ، فوجده عباس ، فحمله ، وبكى الناس ، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف ، والأمير جبريل ، وابن أخيهم أبو البقى .

«أثار قتل الخليفة وأهله أهالى القاهرة ، فنشبت المعركة في طرقات المدينة وأخذ الشوارة والأطفال يرجون أتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم ، ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه ولم يكن عباس طاقة بمقاومة سلطة الأهالى وثورتهم ففر هو وابنه إلى الشام ، كان الأمير أسامة قريبا من عباس فتأهب لغادرة مصر » .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

«فليخرجنا من باب النصر وصلوا إلى الأبواب أغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، وأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة خاتمة فيها من الفضة والذهب والكسوات شىء كثیر ، وأخذوا من اصطبل ستة وثلاثين حصاناً وبغلة مسروقة بمروجهها بسروجهها وعدتها كيامات ، خمسة وعشرين جملأ ، وأخذوا من إقطاعى مائتى رأس بقر ، ولما سرنا عن باب النصر اتجهت قبائل العرب الذين استحلفهم عباس وقاتلوا من يوم الجمعة وضحي نار إلى يوم الخميس العشرين من ربيع الأول ، فكأنوا يقاتلونا النهار كله . فإذا جن الليل وأغلقنا إلى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ، ويدفعون فيهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج إليهم أخذوه .» .

وانقطعت يوماً عن أصحابي وتحت حصان أبيض ، هو أردى خيل ، شده الركابين ولا يدرى ما جرى ، وما معى من السلاح غير سيفي ، فحمل على العرب فلسماً أجد ما أدفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصانى ، وقد وصلتني رماحهم ، قلت : «أثب عن حصانى وأجلب سيفي ، أدفعهم ». فجمعت نفسى لأنثى ، فتفتح الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت جلدة من جلدته رأسي ودخلت حتى ما بقيت أدرى بها أنا فيه . فوقف على منهم قوم ، وأنا جالس مكشوف الرأس ، غائب الدهن ، وسيفى مرمى بجهازه ، فضربي واحد منهم ضربتين بالسيف وقال : «هات الوزن » ، وأنا لا أدرى ما يقول ، ثم أخذوا حصانى وسيفى ، ورأتى الأثراك فعادوا إلى ، ونفذلى ناصر الدين بن عباس حصاناً وسيفًا وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحى ، فسبحان من لا يزول ملكه .

وسرنا وما مع أحد منا كف زاد ، وإذا أردت أشرب ماء ترجلت شربت بيدي ، وقبل أن أخرج بليلة جلست في بعض دهاليز دارى على كرسى وعرضوا على ستة عشر جملأ .

.. ويستمر الأمير أسامة في طريقه إلى دمشق ، يلقي مصاعب جمة ، وفي دمشق يتصل مرة أخرى بخدمة الملك العادل نور الدين ، غير أن أسرته كانت ما تزال بالقاهرة ، وأرسل الملك العادل إلى الوزير الفاطمي الصالح طلائع بن رذيك يطلب منه السماح بسفر أسرة الأمير أسامة ، فرد الصالح قائلاً إنه يخاف عليهم من الفرنج ، وفكراً الأمير أسامة في العودة إلى مصر .

يقول الأمير أسامة بن منقذ :

« فقاوست الملك العادل ، واستطاعت أمره فقال :

يا فلان ، ما صدقت متى تخلص مصر وفتتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك ، أنا أندل أخذ لأهلك الأمان من ملك الفرنج وأسير من بعدهم » .

فأعاد ، رحمة الله ، أخذ أمان الملك وصلبيه في البر والبحر ، وسیرت الأمان مع غلام لـ وكتاب الملك العادل وكتابي إلى الملك الصالح ، فسيرهم إلى دمياط ، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ، ووصى بهم ، وأقلعوا من دمياط في مركب من مراكب الفرنج ، فلما دنوا من عكا والملك نفذ رحمة الله ، فيها نفذ قوماً في مركب صغيرة ، كسروا المركب بالفروس ، وأصحابي يرونهم ، وركب ، ووقف على الساحل نهب كل ما فيه ، فخرج إليه غلام لي سباحة ، والأمان معه ، وقال له : « يا مولاي الملك ما هذا أمانك ؟ » قال : « بلى .. ولكن هذا رسم المسلمين : إذا انكسر لهم مركب على بلد نهب أهل ذلك البلد » ، قال : « فتسبينا ؟ » قال : « لا » وأنزلهم لعنة الله في دار وفتح النساء حتى أخذ كل ما معهن ، وقد كان في المركب حل أودعه النساء وكسوات وجوهر ، وسيوف وسلاح وذهب وفضة بمنحو من ثلاثين ألف دينار ، فأخذ الجميع وترك لهم خمسين دينار ، وقال : « توصلوا بهم إلى بلادكم » .

« لا يكتب الأمير أسامة ما يشير إلى تحرسه على سرقة ماله ، ومتاعه ، غير أن حديثه عن كتبه مختلف » .

يقول الأمير أسامة :

« .. و كنت إذا ذاك مع الملك العادل في بلاد الملك مسعود (قونية) فهوئ على سلامة أولادي ، وأولاد أخي ، وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال ، إلا ما ذهب لي من الكتب . فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فلما ذهابها حزارة في قلبي ما عشت . فهذه نكبات تزعزع الجبال وتغصي الأموال . والله سبحانه يعرض برحمته ويختتم بلطفه

ومغفرته . وتلك وقفات كبار شاهدتها مسافة إلى نكتبات نكتبها سلمت فيها النفس  
لتوقيت الأجال . وأجحافت بهلاك المال .

.. يتوقف الأمير أسامة بن منقذ عن سرد الحوادث التاريخية التي عاشها ، ثم ينتقل  
إلى نوع من التذكر ، استرجاع التفاصيل الدقيقة التي لم تغب عن ذهنه وقد بلغ التسعين  
من العمر ..

.. ترى في أي موضع من حصنى كيف المطل على نهر دجلة كان يجلس الأمير أسامة  
ابن منقذ ، يحملق في مياه النهر ، أمواجه المتتابعة كسنوات عمره التسعين ، لابد أنه كان  
يستدعي أيامه البعيدة ، ما مر به من أحداث ، ومن مخاطر يستعيد ملامح من عرفهم في  
البلاد الفاطمى ، في دمشق ، ملامح صلاح الدين الأيوبي ، كان يطل على ذلك الماضي  
الطويل العريض ، ثم يخنس ريشته في المداد ، وفي هدوء الليل ، أو صمت النهار  
يستعيد ، ويذون .. يذون ..

يقول الأمير أسامة بن منقذ وهو يحدثنا عن أول مرة خاص فيها القتال :

.. ومثل ذلك ما جرى لي على أيامية (بلدة في الشام) ، فإن نجم الدين بن الياوزى  
ابن أرثى ، رحمه الله ، كسر الإقزاج على البلط ، وذلك يوم الجمعة الخامس جادى الأولى  
سنة ثلاثة عشرة وخمسين ، وأفناهم وقتل صاحب الكاكيت روجار وجميع فرسانه ، فسار  
إليه عمر عز الدين أبو العساكر سلطان ، رحمه الله ، وتخلف والدى ، رحمه الله في حصن  
شيزر ، وقد وصاه أن يسirنى إلى أيامية بمن معى بشيزر من الناس ويستفر الناس والعرب  
لتهب زرع أيامية ، وكان قد هدف من العرب إلينا خلق كثير ، فلما سار عمن نادى  
المتادى بعد « يوميات » من مسيرة ، وسرت في نهر قليل ما يلحق عشرين فارسا ، ونحن  
على يقين أن أيامية ما فيها خالية ، ومعى غلام عظيم من النهاية والبادية فلما صرنا على  
وادى « أبو » الميسون ، والهابة والعرب متفرقون في الزرع ، خرج علينا من الإقزاج جم  
كثير ، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارسا وستون راجلا ، فكشفونا عن الوادى ،  
فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين في الزرع يتبعونه ، فضجوا ضجة عظيمة ،  
فهان على الموت هلاك ذلك العالم معى ، فرجعت على فارس في أولهم قد القى عنه درعه  
وتفتف ليجوزنا من بين أيدينا ، فطعنته في صدره فطار عن سرجه مبتا ، ثم استقبلت  
خيالهم المتتابعة فولوا وأنا غر من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم ، وتحتى فرس مثل  
الطير ، ألحق أعقابهم لاطعن فيهم ثم أجتن عنهم ، وفي آخرهم فارس على حصان أدهم  
مثل الجمل بالدرع ولامة الحرب ، أنا خايف منه لا يكون جاذباً لي ليعود على ، حتى رأيته

خرب حصانه بمهمازه فلوجه يذنبه فعلمته أنه قد أعيا . فحملت عليه طعنته فنفذه الرمح من قدامه نحوه من ذراع ، وخرجت من السرج لخفة جسمى وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، ثم تراجعت وجذبت رمحى وأنا أظن أني قتلتة ، فجمعت أصحابى وهم سالمون ، وكان معى ملوك صغير يعبر فرساً لي وهما مجنبة وتحته بغلة مليحة سروجية وعليها مركوب ثقيل فضة ، فنزل عن البغلة وسيهاها وركب الحجرة فطارت به إلى شيزر ، فلما عدت إلى أصحابى وقد مسکوا بغلة سالت عن الغلام « راح » فعلمته أنه يصل شيزر ويشغل قلب الوالد . رحه الله . فدعوت رجلاً من الجناد وقلت : « تسع إلى شيزر تعرف والدى بها جرى » .

وكان الغلام لما وصل أحضره الوالد بين يديه وقال :

« أى شى لقيتكم ؟ قال : يا مولاي . . خرج علينا الإفرنج في ألف : وما أظن أحداً يسلم إلا مولاي . . قال : « كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ » قال : « رأيته قد ليس وركب الخضراء . . » .

هو يحدثه بذلك الفارس قد وصله وأخبره باليقين ووصلت بعده فاستخبرنى رحه الله ، فقلت :

« يا مولاي ، كان أول قتال حضرتة ، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس هان على الموت ، فرجعت إلى الإفرنج لأقل أو أهى ذلك العالم . . » .

\* \* \*

« ثم ينصح الأمير أسامه من وصل إلى الطعن أن يشد ذراعه ويده على الرمح ، ويدع الفرس يعمل ما عمله في الطعنة ، فإنه متى حرك يده بالرمح ومدها به لم يكن لطعنته تأثير . ويتذكر مواقف مرت به أثناء القتال » .

يقول الأمير أسامه :

.. شاهدت رجلاً من رجالنا يقال له ندى بن تليل القسيري ، وكان من شجاعتنا ، وقد التقينا نحن والأفرنج وهو تعرى ، ما عليه غير ثوبين فطعنه فارس من الإفرنج في صدره فقطع هذه العصفورة التي في الصدر ، وخرج الرمح من جانبه ، فرجع وما نظنه يصل منزله حيا ، فقدر الله سبحانه أنه سلم وبراً جرحه ، لكنه لبث سنة إذ نام على ظهره لا يقدر إن يجلس أن لم يجلسه إنسان بأكثافه ، ثم زال عنه ما كان يش��وه وعاد إلى تصرفه ورکوبه كما كان .

قلت : قسيحان من نفذت مشيشه في خلقه يحيى ويميس وهو حي لا يموت بيده  
الخير وهو على كل شيء قادرٌ .

.. غير أن أسامة إذ يفرغ من تذكره لهذا الرجل الذي عاش بعد أن قطع قلبه  
بالسيف ، يذكر آخرًا مات بسبب إبرة .

« كان عندنا رجل من المصط涅عة ، يقال له عتاب ، أجسم ما يكون من الرجال  
وأطوطم ، دخل بيته فاعتمد على يده عند جلوسه على ثوب بين يديه ، كانت فيه إبرة ،  
دخلت في راحته فمات منها ، وبالله كان يشن في المدينة ، فيسمع أبنه من الحصن لعظم  
خلقه وجهارة صوته .. يموت من إبرة وهذا القشيري يدخل في صدره قنطرية (رمح)  
تخرج من جنبه لا يصبه شيء ! »

\* \* \*

يتذكر الأمير أسامة فارسًا إفرينجيًا هزم أربعة من المسلمين :

« .. وكان باقامة فارس من كبار فرسانهم يقال له بدرهوا فكان أبدا يقول :  
« ترى ما التقى جمعة في القتال » .

وجمعة يقول :

« ترى ما التقى بدرهوا في القتال »

نزل علينا عسکر انطاكية وضرب خيامه في الموضع الذي كان ينزله وبيتنا وبينهم الماء ،  
ولنا موكب واقف على شرف مقابلهم ، فركب فارس من الخيام وسار حتى وقف تحت  
موكبنا ، والماء بينه وبينهم وصاح بهم :

« فيكم جمعة ؟ »

قالوا :

« لا .. »

وكان ذلك الفارس « بدرهوا » ، فالتفت نرأى أربعة فوارس منا من ناحيته ، فحمل  
عليهم فهزهم ، ولحق واحداً منهم طعنة فشله ما أخلفه حصانه ليتمكن الطعن ،  
وعاد إلى الخيام .

ودخل أولئك النفر إلى البلد فانقضوا واستخفهم الناس ولا مهمن ولا زروا بهم و قالوا :

أربعة فوارس يزورهم فارس واحد اكتتم افترقهم له فكان طعن واحداً منكم ، وكان الثلاثة قتلوا ولا قد افتصحتم ، وكان أشد الناس عليهم جمعة التمرين ، فكان تلك الهزيمة منحthem قلوبًا غير قلوبهم وشجاعة ما كانوا يطمعون فيها ، فانتحروا وقاتلوا واشتهروا في الحرب وصاروا من الفرسان المعدودين بعد تلك الهزيمة .

أما « بدرهوا » فإنه سار بعد ذلك من أيامه في بعض شغله يريد انطاكية ، فخرج عليه الأسد في طريقه ، فخطفه عن بغلته ودخل به إلى الغاب أكله - لا رحمه الله .

« كثيرة تلك التفاصيل التي يتذكرها الأمير في آخر حياته ، إن ذاكرته تعج بأصوات صليل السيف ، وركض الخيول لا ينسى قط أنه طعن فارساً من رجاله على سهل الخطأ وأن طعنة واحدة من فارس مسلم أودت بحياة فارسين من الإفرنج في وقت واحد ، لا ينسى هذه اللحظة التي جرح فيها عمه في جفن عينه ، وكيف أن الجفن سقط ويني معلقاً بجلدة من مؤخرة العين ، والعين تلصب لا تستقر ، حتى جاء الطبيب وأدواها فعادت كحالها الأولى ، لا تعرف العين المطعونه من الأخرى ، يتذكر قتاله مع الفارس الشجاع جمعة ، وكيف أنها هزما ثانية فرسان من الإفرنج ، ولا يلبث أن يتذكر كيف هاجها شاب صغير منهم وأضطررها إلى الفرار ، طويل ذلك العمر الذي عاشه الأمير ، وخلال حروبه مرت به مواقف كثيرة كان يمكن أن يقتل خلالها ، ومن هنا يحدثنا عن عجائب السلامة » ١

يقول الأمير أسامة :

« .. ومن عجائب السلامة إذا جرى بها القدر وسبقت الميئه أن الأمير فخر الدين قر ارسلان بن سقمان بن ارتق ، رحمه الله ، عمل على مديتها أحد عدة مرار ، وأنا في خدمته ، ولا يبلغ عنها مقصوده ، وكان آخر ما عمل عليها أن أميراً من الأكراد كان مديوناً بأمد راسله ومحه جماعة من أصحابه وقدر الأمر أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا إليها ويطلعهم بالحبال ويملك فخر الدين على ذلك المهم على خادم له إفنجي يقال له ياروق ، والعسكر كلهم يمقته ويكرهه لسوء أخلاقه ، فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقى الأمراء فتبعدوا . وتوانى هو في السير فسبقه الأمراء إلى أمد ، فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ودلوا إليهم الحبال وقالوا : « اطلعوا » ، فما طلعوا منهم أحد ، فنزلوا كسروا أقفال المدينة وقالوا : « أدخلوا » فما دخلوا ، كل ذلك لاعتقاد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار ، وعلم بذلك الأمير كمال الدين على بن نيسان والبلية والخند ففرغوا إليهم ، فقتلوا بعضهم ورسى بعضهم نفسه وبقضوا

بعضهم ، ومد بعض الذين رموا نفوسهم وهو نازل في الهواء يده كأنه يريد شيئاً يتمسك به ، فوقع في يده جبل من تلك الجبال التي دلسواها أول الليل وما طلعوا فيها فتعلق به فنجا دون أصحابه . إلا أن كفيه انسخلتا من الجبل ، وأنا حاضر ، وأصبح صاحب أمد يتبع الذين عملوا عليه فقتلهم ، وسلم ذلك من دونهم ، فسبحان من إذا قدر السلامة أن قدّى الإنسان من لة الأسد ، فذلك حق لا مثل .

كان في حصن الجسر رجل من أصحابنا من بنى كنانة يعرف بابن الأحر ، ركب فرسه من حصن الجسر يرید كفر طاب لشغل له فاجتازوا بکفر نبودا ، وقائلة عابرة على الطريق ، فرأوا الأسد ومع ابن الأحر جربة تلمع ، فصاح إليه أهل القائلة : « يا صاحب الخشب البراق ! دونك الأسد » ، فحمله الحبّاء من صيامهم أن حل على الأسد لما حاصلت به الفرس ، فوقع ، وجاء ، فخبرك عليه ، وكان لما يرید الله من سلامته ، الأسد شعبان ، فالقثم وجهه وجبهه ، فجروح وجهه وصار يلحس الدم وهو بارك عليه لا يؤذيه ، قال : « ففتحت عيني فأبصرت لة الأسد ، ثم جلبت نفس من تحته ، ورفعت فخذه عنى ، وخرجت تعلقت بشجرة بالقرب منه ، وصعدت فيها ، فرأى وجهه خلفي ، فسبقه وطلمت في الشجرة ، فنام الأسد تحت الشجرة وعلاتي من شيء عظيم على تلك الجراح (والدر يطلب جريح الأسد كما يطلب الفار جريح النمر ) قال : فرأيت الأسد قد قعد وأنصب أذنيه كأنه يتسمع ، ثم قام ببرول ، فإذا قائلة قد أقبلت على الطريق ، كأنه سمع حسها « فعرفوه وحملوه إلى بيته ، وكان أثر أنياب السبع في جيشه وخديه كوسن النار ، فسبحان المسلم .

« .. لا ينسى الأمير أسماء أن يدّى رأيه في العدو ، لقد خبر الفرنج سنوات طويلة ، وقاتلهم وقتل منهم ، وبارز فرسائهم فكيف وأهم بعد هذا العمر كله ؟ »

يقول الأمير أسماء :

« .. والإفرنج خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان فهم أصحاب الرأى وأصحاب القضاء والحكم ، وقد حاكمتهم مرة على قطعوان غشم أخذها صاحب بيناس من الشعراء ، وبيته بينهم صلح ، وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك ذلك بن فلك . « هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا أعملوا له حكماً » ، فخرجوا من مجلسه واعترلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك ، فقالوا : « قد حكمنا أن صاحب بيناس عليه غرامة ما

أتلف من غنمهم » ، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلى وثقل على وسائلى حتى أخذت منه أربعينات دينار وهذا يفيده ولا ينقصه ، فالفارس أمر عظيم عندهم .

يمدحنا الأمير عن تصرفات حقى من بعضهم ، وعن طبهم ولكنه يشيد بالطبع العربي في مواجهة طب الإفرنج ويستمر في ذكر عاداتهم وأخلاقهم كما خبرها وعرفها . .

يقول الأمير أسامة :

« . . فظل من هو قسيب العهد بالبلاد الإفرنجية أحلى من الذين قد تبلدوا وعاشرو المسلمين ، فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أنسى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة ، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى ، وفيه الداوية (فرسان من الفرنج) ، وهم أصدقائي ، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصل فيه ، فدخلته يوماً فكبرت ووقفت في الصلاة ، فهجم على واحد من الإفرنج مسكنى ورد وجهي إلى الشرق ، وقال : «كذا صل » فتبارأ إليه قوم من الداوية أخدوه ، أخرجوه عنى وعدت إلى الصلاة ، فاقتعلهم وعاد هجم على ذلك بعينه ، ورد وجهي إلى الشرق ، وقال : «كذا صل » ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلى ، وقالوا « هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصل إلى غير الشرق » فقلت « حسبي من الصلاة » فخرجت فكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغيير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

« . . وليس عندهم شيء من التخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي هو وأمرأته ، يلقاء رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية يتظاهر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاؤها مع المتحدث ومضى .

وما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عبارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار يأخذ في ثينته من النبيذ وينادى عليه ، ويقول «فلان التاجر قد فتح بنية (قارورة) من هذا الخمر من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا » وأجرته عن ندائه النبيذ الذي في القنيمة فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له : «أي شيء أدخلت إلى عند امرأتك؟ » قال : « وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه . قال : « والمرأة نائمة معلث؟ » قال : « الفراش لها كانت أقدر أمنعها من فراشها؟ » قال : « وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » .

فكان هذا نكيره ومبليغ غيرته !

« لا يتوقف سيل الذكريات وتتابعها ، ولكن أرقها بلا شك تلك المتعلقة بوالده ، بأعياده ، بما يدور حول المرأة العربية » .

## الوالد

.. يقول أسامة بن منقذ عندما يحدثنا عن والده :

كان الوالد رحمه الله ، كثير المباشرة للحرب ، وفي بدنـه جراح هائلة ، ومات على فراشه .

هكذا في بساطة وعمق يلخصـ أسامة سيرة والده الذى تركـ فيه آثراً عميقاً ، لقد تولى والده إمارة الدولة المنقذية بشيزرـ في سوريا بعد وفـاة شقيقـه الأكبر (أبوه) المرهـف ، غيرـ أن شغـفـه بالصـيد ، ونسـخـ القرآنـ الكريمـ جعلـه يتناـزلـ عنـ السيـادةـ والإـمـارـةـ لأخـيهـ الأـصـغرـ عـزـ الدينـ أبيـ العـساـكـرـ ، وكانـ يـرددـ :

« والله لا وليتها ولاخرجـنـ منـ الدـنـيـاـ كـمـا دـخـلـتـهاـ » .

ومـا دـوـنـهـ أـسـامـةـ عنـ والـدـهـ يـوـكـدـ صـورـةـ هـذـاـ الرـجـلـ الصـالـحـ الـذـىـ يـفـيـضـ بـالـتـقـوـىـ يـقـولـ :

« وـذـلـكـ أـنـ وـالـدـىـ رـحـمـهـ اللهـ ، كـانـ قـدـ فـرـغـ زـمـانـهـ لـتـلـاـوـةـ الـقـرـآنـ ، وـالـصـيـامـ ، وـالـصـيدـ فـيـ نـهـارـهـ ، وـفـيـ الـلـيـلـ يـنـسـخـ كـتـابـ اللهـ تـعـالـىـ ، فـكـانـ قـدـ نـسـخـ سـتـاـ وـأـرـبـعـينـ خـتـمـةـ بـخـطـهـ رـحـمـ اللهـ ، مـنـهـاـ خـتـمـتـانـ بـالـذـهـبـ جـمـيعـ الـقـرـآنـ ، وـيـرـكـبـ إـلـىـ الصـيدـ يـوـمـاـ وـيـسـرـيـعـ يـوـمـاـ ، وـهـوـ صـائـمـ الـدـهـرـ .. » .

ويـقـولـ فـيـ مـوـضـعـ آخـرـ مـشـيـرـاـ إـلـىـ عـلـمـ وـالـدـهـ بـالـنـجـومـ :

« وـكـانـ رـحـمـهـ اللهـ لـهـ الـبـدـ الطـوـلـ فـيـ النـجـومـ مـعـ وـرـعـهـ وـدـيـنـهـ وـصـوـمـهـ الـدـهـرـ وـتـلـاـوـةـ الـقـرـآنـ ، وـكـانـ يـمـرـضـنـىـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ عـلـمـ النـجـومـ فـأـبـسـىـ وـأـمـتـنـعـ فـيـقـولـ : « فـاعـرـفـ أـسـامـةـ النـجـومـ ، مـا يـطـلـعـ مـنـهـاـ وـيـغـرـبـ » ، فـكـانـ يـرـىـ النـجـومـ وـيـعـرـفـنـىـ أـسـامـةـهاـ .

وـيـرـغـمـ زـهـدـ وـالـدـهـ ، وـتـفـرـغـهـ لـلـعـبـادـةـ ، إـلـاـ أـنـهـ كـانـ صـيـادـاـ مـاهـرـاـ وـمـقـاتـلـاـ مـتـمـرـسـاـ يـقـولـ

أـسـامـةـ عـنـهـ :

« وـالـلـهـ مـا رـأـيـتـ الـوـالـدـ ، رـحـمـهـ اللهـ ، غـيـرـهـ عـنـ قـتـالـ وـلـاـ رـكـوبـ خـطـرـ ، مـعـ مـاـ كـانـ يـرـىـ فـيـ

وـأـرـىـ مـنـ إـشـفـاقـهـ وـإـيـثـارـهـ لـيـ » .

لـمـ يـكـنـ وـالـدـهـ كـمـاـ نـرـىـ مـنـ خـسـلـ صـورـتـهـ الشـىـ تـرـكـهـ لـنـافـيـ الـكـتـابـ لـهـ شـغـلـ سـوـىـ

الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله ، ومن العبارات ذات الدلالة قوله لابنه : « يا ولدي في طالعى أنس لا أرتاع » ، ومن الحوادث التي يرويها أسامة ويرد فيها ذكر الوالد، وواقع الصيد ما يرويه عن فهدة كان يمتلكها والده :

« وكان للوالد رحمة الله فهدة في الفهود مثل البهشور في البزة ، اصطادوها وهي وحشية من أكبر ما يكون من الفهود ، فأخذها الفهاد وقرها واستجابها ، وكانت تركب ولا ترید الصيد ، وكانت تصرع كما يصرع المصاب بعقله وتزيد ، ويقدم إليها الخشاف فلا تطلبها ولا تریدها ، حتى إذا شمته عضته ، وبقيت كذلك مدة طويلة نحو من سنة ، فخرجنا يوماً إلى الأزوار ، فدخلت الخيل إلى الزور وأنا واقف في فم الزور ، وألفها وبهذه الفهدة قريب مني ، فقام من الزور غزال وخرج إلى ، فدفعت حصائنا كان من تحني من أجود الخيل أرده إلى الفهدة ، وعاجله الحصان بصدره ، رماه ، فوثبت الفهدة صادمة ، فكأنها كانت نائمة التبيه وقالت : « خذوا من الصيد ما أردتم » ، فكانت منها قام لها من الغزلان أخذته ، ولا يستطيع الفهاد ضبطها فتجذبه ترميه .

وكانت هذه الفهدة دون باقي الفهود في دار الوالد رحمة الله وله جارية تخدمها ، ولها في جانب الدار قطيفة مطوية تحتها حشيش يابس ، وفي الحائط سكة مضروبة يحيى الفهاد بها من الصيد إلى باب الدار ، وتدخل إلى الدار ، إلى ذلك المكان المفروش لها فتنام فيه ، وتحنى الجارية تربطها إلى السكة المضروبة في الحائط ، وفي الدار ، والله ، نحو من عشرين غزالاً آدمياً وأبيض فحول ومعزى وخشوف قد توالدت في الدار فلا تطلبهم ولا تروعهم ولا تزول عن موضعها ، وتدخل إلى الدار وهي مسيبة فلا تلتفت إلى الغزلان .

يفرد أسامة الجزء الأخير من كتابه للحديث عن ذكريات الصيد الذي كان يمارسه الوالد ، خروجه إلى البرية ، الطيور ، الحيوانات التي كان يصطادها ، يرسم لنا لوحة متكاملة لأحد جوانب الحياة في هذه العصور النائية ، ويزد أيضًا أحد ملامح الحياة العربية ، يقول أسامة عن والده :

« وكان ، رحمة الله ، مع ثقل جسمه وكبر سنه ، وأنه لا يزال صائماً يركض نهاره كله ، وكان لا يتصيد إلا على حصان أو أكمل ميش كنواط ، ونحوه أربعة أولاد ، تتعب وتكل وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب » .

يبدو أسامة خيراً بالصيد ، صيد الطيور ، وصيد الحيوان ، عالماً بوسائله ، وطرقه وأساليبه ، والفرق بين الحيوانات المترحشة وطبياعها وخصائصها ، يسردها من خلال الواقع

التي عايشها ومن خلال التجربة المباشرة وبأسلوب الرواية الذي يكسب النص فرادته في التراث العربي المكتوب .

\* \* \*

كانت والدته قوية الشخصية ، ويبدو ذلك من خلال حادثة أوردها أسامة ، إذ حدث أن هاجم الإساعيلية شيزر ، وكان الجنود خارجها ، عندئذ قامت أم أسامة وزعت السلاح ، وألبيت ابنتها الحف والأزار وأجلستها فوق مترف على الوادي حتى إذا ما انتهى الأعداء إليها تدفعها وترميها إلى الوادي ، تقتلها يدها . وتراها ميتة . ولكن أبداً . . لن تراها أميرة متتهكة ، على امتداد ذكريات الأمير أسامة نلمح ، بل ويلفت نظرنا احترامه للمرأة ، يذكر العديد من أعمال البطولة التي قمن بها . وكان ينادى خادمته العجوز « يا أمى » ، ومن مؤلفاته التي وضعها كتاب أفرده لأخبار النساء .

\* \* \*

في آخر حياته ، بعد أن بلغ من الكبر عتيماً واتم التسعين ، يبدون تأملاته التي يبدو فيها رؤية آخر المرحلة ، وبنهاية الشوط :

« لم أدر أن داء الكبر عام ، يعدي كل من أغفله الحمام ، فلما توقلت ذروة التسعين ، وأيلانى من الأيام والستين ، صرت كجود العلاف ، لا الجود المثلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ، ودخل من الكبر بعض في بعض ، حتى أنكرت نفسي ، وخسرت على أ Rossi .

ثم يقول :

« فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخططر ، ولا يؤخره شدة الخدر ، ففى بقائع أوضاع معتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والمخاطر ، ولاقيت الفرسان ، وقطلت الأسود ، وضررت بالسيوف ، وطعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام ، والجرحى ، وأنا من الأجل فى حصن حصين ، إلى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء ، كما قال صل الله عليه وسلم : « كفى بالصحة داء » ، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ، ما هو أصعب من القتل والقتال ، وكان الملائكة فى كنه الجيش ، أسهل من تكاليف العيش ، استرجعت من الأيام بطول الحياة سائر عجوب اللذات ، وشأب كدر النكد صفو العيش الرغد » .

ثم ينشد :

تناستني الأجيال حتى كأني  
ولسما تدع مني الثمانون منة  
أودى صلاتي قاعداً وسجودها  
وقد أنسدلتني حطة الحال أني

دريةة سفر بالفلاة حسبر  
كأني إذا رمت الفيام كسير  
علن إذا رمت السجود عسير  
دنت رحلة مني وحان مسير

هذا هو الأمير أسامة بن منقذ ، الفارس ، والشاعر ، والأديب ، هذا هو يليخض لنا  
تجربة عمره الطويل ، والتي من أجلها سمي كتابه «الاعتبار» ، أقدم ترجمة ذاتية في  
التراجم العربي طبقاً لما وصل إلينا ، أسامة بن منقذ سهاد المؤرخ الذهبي بأحد أبطال  
الإسلام ، أما ابن الأثير فوصفه بأنه «كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد  
عليها . . .

## كتاب العصا

هذا نص أدبي نادر ، غير شائع ، وغير معروف حتى لبعض المهتمين بالتراث العربي ، والخطوطات القديمة ، المؤلف هو الأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكلبي الشيرازي . وقد عرضنا له .

ونتوقف الآن عند كتابه (العصا) . وهذا العنوان ليس من ابتداعه إذ يذكر لنا في المقدمة الباعث له على تأليف الكتاب ، يقول الأمير أسامة « .. وبعد فإن النفس ترثى لما سمعت . وتنفع في الطلب إذا مُنعت . وكان الوالد السعيد محمد الدين أبو سلامة مرشد ابن على بن مقلد بن نصر بن منقذ رضى الله عنه ، حدثني أنه لما توجه لخدمة السلطان ملكشاه رحمه الله وهو إذ ذاك بأصفهان ، فقصد القاضي الإمام الصدر العامل أبيط يوسف القرزوي رحمه الله ، عائداً ومسلياً بمعرفة قديمة بينها ، ويد كانت عنده للجذب سعيد الملك ذي المناقب أبي الحسن علي بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضي المذكور سافر إلى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن إليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية فاستعنف منها ، وسأله أن يجعل صلاته كتاباً يقتربها من خزانة الكتب فأجابه إلى ذلك ، فدخل الخزانة واختار منها ما أراده من الكتب ، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه ، يريد ببلاد الإسلام التي في الساحل ، فتغير عليه الماء فرمى بالمركب إلى مدينة اللاذقية فخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب إلى جدي سعيد الملك رحمه الله تعالى كتاباً يقول فيه :

١- قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم . ومعنى كتب الإسلام . وقد وقعت لك رخيصاً ، فهل أجدك حريصاً .. .

فشير إليه من يومه ولده عمى عزّ الدولة أبو المهرج نصرًا رحمه الله ، وسبر معه خيلاً كثيراً من غلبه وجنده ، وظهرًا لركوبه وحمل أثقاله ، فأتاه وحمله وما معه فأقام عند جدي

رجه الله مدة طويلة وكانت له بالوالد رجه الله عنابة « وإنف . فلما اجتاز بيغداد قصده ليجدد به عهدا . . . .

ويذكر والد الأمير أسماء أنه رأى كتاب العصا عند هذا الشيخ وهنا يقول الأمير :

« ول من سمعت هذا نحوا من سنتين سنتين سمعت كتاب العصا بالشام وبصرى وال العراق والخجاز والجزيره وديار بكر ، فلا أجد من يعرفه . وكلما تذرع وجوده ازدلت حرصا على طلبه . إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب وترجمته بكتاب العصا ، ولا أدرى أكان ذلك الكتاب على هذا الوضع أم على وضع غيره . . . .

هكذا يخبرنا الأمير أسماء أنه عندما أدركه اليأس من الحصول على كتاب العصا ، أقدم هو على تأليف كتاب حول الموضوع نفسه ويقول المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون إنه يعتقد أن الكتاب الذي أمضى الأمير أسماء عمرًا يبحث عنه ، ماهو إلا كتاب « العصا » للجاحظ . وهو من مشتملات كتاب البيان والتبيين . وأن الأمير أسماء التبس عليه الأمر فظن ذلك الكتاب الذي دار حوله الحديث كتاباً مستقلًا لمؤلف آخر غير الجاحظ .

والأستاذ عبد السلام هارون هو الذي نشر كتاب ( العصا ) للأمير أسماء ضمن مجموعة « نوادر المخطوطات » التي حققها وصدرت في القاهرة .

## العصا

بعد المقدمة يذكر لنا المؤلف لماذا سميت العصا ؟

قال أبو بكر محمد بن دريد رجه الله : إنها سميت العصا عصا لصلابتها . مأخذ من قوله ، عصى الشيء وعصا وعسا إذا صلب . واعتصت النواة . إذا اشتدت . فإنها العصا مثل يضرب للجماعة . يقال شق فلان عصا المسلمين والجماعة . وفي الحديث عن النبي صل الله عليه وسلم « اياك وقتل العصا » . يزيد المفارق للجماعة فيقتل . وألقى الرجل عصاه ، إذا أطمان مكانه . ويقال عصا وعصوان والجماع العصي .

ويقال عصوت المجرى . إذا دوابته .

والعصيان ، فلان الطاعة .

وينقل الأمير أسماء عن كتاب الأولي لأبي هلال العسكري ما نصه قال أبو هلال العسكري ، أول من خطب على العصا وعلى الرأحلة قس بن ساعدة الإيادى ، فما ورد عنه من خطبه قوله :

«أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو أنت ، ليل داج ، وسياه ذات أبرايج ، ونجوم تزهر ، وبخار تزخر ، وجبال مرسة وأرض مدبحة . وأنهاراً مجردة . ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون . أرضوا فأقاموا . أم تركوا فناماً ، يقسم قس بالله قسياً لا أثم فيه : أن الله ديننا هو أرضي وأفضل من دينكم . الذي أثمن عليه ، أنكم لتأتون من الأمر منكراً ، ثم انشأ يقول :

فِي السَّنَاهِيْنِ الْأَوَّلَيْنِ  
بَنِيْنَ الْقَرْبَوْنَ لَنَا بِصَائِرٍ  
لِلْقَوْمِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرٌ  
يَمْضِيْنَ الْأَصْغَارُ وَالْأَكَابِرُ  
وَلَا مِنَ الْبَاتِيْنِ خَابِرٌ  
حِيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرٌ  
لِمَا رَأَيْتَ مَوَارِدًا  
وَرَأَيْتَ قَوْمَنِيْ نَحْوَهَا  
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيْنَا  
أَيْقَنْتَ أَنِّي لَا حَالَةٌ

ثم يقول أسامة :

تقول العرب : فلان من قرعت له العصا إذا كان يرجع إلى الصواب وتقول : فلان صلب العصا . إذا كان ذا نجدة وحزامة وتقول إذا تفرقت المخلطاء واحتللت آراء العشيرة ومَرَجَ الأمْرُ : انشقت العصا ، وتقول للمسافر إذا آتَ واسْتَقْرَتْ به داره : ألقى عصا التسيار .

### قرع العصا

الفصل الثاني بعنوان «قرع العصا» . يبدوه بحديث شريف للرسول عليه الصلوة والسلام :

«ما قرعت عصا على عصا إلا فرج لها قوم وحزن آخرون» . ويدرك قصة عامر بن الظُّرُب العدواني . وكان حكماً للعرب ، يُرجع إلى حكمه ورأيه . فكثير وأفشاه الكبر والدهر وتغيرت أحواله ، فأنكر عليه الثاني من ولده أمرًا من حكمه فقال له : إنك ربها أخطأت في الحكم وتحمل حتك ، فقال : أجعلوا لي أمارة أشرفها ، فإذا أخطأت وقرعت لعصا رجعت إلى الحكم ، فكان يجلس أمام بيته يحكم ويجلس ابنه في البيت ومعه العصا ، فإذا زلَّ وهذا ، قرع له الحفنة بالعصا .

ثم يذكر الأمير أسامة بعضاً من أقوال العرب ، فالقول بأن فلاناً (صلب العصا) ، إذا كان جلداً قويًا على السفر والسير .

وفي القرآن الكريم «إذا ضربتم في الأرض» أي ساقرتم ، وضرب بالعصا أي شرع في السير .

ويقال . فلان يشق العصا . إذا كان لا يدخل تحت حكم ولا طاعة مخالفًا لأمر الآخرين . ويستعمل شق العصا فيمن يتفرق عنه أصحابه ويرحل عنه أصحابه ، فيظهر مكون سره ، ويبيوح مخفي أمره ، لضرورة البين الداعية إلى ذلك .

ويقال (ألقى العصا) أي القى عصا التسيار . إذا أقام وترك السفر ، أو وصل الإنسان إلى مراده ، وراحته ، ومظنة استراحته وعن الجاحد يقول الأمير أسامة :

« الدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم ، ومعدن شريف ، الخاد سليمان ابن داود عليه السلام العصا لخطبته وموعظته ومقاماته وطول صلواته وتلاوته وانتصابه . فجعلها لتلك الخصال جامدة و « المحجنة » أي العصا المعوجة . وفي الحديث المروي أنه صل الله عليه وسلم طاف بالبيت يستلم الأركان بمحاجته .

والعرب تقول « لو كان في العصا سير ، للمعقل والضعف » .

وتقول أيضا : قد أقبل فلان ولا نت عصاه ، إذا أصابه الشواف . وهو ذهب المال .

وتقول العرب « العصا من العصبية ، والأفعى من الحبة » ، أي أن الأمر الصغير من الكبير .

\* \* \*

يتضمن كتاب العصا عدة حكايات رواها الأمير أسامة عن مشاهدة ومعاينة ، وهذا أسلوب يتفرد به . ويبدو واضحاً في أرقى صوره في كتابه الاعتبار ، ويدرك الأستاذ عبد السلام هارون ، أن كتاب العصا تضمن تسعين بيتاً من الشعر لم يتضمنها ديوانه المطبع ومن هذه الأبيات .

واسعنى ضعف رجل واضطراب يدى  
كخطٌّ مرتّعش الكفين مرتعش  
رجل كأنى أخوض التوحل في الجلد  
من بعد خطم القنا في لبنة الأسد  
هذى عوائق طول العمر والمدد

مع الشهرين عاث الضعف في جلدي  
إذا كتبت فخطى جدُّ مضطرب  
 وإن مشيت في كفى العصا ثقلت  
فاعجب لضعف يدى عن حلها قلماً  
فقلل من يتنمى طول مدتِه

وينقل الأمير أسامة عن شاعر مجهول قوله :

على ولا أنسى تحبّث وبين يسراه  
لأعلمها أن القىم على سفهه

حلث العصا لا الضعف أوجب حلها  
ولكتنى الرزانت نفسى تحفلها

## المذازل والديمار

### للأمير أسامة بن منقذ ..

.. ثمة نصوص أدبية . قرية من النفس ، كتبت من مداد ، من حروف ولكن تنشأ بينها وبين الإنسان صلات وثيقة . فكأنها نسيج بين مخلوقين من لحم وأعصاب ودم . وخلال إيمحاري الطويل في لجة التراث العربي . عرفت عدداً كبيراً من هذه النصوص . أطالعها لأول مرة فتبعد العلاقة ، وتقضى فترة زمنية ثم أعود مرة أخرى وكمأن أنطليع إلى رؤية صاحب حيم . أحياناً يطالعني المؤلف نفسه من بين سطوره . فآكاد أرى ملائحة . وأوشك أن أشعر بحالته النفسية عند تسطير هذه الصفحة أو تلك ، بل أوشك أحياناً أن أتخيل نوعية النظرة في عينيه ، أسيانة ، فرحة ، أو حزينة .

من هؤلاء الذين قام بيئي وبينهم وثيق صلة ، الأمير أسامة بن منقذ ، بالرغم من عشرة قرون وصدة سنوات تفصلني عنه ، نشأت العلاقة بعد أن قرأت كتابه «الاعتبار» . أقدم ترجمة ذاتية معروفة حتى الآن في الأدب العربي ، بدأت البحث عن كتاب له بعنوان «المذازل والديمار» ، قسرأت أن النسخة الوحيدة الموجودة منه في العالم ، توجد ، في لينتجراد بالاتحاد السوفييتي . وأن طبعة صدرت في موسكو أول السبعينيات ، تضم النص العربي ، والترجمة الروسية . وكتبت إلى الصديقة الدكتورة فاليريا كيريتشنكو ، المستشارة المعروفة ، أسألها أن توفر لي نسخة من الكتاب . وأجابتنى قائلة إن المؤلف طبع فعلاً في موسكو . ولكن الطبعة كانت محدودة جداً . وإن النسخة الواحدة منها تعتبر الآن في مصاف التحف ، والحصول عليها صعب جداً ، الحق أنى شعرت بالضيق ، فلا شيء يكدرنى مثل رغبتي في الحصول على كتاب ، وأبقى أنا في ناحية ، والكتاب في ناحية أخرى مجهمولة لي ، لم يكن هناك حل إلا الانتظار حتى سفرى إلى الاتحاد السوفييتي ، وإلى لينتجراد بالتحديد . وهناك ، أحارى

تصوير نسخة من المخطوطة الأصلية . هذا إذا وفقت ، وقبل ذلك إذا سافرت إلى روسيا وإلى ليننغراد بالتحديد .

طبعاً لم يدركنى اليأس في القاهرة . وأوصيت عدداً من معارف التخصصين في العثور على الكتب النادرة ، أن يبحثوا لي عن نسخة من « المنازل والديار » ، ربما تكون إحدى نسخ الطبعة الروسية قد وجدت طريقها إلى القاهرة ، أو .. من يدرى ، ربما طبع في جهة ما .

إلى أن وقعت المفاجأة ذات صباح .

## المذازل .. والديار

شاهنـى صديقـى من ذوى الخبرـة فى الكـتب القـديمة . وـقال مـبـنىـا .

ـلـقد عـرـت لـك عـلـى نـسـخـة مـن المـذاـلـ وـالـدـيـار . .

ـتـطـلـعـت إـلـيـه غـير مـصـدـقـ . لـكـم طـالـ شـوـقـى عـبـرـ سـنـوـاتـ عـدـيـدةـ إـلـى هـذـا الكـتـابـ ، وـعـنـدـمـا فـتـحـتـ حـقـيـقـيـتـهـ الـجـلـدـيـةـ الـقـدـيـمـةـ . وـأـخـرـجـتـ مـنـهـا النـسـخـةـ ، فـوـجـعـتـ أـكـثـرـ ، لـمـ تـكـنـ طـبـعـةـ روـسـيـةـ . وـلـاـ إـنـجـلـيـزـيـةـ ، وـلـاـ هـنـدـيـةـ . كـانـتـ طـبـعـةـ مـصـرـيـةـ وـحـدـيـثـةـ نـسـبـيـاـ .

ـلـعـمـ . . فـوـجـعـتـ أـنـ الـكـتـابـ حـقـقـتـ حـقـيـقـيـاـ عـلـمـيـاـ رـائـقـاـ ، وـصـدـرـ عـامـ ثـيـاـنـيـةـ وـسـتـيـنـ وـتـسـعـيـةـ وـأـلـفـ فـيـ الـقـاهـرـةـ ، عـنـ الـمـجـلـسـ الـأـعـلـىـ لـلـشـئـونـ الـإـسـلـامـيـةـ ، وـهـذـاـ الـمـجـلـسـ يـضـمـ لـجـنـةـ لـإـحـيـاءـ الـرـاثـ الـإـسـلـامـيـ ، تـصـدـرـ سـلـسـلـةـ مـنـ الـمـطـبـوـعـاتـ الـهـامـةـ ، وـلـكـنـهـ لـاـ تـوزـعـ بـشـكـلـ جـيـدـ ، وـمـحـدـودـةـ الـاـنـتـشـارـ ، كـىـاـ أـنـ مـعـظـمـ النـسـخـ تـقـدـمـ كـهـدـاـيـاـ ، وـفـيـ الـأـغـلـبـ الـأـعـمـ ، تـضـلـ الـكـتـابـ طـرـيقـهـاـ عـنـ مـسـتـحـقـيـهـ الـحـقـيـقـيـنـ عـنـدـمـاـ تـقـدـمـ هـدـيـةـ ، خـاصـةـ لـمـ لـمـ يـسـعـ إـلـيـهاـ ، وـلـمـ لـمـ يـطـلـبـهـاـ .

ـعـلـىـ أـيـةـ حـالـ ، هـاـ هـوـ الـكـتـابـ أـمـامـىـ ، بـتـحـقـيقـ الـأـسـتـاذـ مـصـطـفـىـ حـجـازـىـ ، حـلـتـهـ بـعـنـيـةـ . وـفـيـ الـيـوـمـ نـفـسـهـ بـدـأـتـ أـرـحـلـ مـعـهـ وـفـيـهـ .

## رـحـلـةـ الـكـتـابـ

ـيـقـولـ الـمـحـقـقـ ، الـضـالـعـ ، الـمـتـمـكـنـ ، مـصـطـفـىـ حـجـازـىـ فـيـ مـقـدـمـتـهـ ، إـنـ نـاـشـرـىـ مـوـلـقـاتـ الـأـمـيرـ أـسـمـاـةـ أـشـارـواـ إـلـىـ هـذـاـ الـكـتـابـ ، وـذـكـرـتـ دـائـرـةـ الـمـعـارـفـ الـإـسـلـامـيـةـ أـنـ نـسـخـتـهـ الـوـحـيـدـةـ مـحـفـظـةـ فـيـ لـيـنـجـرـادـ ، وـكـانـ أـوـلـىـ مـنـ نـهـىـ إـلـيـهـ الـمـسـتـشـرـقـ الـسـوـفـيـتـىـ كـرـاتـشـكـوـفـيـسـكـىـ ،

الذى كتب عنه مقالاً عام ١٩٢٥ في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . وفي عام ١٩٦١ قام معهد الشعوب الآسيوية بموسكو بنشره ، بطريقة تصوير المخطوط ... وهي الطبعة التى كنت أبحث عنها . وكتب له المقدمة المستشرق أنس خالدوف ، والنشر بهذه الطريقة يعني توفير صورة من المخطوط لا غير . ويقول الأستاذ المحقق مصطفى حجازى إنه شعر بضرورة تحقيق الكتاب ، وفق مناهج التحقيق الحديثة ، وقد اكتشف خطأ بالطبعة الروسية في ترتيب الصفحات .

### المنهج

رتب الأمير أسامة كتابه أو قسمه في ستة عشر فصلاً سردها في آخر المقدمة . الفصل الأول في ذكر المنازل ، والثاني في ذكر الديار ، والثالث في المغاني . ويستمر حتى يصل إلى آخر فصول الكتاب وقد خصصه في بكاء الأهل والإخوان .

إنه يبدأ الفصل غالباً بما يجده مناسباً له من آيات الكتاب العزيز ، يرده بتفسيرها من المأثور ، وربما يسرب بعد ذلك ما يناسبه من الحديث الشريف إن وجد ، ثم يفيض في مختاراته الشعرية . وهذا أسلوب مألوف في كثير من المؤلفات الأدبية العربية ، منها «الغرر والغرر» للوطواط و «محاضرات الأدباء» للأصفهانى ، و «العقد الفريد» لابن عبد ربه . أحياناً كان يفصل معنى اللفظ اللغوى كما فعل في فصل «الديار» وفصل «الآثار» لكنه لم يلتزم بذلك في معظم الفصول .

### المدخل

بشعور أسيان ، وبقلب يقطر حكمة ، وتجربة ، يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، يقول :

«الحمد لله ، وإن تنقلت بنا الدنيا تنقل الظلال ، وتقلب بنا الدهر من حال إلى حال ، وعفت رسوم آثارنا ، واستولت يد الاعتداء على ديارنا ، وتصدع شملنا أيدي سبا ، وتشعبت بنا سُبل المذاهب ، وأخذت الحوادث على معاشرى ولل ، وأفني الموت أسودى وأشبالى ، كل ذلك بقليل جرى به القلم في القدم ، وقضاء سبقت به المشيّة قبل الخروج إلى الوجود من العدم . . . . .

ويمضى الأمير في خطبة الكتاب ، أو المدخل الخزين . الأسيان ، ثم يخاطب القارئ مباشرة بأن يدعوه .

ـ ويعد جعلك الله بنجوة من النوائب . وأصفي لك الحياة من كدر الشوائب . ولا راعك بحادثة تُنسى ما قبلها . وتصفر ما بعدها وتفتح من النكبات أبواباً لا تستطيع سدها .

ثم يقول متحدثاً عن كتابه .

ـ وقد جعلت هذا الكتاب نصولاً ، فافتتحت كل فصل بها يوافق حال ، ثم أفضت فيها يواافق ذا القلب الحال ، لكيلا يأتي الكتاب وهو كله عويل ونياحة . ليس فيه لذوى البث راحة ، على أن رذياها الدنيا كالأجل ، تمهل ولا تممل ، فلن تولت اليوم فخذلنا تقبل . ويبداً الأمير أسامة بن منقد فصول كتابه ، أو يبدأ في عد الحبات التي انتظمتها هذه السبحة ، لتفرز أرق المشاعر وأجلها حزننا . والتي عبّر بها وأزدحّم هذا الأثر الأدبي الرقيق التفيس ، فهذا نجد فيه .

يبدأ الأمير أسامة مؤلفه ، ناقلاً عن شخص اسمه ابن أبي مرريم قوله ، إنه من بسوبية عبد الوهاب . وهي محلة قديمة بمدينة بغداد . فلقي المحلة قد خربت وحل أحد الجدران المهدمة هذه الآيات .

هَذِي مَنَازِلُ أَقْسَامِ عَهْدِنَاهُمْ  
فِي خَفْضٍ عِيشَ وَعَزَّ مَا لَهُ خَطَرُ  
صَاحَّتْ بِهِمْ نَائِسَاتُ الدَّهْرِ فَانْقَلَبُوا  
إِلَى الْقُبُورِ ، فَسَلَّا عِيشَنَ وَلَا أَثْرَ

هكذا ، مباشرة يدخل الأمير في موضوعه ، مبتدئاً الفصل الذي خصصه لذكر المنازل ، ثم يورد أبياتاً من الشعر ، يشرح غواصتها . ويفسر غريبها ، وإنني لأنسق عند بعض اختاراته في ذكر المنازل . أى أننى اختار ما وقع عليه اختيار الأمير . وهو يكتب ليتسل في محتته .

يقول ابن أبي طاهر .

يَا مَنْزِلًا لَعْبُ الزَّمَانِ بِأَفْلِهِ  
طَوْزًا يُفَرِّقُهُمْ . وَطَسْوًا يَجْمِعُ  
كَانَ الزَّمَانَ يَضْرُبُهُمْ وَيَنْفَعُ  
ابْنَ الَّذِينَ عَهْدُهُمْ بِكَ مَرَّةٌ

وينقل عن البحترى قوله :

فَيَسِنَ إِلَيْكَ ، فَقَدْ تَكَوَّنَ أَسْرَى  
حَسْفَ الرَّدَى وَتَحَمَّلَ النُّكَبَاتِ  
بِزُهْرِ الشُّخُوصِ . وَلَا وَغَيْرَ الْأَصْوَاتِ  
أَيَّاتٍ مِنْ بَدْلٍ بِهِمْ أَيَّاتٍ  
تَلْكَ الْمَنَازِلُ مَا تُقْسِمُ وَإِنَّمَا  
لَنْ تُخْلِفَ الْأَيَّامَ لِبَدْلًا بِهِمْ

وَمُعِيرٌ بِالدُّهْرِ يَعْلَمُ فِي خَدِيْرَةِ الْحَصَادِ وَرَاهُ كُلُّ نَبَاتٍ

ويقول شاعر مجهول :

دُغْنِي وَتَسْكَابَ دَعْمِي فِي مَنَازِهِمْ  
فَلِلشَّتُّونَ وَلِيَ مِنْ بَعْدِهِمْ شَانٌ  
أَحْبَابِنَا مَا الْدِيَارُ الْيَوْمَ بَعْدِكُمْ  
تَلَكَ الْدِيَارُ لَا الْأَوْطَانَ أُوْطَانُ!

ولا يكتفى الأمير أسامة بإيراد الشعر الذي يتضمن زيارة المنازل ، وإنما يذكر الحكايات المتعلقة بنفس الموضوع . يقول نقاً عن زيارة الرزامير : لما استد المرض بالمعتصم - في مرضه الذي مات فيه - أفاق في بعض الأيام ، فقال : هيئوا إلى الزلال . لأركب فيه في دجلة غدا ، فعملوه . فركب : وركبت معه ، فهرق دجلة بزيارة منازله فقال يا زياد ائْرَمْي :

يَا مَنْزَلَكَ لَمْ تَبْلَ أَطْلَالُهُ حَاشَتْ لَأَطْلَالِكَ أَنْ تَبْلَسَيْ  
لَمْ أَبْلَكِ أَطْلَالَكَ . لَكَتْسَيْ بَكَيْتَ عِيشَيْ فِيْكَ إِذْ وَلَسَيْ  
وَمَا زَالَ يَتَحَبَّ حَتَّى عَادَ إِلَى مَنْزَلِهِ .

وتتوالى المقططفات الشعرية الآسيانة التي اختارها الأمير أسامة ، حتى يقول مانصه :

هُلَى عَلَى مِنْ تَقْدِيمِ ذَكْرِهِ مِنَ الشَّعْرَاءِ فَضْلَ الْمَرْيَةِ . إِذْ كُنْتَ دُوِيْهِمْ صَاحِبَ الرِّزْيَةِ ،  
فَكَانَ شِعْرِيْ أَوْلَى أَنْ يَقْدِيمَ عَلَى أَشْعَارِهِمْ . وَأَنْ قَصَرَتْ بِي الْبِلَاغَةُ عَنْ افْتِنَاءِ آثَارِهِمْ .  
لَكِنَّ لِلْمُتَقْدِمِ السُّبْقُ ، وَهُوَ بِالْمُتَقْدِمَةِ أَوْلَى وَأَحْسَنَ . وَإِنْ كُنْتَ وَهْسَ كَمَا قَالَ ذَرَ لَأَيْهِ :  
يَا أَبْيَتْ مَالِكَ إِذَا تَكَلَّمْتَ أَبْكَيْتَ النَّاسَ ، وَإِذَا تَكَلَّمْتَ غَيْرَكَ لَمْ يَبْكِهِمْ . قَالَ : يَا بْنَى لِيْسَ  
النَّافِعَةُ الْمُسْتَأْجِرَةُ كَالثَّكْلِيْ .

ثم يورد أشعاره هو التي نظمها حزناً على أهله الذين أبادهم الززال . ومن أرق شعره  
هذا البيت :

أَبْكَيْكَ . أَمْ أَبْكَى زَمَانِيْ فِيْكَ أَمْ أَغْلِيْكَ ، أَمْ شَرْنَعَ الشَّبَابُ الْزَّائِلُ

## الديار

من المنازل ينتقل الأمير أسامة إلى الديار ، يبدأ بذكر آيات القرآن الكريم التي ذكرت  
الديار .

قال تعالى « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم .. » - سورة البقرة ٨٤ .

ثم يمضي طبقاً لمنهجه ، فيورد مختارات من الشعر العربي ، كلها تدور حول الديار وفرقتها . والختين إليها ، وتعكس هذه المختارات سعة اطلاع الأمير وغزارة ثقافته ، يذكر كثير بن عبد الرحمن الخزاعي .

لمن الديسار يأسرق الحنان  
أتوص منازلهم وغير رسمها

وعن البحرى :

متى تشتري ذ فضلاً من العُمر تُعترف  
يُسرُّ بعمران الديسار مُقلل  
ولسم أرتضي الدين أوان مجدهما

وعن أبي عبد الله الطبرى ينقل الأمير أسامة قصة يقول فيها : قال رجل لأبي محمد  
الخريرى : كنت على بساط الأنس . وفتح لي طريق إلى الانبساط ، فنزلت زلة ، فجئت  
عن مقامى ، فكيف السبيل إليه ؟ دلني إلى الوصول إلى ما كنت عليه ، فبكى أبو محمد  
وقال : يا أخى ، الكل في قهر هذه الحلة ، وفي أشر هذه الرزية ، ثم شهد ، ثم سكت  
ساعة وأشد :

قف الديسار فهمله آثارهم  
كم قد وقفت بها أسائل هبوا  
فأجلسنى داعى الموى لي رسمها

ويذكر الأمير نص قصيدة نظمها الأمير طلائع بن ذيذك رجل الدولة الفاطمية القوى  
في مصر ، يعزى فيها الأمير على فقد أهله . يبدواها فائلاً :

لم ينفني على ديار من السكـ  
ولكم حلمـا فانـتهـ أوطـا

ويذكر الأمير أسماء أنه كان بقرية « فنك » القرية من سمرقند ، فقرأ على حائط مسجد البيت التالي مفرداً :

تَجْنَبْتُ غَشْيَانَ الدَّيَارِ وَلَيْسَ فِي تَجْنِبِهَا بَعْدَ الْفِرَاقِ مَسْلَامٌ

\* \* \*

عندذاإضافات الأمير أسماء تجده :

وَمَا كَنْتُ أَهْوَى الدَّارِ إِلَّا لِأَهْلِهَا      عَلَى الدَّارِ بَعْدَ الظَّاعِنَ سَلَامٌ

\* \* \*

المغانى ، الأطلال ، الربع

المغانى هى المنازل التى هجرها أهلها . يفرد لها الأمير أسماء فصلاً . ومن مختاراته .  
أبيات لأبي ثمام :

شَهِدْتُ لِقَدْ أَفْسَرْتُ مَغَانِيْكُمْ بَعْدِيْ  
فَانجَدْتُمْ مِنْ بَعْدِ اغْهَامِ دَارِكُمْ  
لِعَمْرِيْ لِقَدْ أَبْلَيْتُمْ جِلَّةَ الْبَسْكَا  
بِلَائِيْ ، وَجَدَدْتُمْ عَلَى بَلَ السُّوْجِدِ

وبل المغانى فصل في ذكر الأطلال . تطالعنا في بدايته أبيات امرئ القيس الشهيرة .

إِلَّا أَنْعَمْ صَبَاحًا أَهْيَا الْطَّلْلَلَ الْبَالِ      وَهُلْ يَنْعَمُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِ

وتعده مختارات الأمير في هذا الفصل من أرق وأغنى المختارات في الكتاب ، أو في المجموعات الشعرية التي خصصها أصحاها بجمع ما اختاروه من الشعر العربى ، فيما أكثر الوقوف على الأطلال في الشعر العربى ، والوقوف على الأطلال هو قمة التعبير عن الإحساس المرتيمور الزمن ، ونهاى الوقت ، والمكان معاً . ببل الأطلال ، فصل عن الربع ، والربع أى المنزل ، ودار الإقامة . ومن المقطوعات الشعرية التي اختارها الأمير نورد أبياتاً لأبي الطيب المتنبي :

أيسلرى الريح أى دم أراقسا  
لنا وأهمله أبىدا قلوب  
فلينت هوى الأحبة كان عذلا

• • •

النعن ، السرجم ، الآثار

الدمن ، جمع دمنة ، ودمنة الدار ، أي أثراها ، والدمنة أيضاً آثار الناس وما سودوا .  
وقيل ، ما سودوا من آثار بعد وغره ، عن البحترى ينقل :

يَعْنَى لِزِيَنْبَ قَبْلَ تَشْرِيدِ النَّوْىِ      مِنْ ذِي الْأَدَاثِ بِزِيَنْبَ وَلِعَوْبِ  
تَابِي الْمَسَايِلَ أَنْ تَحِبِّ وَمِنْ جَهَوْيِ      يَوْمَ الْدِيَارِ دَعْوَتُ غَيْرَ تَحِبِّ  
بَعْدَ الْدِيَمَنْ ، يَذَكُرُ الْأَمِيرُ أَسَامَةً مَا قَيَلَ فِي الرَّسْمِ . وَالرَّسْمُ أَيُّ الْأَثْرِ ، وَهُوَ مَا لِصْقِ  
بِالْأَرْضِ مِنْهَا ، وَرَسْمُ الدَّارِ مَا كَانَ مِنْ آثَارِهَا لِاصْبَأَ بِالْأَرْضِ ، وَعِنْ الْعَرْجِي يَذَكُرُ :

أُفْسِرْ رُسْمِ دَارِ دِمْسُكَ التَّحْسِلَةِ تَغْيِيرُ ذَلِكَ الرُّسْمِ مِنْ بَعْدِ جَلَّةِ سَفَاهَا . وَمَا اسْتَطَاعَ مَا لِيْسَ يَعْلَمُ وَكُلُّ جَدِيدٍ مَرَّةٌ يَتَغَيِّرُ

أما الفصل، الذي خصصه للأثار . فسدا يقوله تعالى :

٤٠- سورة يس : **إِنَّا نَحْنُ نُخْسِنُ الْمُوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ . . .**

ويمضي بنفس النهج مورداً مقتطفات مما قيل من شعر في الآثار ، ثم يخصص فصلاً واحداً لذكر المساكن ، والمعاهد ، والمعاهد جم العهد وهو الموضع الذي عهده الإنسان ، أو عهد هو لـه فيه ، والمعهد أيضاً هو النـزل الذي ارتحـل عنه القـوم ثم رجـعوا إلـيه ، أما المحـال ، فـمفرده محل . وهو موضع الحلـول ، والمـحلـة ، أى المـكان يـنزلـه القـوم . أما العـرسـات فـهي جـمـ عـرـصـة أـى وـسـط الدـار ، أو هـي كـلـ بـقـعـة فـسـحة بـيـن الدـور .

المساكن ، المعاهد ، المحال ، العروضات ، لكل يفرد الأمير أسامة فصلاً ، يورد فيه ماقيل من شعر ذكر فيه كل من هذه المعلم . ثم يختص فصلاً كبيراً لذكر الأرض ، وينقسم هذا الفصل إلى جزأين ، في الأول يورد مقتطفات معانى البكاء على فراق الأرض ، مثل قول شاعر مجهول :

سقى الله أرضًا لو ظفرت بترها  
كَحَلَّتْ بِهَا مِنْ شَدَّةِ الشَّوْقِ أَجْفَانِي  
فَهَلْ بَعْدَ هَذَا لِلْمُحِبِّينَ خَيْرٌ  
وَهَلْ أَحَدٌ أَشْجَانَهُ مُشْلَّ أَشْجَانِي ١٩

أما الجزء الثاني فيحضر على مفارقاة الأرض التي وقعت بها المصائب ، ف الأرض الله  
واسعة ، ومن ذلك قول الشفري :

وَفِي الْأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى  
وَفِيهَا لِمَنْ رَأَمَ الْقُلُّ مُتَحَرِّكٌ  
لَفَمَرُوكٌ مَا بِالْأَرْضِ ضَيِّقٌ عَلَى امْرِئٍ  
سَرِّي راغبًا أو راهبًا وَهُوَ يَغْرِي

ونفس الشيء نجده في الفصل الذي خصصه للأوطان . في الجزء الأول نجد أشعاراً  
تبكي الأوطان ، وتحن إليها ، وتدرُّج أبياتاً مبلولة بالدموع من أجلها ، يقول - على سبيل  
المثال - القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن عل بن نصر :

أَهِيمْ بِذِكْرِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ دَائِمًا  
وَلَكِنْ أَوْطَانَنَا ثَوْبَهُمْ أَضَبْ  
وَمَا بَسَّ لَا شَرْقَ الْبَلَادِ وَلَا غَرْبَ  
فَقَدَثُ ، مَنْيَ أَذْكَرَ عَهْوَدَهُمْ أَضَبْ

أما الجزء الثاني فيتضمن أشعاراً تمحض على الغربة ، وهنا نجد أنفسنا أمام معانٍ  
تتناقض مع البكاء على الأطلال ، والمنازل ، والديار ، يقول شاعر مجهول :

لَأَرْحَلَنَّ الْمَطَسَايَا يَخْلَلَةَ عَجَبَيَا  
يَكُونُ أَدْنَى مَدَاهَا الصَّبَيْنُ أَوْ عَدَدُ  
فَكُلُّ خَلْلٍ إِذَا صَافَيْتَهُ سَكَنَ  
شَمْ يَخْصُصُ فَصْوَلًا لِلْمَدَنِ ، وَالْبَلَادِ ، وَيَعُودُ مَرَةً أُخْرَى لِيَغْرِدَ قَسِيًّا لِلْمَدَارِ ، أَيِ  
الْبَيْتِ ، وَهَذَا أَطْوَلُ فَصْوَلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ يَفْرَدُ فَصْوَلًا لِلْبَيْتِ ، يَذَكُرُ فِيهِ قَصَّةُ بَنَاءِ سَيِّدِنَا  
إِبْرَاهِيمَ لِلْكَعْبَةِ ، وَيَذَكُرُ الْأَدَابَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِدُخُولِ الْبَيْتِ :

« وَقَدْ قَيْلَ : إِنْ وَقَعَتِ الْعَيْنُ عَلَى الْعَيْنِ قَبْلِ الْأَسْتَذَانِ ، فَالْأَوْلَى تَقْدِيمُ السَّلَامِ عَلَى  
الْأَسْتَذَانِ ، وَإِنْ لَمْ تَقْعُدِ الْعَيْنُ عَلَى الْعَيْنِ قَبْلِ الْإِذْنِ . فَالْأَوْلَى تَقْدِيمُ الْأَسْتَذَانِ عَلَى  
السَّلَامِ . . . » .

ويختتم الكتاب بذكر ما قيل في بكاء الأهل والإخوان ، يقول الأمير أسماء بن منقاد إن  
هذا الفصل كان موضعه في مقدمة الكتاب ، لكنه أخوه ليختتم به كتابه ، ويؤكد المرء

يُشعر بانحنائه ، وشجوره ، وحزنه ، إذ كان يخط الأبيات التالية ، من شعره هو ، وهو يوشك على اختتام واحد ، من أرق ، وأجمل ، كتب التراث العربي ، وأغزرها إنسانية .

يقول الأمير :

نافستني صُرُوفُ دَهْرِي فِي الْفَرْسِ  
لَسْوِكُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَزُورَهُ مَا  
بِسَادِرِتِ أَمْشِي إِلَى ثَرِي جَهَنَّمِ  
لَكِنْ بِمَصْرِ قَبْرِي وَلِشَيْزِرِ قَبْرِ  
وَالظَّلَمُ فِي الْأَرْضِ مَا نَعْصِي كُلُّ  
نَبَاتٍ تَرَاهُ عَيْنِي فِي الْحَلْمِ

رحمه الله ورحم أهله أجمعين !

## الذخائر والتحف

«الذخائر والتحف» للقاضي الرشيد بن الزبير - القرن الخامس الهجري - كتاب نادر وفريد ، كثيراً ما وقعت عيناي على اسمه أثناء معايشتي لخطف المقربي الشهير، إذ ذكره عدة مرات ، ثم اكتشفت منذ عدة سنوات أن هذا الكتاب حقق وطبع في الكويت عام ١٩٥٩ ، وصدر كأول مطبوع في سلسلة التراث العربي التي كانت تصدرها دائرة المطبوعات والنشر ، للكتاب نسخة واحدة فقط في العالم . مخطوطة في مكتبة بلدة «أفيون قرة حصار» في تركيا ، مؤلفه القاضي الرشيد أبو الحسين أحد بن الرشيد بن القاضي الزبير ، لا توجد ترجمة له في المصادر التاريخية المنشورة ، ولكن من خلال نصوص عديدة في الكتاب نفسه نجد بعض المعلومات عنه ، ومنها يمكن الاستدلال على أنه كان في خدمة أبيه كالمجاري . وعندما انتهت الدولة البوهيمية هاجر وأقام بمصر ، وعمل في خدمة الفاطميين ، والمؤلف يجمع في هذا الكتاب حكايات وأخباراً عن هدايا الملوك وكبار الأمراء ، السلاطيم المشهورة ، الإعذارات ، الأيام المشهورة والاجتماعات ، الغرائب الموجودات والذخائر المصنونات ، الترك الموروثات ، المغائم في الفتوحات . النقوص ، حول هذه الموضوعات يورد المؤلف العديد من الحكايات التي تقرب في بعض أجزائها من الفن القصصي ، ويصف فيها بعض التحف وصفاً دقيقاً مما يجعل الكتاب مصدرًا هاماً للفنون الإسلامية ، إضافة إلى تسلیطه الضوء على جوانب اجتماعية لم ت تعرض لها مصادر التاريخ الكبرى . كما أنه يعرض أيضاً للعلاقات السياسية بين الشرق والغرب في العصر القديم ، هكذا يبرز الكتاب أحد الجوانب الفريدة لحضاراتنا الإسلامية . حقق الكتاب الدكتور محمد حيدر الله ، وقدمه وراجعه الدكتور صلاح الدين المنجد .

### الهدايا

الباب الأول خصص للهدايا ، ويضم ستاً ومائة حكاية قصيرة ، من الهدايا في العصر الإسلامي يذكر أولاً هدية جريج بن مينا - المقويس - عامل قيسار الروم على مصر إلى

الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن راسله يدعوه إلى الإسلام . عاد الرسول وكان حاطب بن أبي باتنة الضبي إلى النبي بجواب الرسالة ومعه رسول من قبل المقصوس ، ومعه هدية بينها أربع جوار ، منها جاريتان اختنان هما مارية وسيران ، وكان لها شأن عظيم في القبط ، جيلتان جدًا ، وشخص محبوب لخدمتها . وبغلة شهباء ، ساهما الرسول الكريم « دلدل » . وماتت في خلافة معاوية . وحار ساه عليه السلام « يغفر » ، وفوس ، وألف مثقال ذهب وعشرون ثوابًا من قباطي مصر ، وعسل من بيتها .

يقول المؤلف إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يسود هدية أحد ، ويكافئ عليها . وتزوج مارية . ووهب اختها سرية لحسان بن ثابت ، ووهب الثالثة لحمد بن مسلمة الأنصاري ، والرابعة لجهم بن قيس العذري ، وتصدق بسالم ، وأعجبه العسل فدعا لعسل بيتها بالبركة ، وعندما كتب ملك الصين إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب منه إرسال من يشرح له الإسلام ، بعث إليه بهدية عبارة عن كتاب يتضمن بعضًا من أسرار العلوم ، يقول المؤلف إنه انتهى إلى خالد بن يزيد بن معاوية . وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

ومن غرائب المدايا قضيب الزمرد الذي أهداه أحد ملوك الهند إلى الرشيد ، كان أطول من الذراع . وعلى رأسه تمثال طائر من ياقوت أحمر ، لا يقدر له من التفاسة ، فوهره لأم جعفر زبيدة زوجته ، وانتقل منها إلى الأمين بالله ، ثم إلى أخيه المأمون ، ثم صار إلى المعتصم بالله بعدهما ، وجلس المعتصم بالله يوماً ، فشرب ، وعندئذ ندمائه فطرح إليهم قضيب زمرد كان بيده . وسأل عنها إذا كان أحد هم يعرف هذا القضيب ؟ فلم يعرفه أحد منهم . حتى صار إلى عبد الله بن محمد المخلوع فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا قضيب أهداه ملك الهند إلى الرشيد . وكان على رأسه طائر ياقوت أحمر قيمته مائة ألف دينار ، ولست أراه ، فأمر المعتصم بطلبه ، وتوعد المسؤولين عن الخزانة بالقتل إذا لم يحضروه من ساعته . فجاءوا به ورُكب على القضيب .

رف عصر المأمون أهداه أبو دلف بن عيسى مائة حمل زعفران ، على مائة حمار . فوصلت المهدية وكان المأمون عند حديمه ، وأحاب أن ينظر إليها على حالمها . لكنه في نفس الوقت كره أن يكون بين الحمير شيء لا يصح للنساء أن ينظرن إليه ، فسأل : أهـى أـنْ (إناث) أـم ذـكـور ؟ . فقيل له إن الحمير كلها إناث مربـة ، فـسـرـ لـذـلـكـ وـقـالـ ، عـلـمـتـ أـنـ الرجل أـعـقـلـ مـنـ أـنـ يـوـجـهـ إـلـيـهـ حـيـرـاـ غـيـرـ إـنـاثـ . وـهـوـ عـنـ حـرـيمـهـ أـ

## قطر الندى

ويذكر المؤلف تفاصيل هدية قطر الندى أشهر عروض في التاريخ العربي ، إذ أهدت إلى الخليفة العباسى المعتصم بالله سنة ٢٠٢ هجرية ، هدية ضمت عشرين صينية ذهباً ، في عشر منها علب صبر زنتها أربعة وثلاثون رطلاً ، وفي العشر الأخرى علب ندى معجون وزتها أيضاً أربعة وثلاثون رطلاً ، وعشرين صينية فضة بها صندل ، وزعفران ، وعشرين صينية من الذهب مختلفة بالزجاج ، بها مسك وزنة أكثر من ثلاثين رطلاً ، وخس خلع رئياً قيمتها خمسة آلاف دينار .

وإلى المعتصم بالله أيضاً جاءته هدية من عمر بن الليث ، فيها ثمانين أصفر على مثال امرأة لها أربع أيد . عليها وشاحان مرصعان بالجوهر ، ومعها أصنام صغار لها أيد ووجوه عليها جواهر . كان أصحاب عمر قد ظفروا بها من بعض المدن البعيدة في البحر . وقد عرضت الهدية ببغداد أيام ليرها الناس ، وسميت (شغالاً) لاشتغال الناس بها .

## بين المكتفى وبرتا

وكان للهدايا موضع متميز في العلاقات بين الدول ، بل إنها الفرصة المتاحة لكي يظهر كل ذي سلطان مقدار تقدم أمته ، ونبوغها في العلم ، يقول المؤلف ما نصه :

«أهدت برتا برتا (برتا فيليا لو تاري حفيضة شارلماں ملك فرنسا) ملكة الإفرنجة ومن والاهما إلى المكتفى بالله ، مع على الخادم ، أحد خدم زيادة الله بن الأغلب ، سنة ثلاثة وتسعين ومائتين ، خمسين سيفا ، وخمسين ترسا ، وخمسين رمحًا الأفرنجية ، وعشرين ثوبيا منسوجة بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً ، وعشرين جارية صقلية ، حساناً لطافاً ، وعشرة أكبّل كباراً ، لا يطيقها السبع ولا غيره ، وسبعين بزرة ، وسبعين صقور ، ومضرب حرب يحبيه الله ، وعشرين ثوبياً معمولة من صوف يكون في صدف يخرج من قصر البحر هناك ، يتلون بجميع الألوان كفوس قزح . يتلون لوناً في كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيار تكون ببلاد الفرنجية ، إذا نظرت إلى الطعام والشراب المسموم صاحت صباحاً منكراً ، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم ذلك . ونحرًا تجذب النصواف والأزجة بعد بناء اللحم عليها بغير وجع » .

ثم يورد المؤلف نص الرسالة التي بعثت بها برتا إلى المكتفى تطلب الزواج منه وموته ، ونص الرد الذي أرسله الخليفة ، والرسالة نموذجان لكتابات الملوكة في هذا الزمان

البعيد . وللعلاقات بين القوى الدولية أيضاً . طبعاً الخليفة رفض الزواج وقد أورد ابن التديم في كتابه (الفهرست) قصة هذه المراسلة ، أما مؤلف الكتاب الذي نعرض له ، فقد ذكرها نقاً عن سيرة المكتفى بالله لعبد الله بن أحد الطاهر ، وكتاب آخر لم يسمه ، ويرجح المحقق الدكتور محمد حيد الله . أنه اطلع على نص الرسائلتين في ديوان الرسائل ، عندما كان يعمل في خدمة أبي كاليجار ، فقد أورد تفاصيل أكثر من المصادر الأخرى .

والمؤلف لا ينقل فقط ، إنما كان شاهد عيان أيضاً ، فقد رأى بنفسه بعض المدايا يقول :

« وأهدى ميخائيل ملك الروم أيضاً إلى المستنصر بالله في وزارة الحسن بن عبد الرحمن البازورى في سنة أربع وأربعين وأربعين . مع رسول له ورد في البحر إلى تپيس . هدايا جليلة ، شاهدت جميعها بتپيس . من جلتها على أن أترك متقاربوا الأهمار . وجوار تركيات . وحجل بيض . وطواويس بيض ، وكراكي بيض .. الخ » وينقل عن مصادر أطلعته مباشرة فيقول :

« وأخبرني فيما تقدم أن ميخائيل مملك الروم أهدى إلى السيدة والدة المستنصر بالله خمسة دسوت حلباً . بجرى بزجاج من أربعة ألوان أحمر قان ، وأبيض ناصع . وأسود حالت ، وأزرق صاف .

ويقول :

« وأخبرني من أثق به من وزراء المستنصر بالله في سنة إحدى وستين وأربعين أنه ما يقارب ذلك أنه وجد في بعض خزانات القصر ، في جملة ما أخرج منها لبياع في أعطيات الرجال ، قفص مغلق . وأنه فتح بين يديه فوجده فيه أربعة سروج ، أحدهما معمول بدبياج أسود . ودقنه وركاباه من ذهب مصبوب ، مرصع جميعه بقطع من اليشب الأبيض ، المليح الجوهر ، وسبيوه من جلود سود ناعمة كالحرير ، وبخلافه جميعه مكان الحديد منه ذهب مرصع باليشب أيضاً ، وسبيوه سودانية كأحسن ما يكون ، وعليه رقعة مكتوب فيها بخط المعز لدين الله :

« أهدى مملك الروم إلينا هذا السرج واللجام بعد دخولنا إلى مصر ، وذكر أنه من جملة ستة سروج كانت لدى القرىين ، انتقلت منه إلى خزاناتهم ، وأنه بقاء ، ولم يحدث فيه حادثة ، وطالع به » .

وترتبط بعض المدايا بخصائص علاجية ، فيذكر المؤلف أن المستنصر بالله تلقى هدية

عبارة عن حجر أبيض معمول كالخرزة . إذا شد ليلًا على سرة صاحب الاستسقاء المائي وذلك إلى الصباح وجعل في الشمس . قطرات منه قطرات ماء إلى أن يفرغ تماماً . ويذكر ذلك حتى يشفى المريض ، ويعرف هذا الحجر باسم حجر الماء ، وقد ورد ذكره في كتاب الأحجار لرسطا طاليس .

ويورد خبراً عن أحد الباحثين عن الكنوز . أنه عثر في كنيسة سرقوسة القديمة على حرق من نحاس كل من يمسكه يصاب بالإلعاظ طلما يبقى في يده .

## اللوازم والدحوات

يفرد المؤلف باباً لأخبار الدعوات واللوازم المشهورة . يذكر نقاًلاً عن ابن عفني أن عبد العزيز بن مروان خرج إلى الإسكندرية في سنة أربع وسبعين فاعترضه صاحب بلدة « بهبيب » ، فطلب إليه أن ينزل عنده ، فقال له عبد العزيز : ويحث إن معنى جماعة ، فأصر ، ولبس عبد العزيز الدعوة ، وكان معه ألف من خواصه ، مع كل رجل منهم اثنان وثلاثة ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام يقدم إليهم الأطعمة والطراشف في كل يوم ثلاث مرات . وعندما عزم عبد العزيز على المسير ، جاء أربعة يحملون قفة عظيمة تسع ثلاثة أرداد ، فلما كشف عنها عبد العزيز وجدها مملوقة دنانير فأبى أن يقبلها . بلغ ذلك أم صاحب بهبيب . وكانت عجولاً ضعيفة كبيرة ، فاقبضت عليه ، وقالت ، ما أدرى أينما الأمير اجتتنا لتسرنا أم جئت لتشمت بنا عدونا ؟ . فقال عبد العزيز : إنما جئت لأسركم . فتساءلت : لماذا ترد هديتنا علينا ؟ . وقبل عبد العزيز الهدية وقسمها على رجاله .

ويورد المؤلف نصاً حديثه به من يثق به :

« حدثنا من أشأ به . عن ابن مهنا ، أحد عمال الريف ، قال : رد النظر إلى في الضياع الجوانية . من كورة دميس ، في أيام المستنصر بالله . فنزلت يوماً الضياعة المعروفة بطاء العمل ، فرأيت فيها آثار بناء قديم كأحلكم ما يكون من الآنية وأتقنها ، فسألت ما روت الضياعة عنه ، ولم يك ، فقال لي : أنا آتيك بمن يعرفك به وبأربابه . فجاءني بشيخ من القبط ، قد جاوز المائة سنة بعده سنتين ، صحيح العقل والحديث ، فسألته عن البناء فقال : قال لي أبي ، وعمره قريب من عمري ، وقد سأله عن هذه الآثار وهي أبين مما رأيت وأجد . « من كان هذا البناء ؟ » فقال « ماروت من القبط ، عاملته وشاهده ، وكان ذا يسار ، وقدر ، وهمة عالية . من أهل هذه الضياعة ، وله والدة تضاهيه في القدرة والمروعة ، تدعى مارية . ولقد رأيتها أيام ورد المأمور إلى مصر في سنة ثانية عشرة وثلاثين ،

وانحدر إلى بلد اليحوم ، وكان يبني له في كل ضيعة دكة ويجعل عليها ترسية (٢) . فإذا ورد الضيعة جلس في التركية ، ونزل العسكر والقواد والوجوه بجوانبها وقد تمنى له إلا ينزل في طاء النمل .

وأتصل الخبر ببارية المذكورة . فخرجت إليه ، وتوصلت إلى خطابه ، وكان بحضوره المأمون تراجحة يعرفون الرومية ، والقبطية والبطية وسائر اللغات ، لا يفارقون عسكره في كل أسفاره ، فسمع الترجمان ما قال ، فقال :

« تقول يا أمير المؤمنين إنك قد نزلت في كل مكان بنيت لك فيه دكة . ومتى لم تنزل عندنا ، بقيت وصمة ذلك علينا وعلى ولدنا من بعدهنا ما بقى الزمان » .

فاستحسن كلامها ، وأعجبها عقلها . وعدل برأس دابته إلى التركية فنزل فيها ، ونزل جميع العسكر حوله ، ورجعت إلى ولدنا فأخبرته بها جرى بينها وبين المأمون ، فسر بذلك ، وأحضر إليه وكلاء مطبخ المأمون وطباخيه ، وسألهم عن قوانين مطبخه في كل يوم من الميسوان والدجاج والبداء والخراف والفراريج والأوز . وما يحتاج إليه من التوابل ، ورسمه في الحلوات والطيب والشمع ، وسائر ما جرت به عادته من صغير وكبير ، واستدعي كتاب جيش العسكر وقرر معهم ما يحتاج إليه الرجال من الوطاء والأبقار والتعليق . . . .

بالفت المرأة وابنها في إكرام المأمون وجيشه ، وعندما استعد الخليفة للرحيل ، أحضرت المرأة عشر صواني منطة ، فلما كشفت بين يديه ، وجد في كل صينية بها ألف دينار جميعها من نقد واحد . فسأل المأمون عنها إذا كانت قد حثرت على كثر فضحتك . وقالت بعد أن أخذت بيدها قطعة طين : قل لأمير المؤمنين هذا من الطين . ومن عدلك أ . « أعجب الخليفة بجوانبها ، فكتب لها إقطاعاً قيمته مائتا فدان ، فقبلت ذلك وزرعتها ، وأقامت قنطرة عرفت باسمها .

أما أشهر السدعوات في الإسلام ثلاثة ، منها دعوة أقامها المعتز ، وعرض زبيدة مع الرشيد ، وعرض المأمون ببوران .

### الأيام المشهودة والأوقات المعهودة

في هذا الباب يقدم المؤلف وصفاً لمظاهر احتفالات مختلفة فمن الأيام المشهودة يوم أن وصل رسولاً ملك الروم إلى الخليفة المقتدر بالله في سنة خمس وثلاثين لطلب الفداء ، اصطف الجيش كله من مكان نزولهما إلى القصر . كانت فرصة لاستعراض قوة الدولة ،

فهذا الرسولان سيعودان ليخبرا بها شاهداته ، ويورد المؤلف وصفاً دقيقاً يستغرق عشر صفحات لما تم عرضه ، مثل ذلك ما حدث مع رسول ملك الصين عند وصولهم إلى فرغانة ، وبعد العرض المذهل الذي شاهدوه ، منحوا هدايا ثمينة جداً ، وعند انصرافهم لاحظوا أنها بدون خفيف يخفيهم ، فقيل لهم :

ـ في ولادة الأمير السيد لا يحتاج إلى خفيف .

فتساءلوا .

ـ أنصرف إذن ؟

قيل لهم

ـ ذلك إليكم .. إن جلستم أبداً ، فهذه الخبراء لكم ، وإن خرجتم حيثما نزلتم يقام بنزلكم إلى أن تخرجوا من ولادة الإسلام .

فخرجوا ومعهم العدد الموكل بهم ، حتى خرجوا من فرغانة ، فكان هذا سبب إسلام ملك الصين .

\* \* \*

وفي معرض ذكره للتحف النادرة ، يذكر المؤلف « الدرة اليتيمة » ، ويقول إنها سميت باليتيمة لأنها لم يوجد لها أخت في الدنيا ولا قرينة ، وكانت قد بيعت إلى هارون الرشيد .

أما « الفص الخافر » فكان من ياقوت أحمر ، وزنه سبعة دراهم . وقد انتقل من العباسين إلى الفاطميين . ثم يذكر أشهر التراثات التي تركها أصحابها بعد موتها . ويفرد بباب للمغامن في الفتوحات ، وباباً آخر لذكر الكنوز والسفائن القديمة ، وفي كل باب تطالعنا تفاصيل دقيقة لذكر الشروط ، والتحف التي صيغت من أنفس المعادن ، وأوصافها العجيبة ، ويبقى تساؤل يثيره هذا الوصف الذي يفصلنا عن صاحبه ألف سنة .

« أين هي الدرة اليتيمة الآن ؟

أين ثواب ملوك الروم . والتي كان الواحد منها مرصقاً بثلاثين ألف ليرة ، أين .. أين ؟

لا يمكن الإجابة على هذا السؤال ، إلا بذكر قوله الكريم :

« كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .



## الأنديق في المنجنيق

فن رمي الحجارة في التراث الحربي العربي سقى السيف  
بدماء الدجاج والزرنيخ، ورمي الأعداء بالحيات

من ٩

من هو؟

هل اسمه « ابن أربنغا الزرد كاش »؟ أو « أربنغا الزرد كاش »؟ من هو مؤلف هذا المخطوط النادر ، الذي وصل إلى عصرنا ، ويستقر الآن في مكتبة أحد الثالث باستانبول؟

الدكتور إحسان الهندي حقق المخطوط الذي نشر في حلب منذ ثلاثة أعوام ، لم يقطع ، وإنما رجح ، فالمصادر المعاصرة مثل « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغري بردي ، و « الضوء اللامع في أمياب القرن التاسع » للسخاوي ، و « السلوك » للمقريري ، لا تقدنا بمعلومات وافية عن المؤلف الذي طمس اسمه من عنوان المخطوط ، وبقى لنا اسم والله « أربنغا الزرد كاش » ، و « أربنغا » اسم يطالعنا كثيراً في المصادر المملوكية ، « بغا » تعنى الفحل ، أما الزَّدْر كاش فهو اسم مركب أجمعى الأصل ، ومعناه صانع الزرد .

على أي حال ..

وصلنا مؤلف أربنغا العلمي ، والذي يبرز لنا الفن الحربي العربي ، وأصوله الهندسية ، وما كتبه أربنغا في بداية القرن التاسع الهجري عصبة موروث علمي خاص بالعرب ، كان المنجنيق بمثابة المدفع في الجيوش القديمة ، كان يقذف بالحجارة الثقيلة ، ويرمي النطف ، وسلام العقارب والثعابين ، المخطوط قصير ، ولكنه مزود بلوحات تفصيلية ، هندسية عديدة ، وقبل الخوض في علم رمي الحجارة بالمنجنيق ، نطالع المقدمة التي صيغت من عبق الزمن القديم .

\* \* \*

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ تَوْفِيقٍ

الحمد لله مدبِّر الوجود ، ومؤيد الجنود ، بارى النسم ومودعهم أسرار الحكم ، مبدع الموجودات بمحكمته ومتقناها ببداع صنعته ، الواحد القهار ، العزيز الجبار ، ذى البأس الشديد الفعال لما يريد ..

والصلة [الصلة] على سيدنا محمد الذى بعثه الله وجيش الكفر منشور بالعصايب ، وغسله محلولك الغياب . فشمر عن ساق اجتهاده . وجاحد فى سبيل الله حق جهاده ، حتى أشرق بدر الإسلام ، وانجلت غياب ذلك الظلام ، وسطعت أنوار الإيمان ، وثبتت منه القواعد والأركان ، وعلى أصحابه وأهل بيته الأطهار ، وجميع المهاجرين والأنصار ، ما لاح ضوء الصباح ولم ينفع برق سلاح .

.. التناحية تدل على حرف صاحبها العسكرية ، وتؤمن مشيرة إلى موضوع المؤلف ، وتقليل الافتتاحية هذا تخلت عنه الكتابات العربية الحديثة ، مع أنه من تقاليد التشر العربي ، وفي معايشتي للتراث لا أذكر أنسى طالعت افتتاحية تشبه الأخرى ، لا في المفردات ، ولا في الصياغة ، مع أن المضمون متقارب ، أو يكاد يكون واحداً التسليم لله ، والصلة على رسوله . تتفاوت كل منها في القصر أو الطول ، بضعة سطور كما نجد عند صاحبنا هذا ، أو صفحات عديدة كما نلقي عند الشيخ الأكبر عيسى الدين بن عربى في «فتواهاته المكية» ، هذه الافتتاحيات أشبهها بالداخل المؤدية في العمارة الإسلامية ، مبانى مدنية كانت ، أو مساجد ، أو منشآت دينية كالخوانق والأسبلة ، والأضرحة .

لن ننأى عن النص الذى نعرض له ، فالموضوع طويل ، وما يقال كثير ولكن قبل الخوض في النص لرجع إلى مقدمة المحقق ، فلقد نسى عصرنا المنجنيق وصار أثراً محوا . بعد أن كان واقعاً يثير الرهبة . وهذا حكم الأشياء ..

\* \* \*

### العروض

يدلل الدكتور إحسان الهندي على الأصل العربي للمنجنيق ، ويؤكد أن العرب عرفوا هذا السلاح من العصر البخاهمي . فهناك أكثر من مصدر تاريخي يؤكد أن جزيمة الأبرش ، مؤسس دولة التتارخين (١٣٨ - ٢٦٨ م) كان أول من استخدم المنجنيق من العرب قبل الإسلام ، كما تؤكد دراسة حديثة للدكتور صلاح العبيدي أن عرب العراق عرفوا هذا السلاح منذ القدم . كما ورد في تاريخ الطبرى أن عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلامة لم يشهدما مع الرسول وقعة

حيث كانا يتعلمان صناعة الدبابات والمجانيف في بلدة «جرش». وهذا يدل على أن العرب الغساسنة الذين كانوا يقطنون في هذه المدينة وما جاورها منذ عهود ما قبل الإسلام قد عرّفوا هذا السلاح وبرعوا في استخدامه. كما ذكر صاحب «البداية والنهاية» أن المسلمين استخدمو المجنحيف لأول مرة في حصار الطائف، أما الخليفة عمر بن الخطاب فقد عنى أفضل عنایة باستخدام المجنحيف حتى أصبح لدى جيش المسلمين الذي فتح بلاد فارس عشرون منها استخدماها في فتح مدينة بير سير (المدائن). وطبقاً لرواية الواقدي نجد أن جيش ابن الوليد استخدم السلاح نفسه، وفي العصر الأموي اهتم الخلفاء بتطويره، وعندما حاصر الحجاج الثقفي عبد الله بن الزبير مكة، قام بنصب مجنحيف ضخم على جبل قبيس، وينسب إليه أيضاً أنه أمر بصناعة مجنحيف ضخم يحتاج إلى خمسة رجل لتحريكه وكان يسمى «العروس»، ويقال إنه سلمه إلى محمد بن القاسم الثقفي لما وجهه لفتح السندي، واستخدمه أيضاً في فتح مدينة الديبل (كراتشى حالياً) وغيرها من مدن السندي سنة 89هـ، ويقال إن كبير الرماة الموكل بالرمي على العروس، كان اسمه «جوية» وأنه له مهاراته كان يرمى على صارية علم بقطعة الحجر فيمزقها في الرمية الثالثة على الأكثر.

مع بداية القرن الثاني المجري أصبح المجنح شائعاً خاصة في حصار المدن ، ويروى ابن الأثير أن مروان بن محمد حاصر سعيد بن هشام وأنصاره في مدينة حمص لمدة عشرة أشهر ، ليلاً ونهاراً ، ونصب عليهم نيفاً وثمانين مجنحيناً . وقد نقل معهم أمويو الأندلس هذا السلاح إلى هناك . في هذه الفترة شاع استخدام المجنح عند العرب ، ويدلّ على ذلك في الشعر .

### یقینیں جو:

يلقى السلازل أقوام دلفت لهم بالتجنيق وصَّاكاً بالملاطيس لاطس، هـ، الحجارة التي يرميها المنجنيق.

فـ جـيـوشـ العـيـاسـيـنـ أـصـبـعـ سـلاـحـاـ رـئـيـسـيـاـ .ـ وـأـصـبـعـ لـهـ صـنـفـ خـاصـ ،ـ هـوـ (ـالـهـنـدـسـيـنـ)ـ يـرـأـسـهـ قـائـدـ يـلـقـبـ بـالـمـهـنـجـنـيـقـ ،ـ وـخـلـالـ الـفـتـنـةـ بـيـنـ الـأـمـيـنـ وـالـمـأـمـوـنـ عـامـ ١٩٧ـ مـ (ـ٨١٣ـ مـ)ـ اـسـتـخـدـمـ الـمـهـنـجـنـيـقـ بـكـثـرـةـ .ـ

في العصر المملوكي ، جرى اهتمام عام بالصناعة الحربية ، وبالتجنيد خاصة ، كان هذا يتم في خزائن السلاح المسماة « الزرذ دخاناه » يصفها المؤرخ ابن تغري بردى بقوله : « وكانت تحوى أشياء كثيرة محملة على العجل . تجبرها الأبقار ، وعليها آلات المصادر ، ومن مكاحل النفط الكبار ، ومدافع النفط المهولة والمناجيق العظيمة ، ونحو ذلك . . . » .

ويصف لنا أبو الفداء في «المختصر في تاريخ البشر» المنجنيق الذي استخدمه المسلمون في حصار الصليبيين في عكا - ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) يقول :

«أمر السلطان الملك الأشرف بحجر المنجنيق وألات الحصار من جميع الخصون إليها ، فاجتمع على عكا من المنجنيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها ». أما المؤرخ ابن تغري بردي فيصف حصار قلعة صلخد - ٨١٢ هـ .

«ثم طلب السلطان مكاحل النفط والمدافع من قلعة الصبية وصفد ودمشق ونصبها حول القلعة ، وكان فيها ما يرمي بحجر رزنه ستون رطلاً شامياً ، وتمادي الحصار ليلاً ونهاراً حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتي جل ، فلما تكامل نصبه ، لم يبق إلا أن يرمي بحجره ، وزنة حجره تسعون رطلاً بالدمشقي - يساوي ٢٥٠٠ جرام -

وقبل الانتقال مع مقدمة المحقق إلى أنواع المنجنيق ، نعود إلى خطوط ابن أرنيخا الزرد كاشف .

\* \* \*

### منكلي بغا

.. من تقاليد المؤلفات القديمة ، أن يهدى المؤلف كتابه إلى صاحب له ، أو إلى سلطان . أو أمير ، له به وثيق صلة ، أو تلقى منه منه ، نجد هذا في معظم المؤلفات العربية . وغريب أننا لا نعرف على وجه الدقة اسم صاحبنا ، أو نحيط بحياته ولكننا نعرف شخصية من أهدى إليه كتابه ، لتصفح إلى النص :

«أتابك العساكر الإسلامية ، مؤيد الله المحمدية ، هو المقر الأشرف . السيفي ، شمس العلا منكلي بغا الشمسي . ما زالت الأقدار قاصية بخلاف أعدائه ، متکفلة بیاسعاد أحبابه وأرداه ، من أخذ من كل فن بأوفر نصيب ، وأضخم كل بعيد المتناول وهو منه قریب ، وجمع بين فضیلت الحکم والحكیم ، والسيف والقلم ، ورأیت أعظم مساعدیه ، وأکثر دواعیه إلى إمعان النظر فيما يحفظ نظام المالک ، وتنجلي به المطوب ، المحوالک ، من أنواع جيد الحروب ورمي أعداء الدين بمصممات الخطوب والتوصل إلى أخذ معاقلهم ، والخصوص ، وزلزلة أركانهم ، وهنک سرهم المصون ». .

والأمير منكلي بغا الذي أهدى إليه المؤلف كتابه ، فهو أتابك العساکر الإسلامية ، منكلي بغا ، الصالحي ، الظاهر برقوق ، ويعرف بالعجمي ، صیره الناصر ابن أستاذہ ، وأرسله رسولاً إلى تیمور لنك سنة مسنه شمس وشانیانة (هجرية) ، ثم رجع وتولی الحسبة في زمن السلطان المؤید شیعی ، تزوج من الأميرة خوند ناطمة ابنة الملك أشرف شعبان ، ثم أصبح أتابك - قائد

- للجيوش عام ٨٣٠ هجرية ، ومات عام ٨٣٦ هجرية ، وهذا يعني أن ابن اربغا الزرد كاش قد وضع مؤلفه قبل عام ٨٣٠ هجرية .

بعد أن يفرغ المؤلف من الإهداء ، يذكر مضمون الكتاب ، فيقول إنه وضعه في أنواع التجانيف ، والزيارات (نوع من منجانيف الشهاد - والسلام التي تستخدم في حصار القلاع ، والزحافات التي يجلس فيها المحاربون بينما يقوم وفاهم بدخولها باتجاه أسوار القلعة المحاصرة ، والمسحور التي تتم لعبور الماء ، ورمي المهاجم (المدفع) . والقوارير المعية بالنفط .

« وما شاكل ذلك من مختارات التدابير ، وجعلته كتاباً ورتبته فصولاً وأبواباً ، وخدمت به الحضرة العالية ، ما زالت سعودها متواتلة ، ولست في ذلك إلا كمأهيل ..

كالبدر نطره السحاب ومساله فضل عليه لأنس من مائه

ثم ينتقل ابن اربغا إلى وصف التجانيف ، وأسلوب الرمي به :

« .. إذا أردت أن ترمي بعيداً فإنك تضع الحجر في التجانيف وترمى به إلى مطلوبك ، فإن أردت أبعد منه فإنك تدهن في الثانية أصبع التجانيف بالزيت ، [دهن أصبع التجانيف بالزيت يجعل الزلاقه أسهل ويزيد بالثالث من مدى الرمي] ، فإن رميت به ، وبلغت ما تطلب ، وأردت أبعد من ذلك فإنك تضع بين حلقة سواعد المقلع ، وبين الأصبع الحديد قطعة من المشاق (ما يبقى من الكتان بعد المشق) وترمى به ، فإن بلغت مقصودك فحسن ، وإن أردت أبعد منه فإنك تدخل في أصبع التجانيف كعكة من حجل وترمى به فإنك تبلغ مقصودك ، وإن أردت أبعد منه فإنك تضع فيه كعكة أخرى فإنك تبلغ الذي تطلب إله إن شاء الله تعالى ، وإن أردت أبعد منه تضع كعكة أخرى ، تفعل ذلك ثلاث مرات فإنك تبلغ الذي تطلب .

ويمضى ابن اربغا في تفصيل طرق الرمي إلى مسافات أبعد ، والعمالون بالفن العسكري الحديث ، سيجدون أن القواعد التي وصفها تماثل في خطوطها العريضة نفس قواعد إطلاق الصواريف الحديثة مع مراعاة التعقيد وفارق العلم والمعصر ، ينطبق هذا على ما قاله أيضاً بخصوص الرمي عن قرب ..

« وإن أردت القرب ، فإنك تضع الحجر وترمى به إلى حيث تريده ، فإن أردت أقرب من ذلك فإنك تدهن ثلث أصبع التجانيف وترمى به ، وإن أردت أقرب منه فإنك تدهن ثلثي الأصبع وترمى فإنك تبلغ المقصود .

وإن أردت أقرب من ذلك فادهن جميع الأصبع وترمى فإنك تبلغ ما تريده ، وإن أردت أقرب منه فإنك تشيل رأس المدرب (يتصح المؤلف هنا برفع التجانيف إلى أعلى ، مما يزيد في

الحناء زاوية الرمى وهذا مما ينقص المدى حسب مبدأ الرمى بالأسلحة المنحنية مثل المارشحالياً) . إلى فوق ذراع واحد فإن أردت أقرب منه فإنك تشيله ذراعاً آخر وترمى فإنك تبلغ ما تريده ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك توسيع المزريب وترمى به ، وإن أردت أقرب من ذلك فإنك تزعج جسر الدولاب وترمى به فإنك تبلغ المقصود ، وإن أردت أقرب منه فإنك تغير الساعد بأهلاط منه وإن أردت أقرب منه فإنك تزيد الحجر رطلاً واحداً وترمى به فإنك تبلغ المقصود إن شاء الله تعالى . . . .

ويمضي ابن ابيغا في شرح وسائل تقريب السرمي ، والضرب على مسافات قليلة ، ولا يفوته التأكيد بعد شرح كل خطوة أن تتفيد ما قاله يبلغ صاحبه المقصود بإذن الله تعالى . وفي نهاية شرحه يقول .

« وهذا الذي ذكرناه تمام العمل بالمنجنيق الذي يسمى قرابة بغرى . . . . وقرابة بغرى ، نوع خاص من المنجنيق ، خاص برمي الحجارة ، ويعمل طبقاً لمبدأ التقليل المعاكس ، وهو النوع الذي ركز عليه ابن ابيغا في بحثه . سواء فيها يتعلق بالنص ، أو الرسوم التفصيلية ، ولا يفوته أن يشرح تركيبه في نهاية القسم الأول من المخطوط . . . .

« ولابد من ذكر وضع هذا المنجنيق فنقول كيفية وضعه (تركيبه) ، حتى يصير الرامي به مستائساً فتشكر ما يحتاج إليه من الأنchas ، وهي ثمان وعشرون قطعة من الخشب وفيها ما يزيد وما ينقص ، فإذا أردت وضعه فتتظر إلى ما قد وصفته من الأنchas في هذا الكتاب فتعمل أمثالها وأعدادها والصناديق المرسوم فيه فلا تخرب عن عمله وانظر أيضاً إلى طول النشاب وما هو عليه ، فاعمل هيئته وسفنه وأعلاه وبخوش (ثقوب) الخنزيرات (الجزء من الدولاب الذي يدخل فيه عمود السهم) وغير ذلك من الأعمال ، ثم جمع المنجنيق وما يحتاج إليه . . . .

وهنا نعود إلى دراسة الدكتور سامي الدهان لنقف منها على أنواع المنجنيق .

\* \* \*

### من الحجر إلى الثعابين

المنجنيق بشكل عام عبارة عن عدد من القواصم الخشبية ، تتصل أعلاها بعارضة يركب عليها عمود خشبي طويلاً يقال له « السهم » ، يكون قصيراً من جهة ، وطويلاً من جهة أخرى ، ويحمل هذا السهم من جهة القصيرة ثقلاً معاكساً يسمى « الصندوق » إذا كان كتلة واحدة و « القواعد » إذا كان جملة أقسام ، كما يحمل من جهة الطولية « الكفة » التي تحمل المقدوف سواء كان هذا الأخير حجراً أو برميلاً نفط ، ويتصال « السهم » من جهة الطولية

بحبل من الشعر يسمى «ذيل» ، يمكن شده بواسطة «دولاب» ، كان يطلق عليه أحياناً اسم القوس لأنه كان يتصل بقوس يزيد امتحانه كلما دار الدولاب في حالة الشد .

كانت المنجانيق أنواعاً ، فمنها ، عجانيق قذف الحجارة ، وهي أشد الآلات الحربية القديمة تأثيراً ، لا سيما في الحصار ، ويتم الرمي عن طريق وضع قطعة الحجر في الكفة التي يحملها السهم ، وكلما زاد اتساع الكفة كلما أمكن رمي قطع أكبر من الحجارة .

أما عجانيق قذف السهام ، وتسمى أيضاً بقسى الزيار ، فكانت عبارة عن أقواس كبيرة ترمي سهاماً هائلة الحجم يتراوح طولها بين ٦٠ و ١٨٠ سم ، وتنزل من اثنين إلى ثلاثة كيلو جرامات ، ويصف ابن خلدون في تاريخه قوساً ضخماً من قسى الزيار ، صنع عام ١٣٩٨ م، ويقول إنه كان يلزم أحد عشر بغلأ لنقله ، كانت هناك أيضاً عجانيق قذف النقط وكرات اللهب ، والقنابل ، وكانت أنواعاً منها قنابل النحاس ، والزجاج ، والغازات ، وتلك الأخيرة عرف منها العرب أنواعاً ، فكانت منها القنابل المضيئة ، وكانوا يصنعونها على شكل كرات من الكبريت الأسود ، والصلب والزجاج ، وكانوا إذا رمياً هذه الكرات بعد إشعال النار فيها تبقى مشتعلة ، سواء أثناء إطلاقها أو بعد سقوطها ولا ينفع الماء في إطفائها .

أما القنابل الخالقة فكانتوا يصنعونها من الكبريت والزجاج والأفيون والبيج الأزرق ، وكانوا يدخلونها على مهب الريح حتى يفسد الهواء الذي يستنشقه جنود العدو ، ابن ابيها يخصص قسماً لوصف تركيب هذه القنابل ، ويسمى كلاً منها قدرة ، ويورد رسمياً تفصيلات لكل منها ، يصف حسماً وأربعين طريقة لصناعة هذه القنابل أو القدرة بلغة عصره ، منها على سبيل المثال «قدر خاسفة مضرس» . وهذا نوع من القنابل التي تفجر ذاتياً . يقول في طريقة العمل : «يأخذ قدر مدور فخار ، يحط فيه فتاتيش (فتاش أي سهم ناري) ، وصفاربخ (صواريخ) في سفل كل فتاش ضرس وهو حذ (أي حارق) وفي سفل كل فتاش ثلاثة كواكب (أجهزة إشعال) وعملاً الصواريخ والفتاتيش ، وتملاً معهم دواحد (كرات صغيرة من المعدن) وتختتم رأس القدرة ، وتنزل في رأس القدرة إكريخ عراقي (الأكريخ هو جهاز لإشعال القدرة) . . . .

طبعاً يدل بوضوح صعوبة النص ، والمصطلحات المستخدمة ، من هنا يبرز أيضاً مدى جهد المحقق في تفسير معانيه ، وفيها يبل النص الخاص بتركيب قنابل الغازات .

«تأخذ ستين قنا ، وستين عنزروت (نبات يستخرج منه صمغ) ، وستين شامي (نبات غير معروف) وستين وشق (صمغ يعطي حرارة للمكان الذي يلتصق عليه يسميه عوام الشام ويشة) ، وستين حصالبان ، وستين علك صنوبر ، وستين حلقيت (أنواع من الصمغ) ،

وتحمله ويطعم بالنفظ ، وبالبياض (مستحضر سريع الاشتعال) وتقدم على الرخامة ، وينعلف باربعين سندروس خرمش ، وتأخذ حافر الفرس ، وتبعده ويعمله ، وتأخذ من برادته مایة وخمسين ، وأفيون خمسة وعشرين ، ومن الزرينج خمسين ، ومن البننج الأزرق خمسين ، وينعلف الكل في المزاقات ، على الرخامات ، وتبين القدر ، وتنزل الكل في القدرة .. .

أما قبيلة الجعر فيصفها كعباً يلي :

«يأخذ قدرة مدوره ، ويحيط فيه كلس مطفي ، ويسد رأس القدرة ويكسره في الثقب . وأما في الشواف (فوهات المراقبة في القلاع) يطلع غبار الكلس إلى مناخيرهم ، وإلى أعينهم ، ما يقشعون (لا يميزون) القتال ، فتنزل ويسكمهم قبض اليد (بدون مقاومة)».

وأغرب ما يصفه قبيلة الحبات والشاعين :

«تأخذ القدر الفخار ، أكبر ما يكون ، وتحط فيها حبات (أفاغى) وأحاسها (نوع من الزواحف) ونوashiد (نوع من الأفاعى ذات الصلال) ، وتسقطها في الثقوب في المركب ، فـأى من لسعته قتله ، والله أعلم . . . .

كانوا يرمون قنابل الأنابيب والعقارب هذه على مراكب العدو ، أو القلاع المحاصرة ، والأماكن المحدودة المساحة ، فإذا قذفت وتهشم خرجت الأنابيب ، والعقارب ، فتؤذى جنود العدو ، أو تثير فيهم الذعر ، وكان هذا الرمي ، لا يسم إلا على أهداف محاصرة ، أو سفن العدو في عرض البحر ، فـأى من لسعته قتله والله أعلم .

• • •

القسم الأخير من المخطوط شخص لسقاية السيوف ، أى تقعها في سائل معين بعد تسخينها على النار حتى تكون أشد حدة وأكثر قدرة على القطع ، ويدرك ابن ابيها مواد عديدة لسقى السيوف منها دم الفراخ ، وقشر الرمان اليابس ، وأكسيد الحديد ، وعرق الفرس والخيار وقرن الأيل المطحون .

أما صميم الصنوبر ، والمصطفى واللبان ، وبذر الكتان ، وبرادة الحديد ، فمواد قمع صنادل السيف .

أما السقاية الشريفة ، أي المعتبرة ، عالية المستوى ، فمن المواد المستخدمة فيها ، الجير ، وملح البول أي ما يتبقى منه بعد تبخره ، ومواد كيماوية أخرى . وتبلن فيها السيف ، وتترك ملدة ثلاثة أيام ، بعد ذلك :

«اضرب به عمود الحدید ، زنته عشرة أرطال فإنه يقطعة إن شاء الله تعالى» .

ولكى يكتسى السيف لوناً أحمر ، يوضع في مساد مستخرجة من كبرياتات الحديد ، وتوضع

هذه المواد في جراب من الجلد يُدخل فيه السيف ويوضع تحت الثبن ، بعد مدة يخرج أحمر قاطعاً .

ولكى يصبح لونه أصفر تونخل مواد من خشب الورس الذى ينبت في اليمن أو الحبشة ، والعصر ، ويوضع السيف تحت ثقل بعد دهانه .

« ثم يخرج فإنه يكون ما أردت إن شاء الله تعالى ، والله أعلم . . . » .  
« والله أعلم ، هكذا يختتم ابن أرنيغا الزركاش خطوطه أو مؤلفه النادر .

\* \* \*

وضع ابن أرنيغا حوالي مائة رسم توضيحي ، لأدوات المنجنيق ، وطرق استخدامه ، وأنواعه ، وأساليب الحصار ، ولتركيب القنابل ، وسقاية السيف . قام الدكتور سامي الدهان بشرحها ، وتوضيحي غواصتها ، هكذا يلقى هذا المؤلف النادر الضوء على جوانب هامة من أصول الفن الحربي العربى .

النص صعب ، إلا أن التحقيق العلمي الممتاز الذى . قام به المحقق ، إضافة إلى شروحه وتوضيحياته ، جعلته ميسراً ، متاحاً ، ومقررًة بسهولة ، ومن أهم ما تضمنه الفهارس ، بخاصة ذلك الجزء الخاص بأهم المؤلفات الحربية والعسكرية في التراث العربى ، معظمها مازال خطوطاً ، منتشرًا في مكتبات العالم المختلفة .

ويبقى لنا بعد تقديم هذا المخطوط في فن الحرب عند العرب . أن نردد مع مؤلفه في ختام عرضينا ما ردد هو في مفتاح مؤلفه :

وضع العبد الفقير المعترف بذنبه ، الراجى عفو ربه ابن أرنيغا الزركاش .

\* \* \*

الأنيق في المنجنيق

لابن أرنيغا الزركاش

دراسة وتحقيق : الدكتور إحسان هندي . صدر عن  
جامعة حلب (معهد التراث العلمي العربى)  
بالتعاون مع معهد المخطوطات العربية (المنظمة  
العربية للتربية والعلوم والثقافة) .

سلسلة مصادر ودراسات في تاريخ التكنولوجيا  
العربية - ٤ -

٢٨٨ صفحة - قطع كبير

## ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل  
الشعالي النيسابوري [٤٣٠ - ٣٥٠ هـ]

للشعالي ركن بأكمله في المكتبة العربية .

عاش عمراً مديدةً ، تجاوز الشهرين ، وكما طال عمره ، فقد تعددت مؤلفاته ، إذ تعددت الشهرين مصنفاً ، كلها حول الأدب واللغة والتاريخ ، دون فيها ملامح عصره ، ومعارفه ، ورسم صورة واضحة المعالم لأعلامه وكتابه وشعرائه ، وصلنا معظمها ، مثل بيضة الدهر في شعراء العصر ، وفقه اللغة ، وسر العربية ، والتعریض والکنایة ، والبهج ، والتمثيل والمحاشرة ، وخاص الخاص ، والإعجاز والإیجاز ، والشواذر والتعليق ، والمطريات المرقصات وغيرها .

ولد في نيسابور سنة خمسين وثلاثين وأربعين ، وتوفي بها سنة ثلاثين وأربعين ، تُسب إلى الشعالي لأنّه عمل في حيّاطة جلودها ، المعلومات عن حياته شحيحة ، ضئيلة ، وما جاء عنه في كتب التراجم سطور عامة لا تلقي ضمّةً كافيةً ، ولا تشفى غليلاً .  
يقول ابن خلkan في موسوعة « وفيات الأعيان » .

« كان في وقته داعي ثلّات العلم ، وجامع أشئرات الشر والنظم ، رأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحکم أقرانه ، ساد ذكره سير المثل ، وضررت إليه آباط الإبل ، وطاعت دواوينه في المشارق والمغارب . . . » .

أما تلميذه وريبيه علن بن الحسن البخارذى فلم يزد على أن قال في حقه :  
« جاحظ نيسابور ، وزينة الأحقارب والدهور ، لم تر العيون مثله ، ولا أنكرت الأعيان فضله ، وكيف يُنكر وهو المُنْعَنْ يُمْهَد بكل لسان ، أو يُنْسَى وهو الشمس لا تخفي بكل مكان ، وكانت وأنا بعد فريخ أزغب ، في الاستضاءة بنوره أرطب . . . » .

أما المصرى صاحب كتاب زهر الأدب ، فقال عنه :

«أبو منصور هذا يعيش إلى وقتنا هذا ، وهو فريد دهره وفريغ عصره ، ونبيح وحده .  
وله مصنفات في العلم والأدب ، تشهد له بأعلى الرتب .

هكذا ، مجرد أوصاف عامة ، لكن ما من تفاصيل عن أطوار حياته ، أو الأعمال التي مارسها ، أو البلاد التي رحل إليها ، كان نائراً فدراً ، وشاعراً رقيقاً ومن كتبه التي وصلتنا وطبعت أكثر من مرة ، كتاب «ثمار القلوب في المضاف والنسب » حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، وصدر في سلسلة ذخائر العرب عن دار المعارف بمصر ، كتاب ضخم يقع في ثمانين صفحة ، خصصه لذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتمثل بها ، وبكثير استخدامها في اللغة ، مثل القول ، غراب نوح ، ونار إبراهيم ، وذئب يوسف ، ومثل قولهم ، قرطاً ماريّة ، وتفاح الشام ، وورود جور .. ، قسم الكتاب إلى واحد وستين باباً ، الأبواب الخمسة الأولى يمكن اعتبارها مفتاحاً طابع ديني . الأول يذكر فيه ما يُضاف إلى اسم الله تعالى ، مثل القول «بيت الله» ، والمقصود الكعبة بيت الله الذي جعله الله مثابة للناس ، وقبلة لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكعبة لأمته ، ويقول إن العرب في الجاهلية كانت لا تبني بنياناً مرئياً تعظيّها للكعبة ، ثم يذكر خصائصه ، ومنها أنه يواد غير ذي ذرع ولا شجر ، ويتشتت فيه الذئب عن يطارده ، ولا ينزله الخام إلا إذا كان عليه ، وإذا حاذه الطير انقسم إلى فريقين ، ثم يقول الشعالي «ومن يستطيع الإحاطة بفضائل بيت الله وخصائصه ..» .

\* \* \*

### الأنبياء

يُقال «سفينة نوح» ، تضرب مثلاً للشىء الجامع ، لأن سوها جل فيها من كل زوجين الذين ، ويُقال أيضاً «غراب نوح» يضرب مثلاً للرسول الذي لا يعود ، وكأن أهل البصرة يقولون : فلان لا يرجع حتى يرجع غراب نوح . ويُقال عمر نوح يُضرب مثلاً في الطول ، وينسب إلى سيدنا إبراهيم ، «مقام إبراهيم» كنایة عن كل مكان شريف ، و «نار إبراهيم» للبرد والسلامة . أما «رقباً يوسف» فيُضرب بها المثل للرؤبة الصحيحة ، الصادقة ، وذئب يوسف يُقال لمن يُؤمن بذنب جناء غيره وهو بريء ، ويُقال «عصا موسى» ، يورد الشعالي قول الجاحظ : «من يستطيع أن يدعى الإحاطة بما في قول موسى (ولي فيها مأرب أخرى) إلا بالتقريب وذكر ما خطر على البال ! ولكنني سأذكر جملة تدخل في باب الحاجة إلى العصا ، فمنها ، أنها تحمل للحياة والعمر والذئب والفحول المائج ويتوكل عليها الشيخ الدالف ،

والسيم المدنس ، والأقطع الرجل ، والأعوج ، وتنوب للأعمى عن قاده .. الخ ، ومن ضرب المثل بعضاً موسى فأحسن وأبدع ابن الرومي حيث قال :

ضررت به بحر التدى فتضحكها  
أييحت لى منه جداول سُئلها  
وابسنت عيوناً في الحجارة سُفها  
أن طرداً المقياس أن يسمحها  
ويقول الشعالي إن ابن الرومي أبدع أذبه مدحه بعضاً موسى التي ضرب بها البحر  
فييس ، ذلك أنه مدح جواداً بفخل ، فقال ، سأمدح بخيلاً لعله يجود . ويقال «خلبة  
الحضر » إذا كان الرجل جواداً ، جواداً للأفاق ، كما قال أبو تمام عن نفسه :  
خلبة الخضر من يأوى إلى وطن  
في بلدة فظهور العيسى أو طائى  
ثم قال :

بالشام قومي وبغداد الموى وأنا  
وما أظن النوى ترضى بما صنعت  
وما ينسب إلى الأنبياء « صبر أيوب » . و « حوت يونس » و « نعمة داود » و « خاتم سليمان  
» و « طب عيسى » . و « بردة النبي » التي يضرب بها المثل في اليل ، وهي التي خلعها الرسول  
ال الكريم وكساها كعب بن زهير بعد أن أنشده قصيدة المشهورة .

\* \* \*

### القرون الأولى

والمقصود بها الأزمنة الثانية ، المنقرضة ، يقال « أحلام عاد » ، كانت العرب تتصور أن قوم عاد عمالقة الأجسام ، وبالتالي كانت أحلامهم ضخمة كأجسامهم أما « ريح عاد » فتضرب مثلاً للإهلاك والإخفاء ، أما « صاعقة ثمود » فتضرب أيضاً مثلاً في الإيادة ، ويقال « صرح هامان » للأبنية الشاهقة ، و « كنوز قارون » للأموال والثروات النفيسة ، و « نوم أصحاب الكهف » للنوم الطويل ، ومن أقوال العرب « جوف حمار » كان رجلاً من عاد ، يقال له حمار بن موياس ، وجوفه واد له طويل عريض ، لم يكن هناك انحصار منه وفيه من كل الشهار ، فخرج بنوه يتتصيدون ، فأصابتهم صاعقة فهلكوا ، فكفر ، وقال : لا أعبد من فعل هذا بيني ودعا قومه إلى الكفر فمن عصاه قتله ، فأهللته الله ، وخراب واديه فضرب به المثل في الخراب والخلاء .

وَمَا يُضَرِّبُ بِهِ الْمُشْلُ « ذَكَاءُ إِيَّاسٍ ». كَانَ قَاضِيَاً شَدِيدَ الْذِكَاءِ ، كَانَ فِي صَفَرٍ ضَعِيفًا ، ضَئِيلًا ، وَكَانَ لَهُ أَخْ أَشَدَّ مِنْهُ حَرْكَةً وَأَقْوَى ، وَكَانَ أَبُوهُمَا يَقْدِمُهُ عَلَى إِيَّاسٍ ، فَقَالَ لَهُ إِيَّاسٍ يَوْمًا : يَا أَبَتِ ، أَنْتَ تَقْدُمُ أَخِي عَلَى وَسَاحِرِيْبِ لِكَ مَثْلِهِ وَمُثْلِي ، فَهُوَ مُثْلُ الْفَرْوَجِ حِينَ تَنْفَلُقُ عَنْهُ الْبَيْضَةُ يَخْرُجُ كَاسِيَا كَافِيَا نَفْسَهُ فَيَلْقَطُ وَيَسْتَخْفِفُ بِالنَّاسِ ، فَكُلُّهُمَا كَبِيرُ الْيُقْصَنِ حَتَّى إِذَا تَمَّ وَصَارَ دِجَاجَةً لَمْ يَصْلُحِ إِلَى الْتَّدْبِيعِ ، وَأَنَا مُثْلُ فَرْخِ الْحَمَامِ تَنْفَلُقُ عَنْهُ الْبَيْضَةُ عَنْ شَيْءٍ سَاقَطَ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَرْكَةٍ وَأَبْوَاهُ يُعْلَمُ بِهِ حَتَّى يَشْوِي وَيَبْثِتُ رِيشَهُ ثُمَّ يَمْسِنُ بَعْدَ ذَلِكَ وَيَطْبِرُ ، وَيَنْخُذُهُ النَّاسُ وَيَرْسُلُونَهُ مِنَ الْمَوَاضِعِ الْبَعِيدَةِ ، فَيَجِيِّ « فِي صَانِ لِذَلِكَ وَيُكْرِمُ ». فَقَالَ أَبُوهُ : أَحْسَنْتَ الْمُشْلَ ، وَقَدْمَهُ عَلَى أَخِيهِ . وَحَجَّ إِيَّاسٍ يَوْمًا فَسَمِعَ نَبَاحَ كَلْبٍ ، فَقَالَ : هَذَا كَلْبٌ مَشْدُودٌ . ثُمَّ سَمِعَ نَبَاحَهُ فَقَالَ : لَقَدْ أَرَيْلَ ، فَلَمَّا اتَّهَمُوا مِنَ الْمَاءِ سَأَلُوكَاهُمْ ، فَكَانَ كَمَا قَالَ ، عَنْدَهُ سَأْلَوْهُ : كَيْفَ عَرَفْتَ؟ فَقَالَ : كَانَ نَبَاحَهُ وَهُوَ مُوْتَقِنٌ يُسَمِّعُ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ ، فَلَمَّا أَطْلَقَ سَمْعَتَهُ يَقْرِبُ مَرَةً وَيَبْعَدُ مَرَةً . وَهُوَ ذَاتُ لَيْلَةِ بَنَاحِيَةٍ ، فَقَالَ : أَسْمَعَ نَبَاحَ كَلْبٍ غَرِيبٍ ، فَقَبِيلَ لَهُ : كَيْفَ عَرَفْتَ؟ قَالَ : بِخَضْرَوْعِ صَوْتِهِ ، وَشَدَّةِ نَبَاحِ الْأَخْرَ .

وَرَأَى يَوْمًا أَثْرَ رَصَى بَعِيرَ : فَقَالَ : هَذَا بَعِيرٌ أَعْوَرُ . فَقَبِيلَ لَهُ : مَنْ أَيْنَ عَلِمْتَ؟ فَقَالَ :

لَأَنِّي وَجَدْتُ رَعِيَّهُ مِنْ جَهَةٍ وَاحِدَةٍ .

\* \* \*

## الرِّجَالُ

وَمَا يُضَرِّبُ وَيَنْسَبُ إِلَى رِجَالَاتِ الْعَرَبِ . « شَيْيَةُ الْحَمْدِ » ، كَانَ يَقَالُ ذَلِكَ لِعَبْدِ الْمُطَلَّبِ بْنِ هَاشِمٍ لِشَوْرِ وَجْهِهِ ، ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ فِي ذَوْلَابِتِهِ شَعْرَةٌ بِيَضْنَاءِ حِينَ وُلِدَ . أَمَا (حَاتِمُ الطَّائِي) فَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ ، وَقَبِيلُ « دُعَيْمِيْصُ الرَّمَلِ » لِرَجُلٍ كَانَ مِنْ أَمْهَرِ أَدْلَةِ الْطَرَقِ ، ضَرِبَ بِهِ الْمُشْلُ « أَهْدِي مِنْ دُعَيْمِيْصِ الرَّمَلِ » وَيُقَالُ أَنَّهُ دَخَلَ وَبَارَ ، وَهُوَ بِلَدَةٍ تَرْعَمُ الْعَرَبُ أَهْمَاهَا بَلَدَةُ الْجَنِّ وَلَمْ يَدْخُلُهَا إِنْسَنٌ غَيْرُهُ ، فَرَمَتْهُ الْجَنُّ بِالرَّمَلِ حَتَّى عَمَى ، أَمَّا « وَافِدُ الْبَرَاجِمِ » فَيُضَرِّبُ بِهِ الْمُشْلُ فِي الشَّقَاءِ وَالْجَبَنِ ، ذَلِكَ أَنَّ أَسْعَدَ بْنَ الْمَنَّارِ أَخَا عَمْرُو بْنَ هَنْدَ اتَّصَرَّفَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ مَجْلِسِ صَفَاهِهِ وَهُوَ ثَيْمَلٌ . فَرَمَى رَجُلًا مِنْ بَنِي دَامَ بِسَهْمٍ فَقُتِلَهُ فَوَثَبَ عَلَيْهِ بَنُو دَامَ لَقْتُلُوهُ ، فَغَزَاهُمْ عَمْرُو بْنُ هَنْدَ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ مُقْتَلَةً عَظِيمَةً ثُمَّ أُقْسِمَ لِيُحْرَقُنَّ مِنْهُمْ مَا ذَلِكَ مَنْ مُحْرَقًا ، وَأَخْلَى مِنْهُمْ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَجُلًا فَقُلْدَفُهُمْ فِي النَّارِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْرُقَهُمْ بِمِنْ تَكَمَّلَ بِهِ الْعَدَةُ فَمَرَّ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ عَمَّارٌ ، مِنْ بَنِي مَالِكٍ ، فَقَتَشَمْ رَائِحَةَ الْلَّحَمِ . فَظَنَّ أَنَّ الْمَلَكَ قَدْ اتَّخَذَ طَعَامًا لِلْأَضْيَافِ ، فَعَرَجَ إِلَيْهِ ، فَأَتَى بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ : يَا بَتِ اللَّعْنِ ، أَنَا وَافِدُ الْبَرَاجِمِ . فَقَالَ عَمْرُو : إِنَّ الشَّقْنَى وَافِدُ الْبَرَاجِمِ ، فَصَارَ مِثْلًا لِلشَّقْنَى يَسْعَى

يقدمه إلى مراقده ، ثم أمر به فقتل به في النار ليتحقق قسمه . ويقال « حق هبنة » ، وهو يزيد بن شروان أو هبنة ذو الوداعات ، من حُكْمَه أنه جعل في عنقه قلادةً من وَدَعَ وَخَظْمَ وَخَزْفٍ وهو ذو لحية طويلة ، فسئل عنها فقال : لأعرف بها نفسي ، ثبات ذات ليلة وأخذ آخره قلادته فتقلدها فلما أصبح هبنة رأى القلادة في عنق أخيه ، فقال له : يا أخي ، إن كنت أنت أنا ، فمن أنا ؟

ويُقال أيضًا حديث خراقة ، وخرافة كان رجلاً من بنى عُذْرَة ، استهواه الحزن فلما خلت عنه ورجع إلى قومه ، وجعل يجدُّهم بالأحاديث الجزئية ، فكانت العرب إذا سمعت حديثًا لا أصل له ، قالت : حديث خراقة .

\* \* \*

### العرب

وَمَا يضافُ أَوْ ينْسَبُ قَوْلَهُمْ « أَغْرِيَةُ الْعَرَبِ » ، وَهُمْ أَرِبْعَةُ سُودٍ شَجَعَانْ عَنْتَرُ الْعَبَّاسِيُّ ، وَخَفَافُ السَّلْمَى ، كَانَ شَاعِرًا شَجَاعًا ، شَهَدَ مَعَ الرَّسُولِ فَتَسَحَّ مَكَّةَ ، وَمِنْهُمْ السَّلِيلُكُ بْنُ السَّلَكَةَ ، وَأَيْضًا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَازِمِ السَّلْمَى وَإِلَى خَرَاسَانَ ، وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي غَاِيَةِ الشَّجَاعَةِ ، لَكِنَّهُ يَخَافُ الْفَارَ خَوْفًا شَدِيدًا ، فَبَيْنَهُ هُوَ ذَاتُ يَوْمِ عِنْدِ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ جُرْكًا أَيْضًا فَتَعْجَبَ مِنْهُ ، فَقَالَ لِعَبِيدِ اللَّهِ : يَا أَبَا صَالِحٍ هَلْ رَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا ؟ إِذَا بَعْدَ اللَّهِ يَتَضَاءِلُ كَانَهُ فَرِخٌ ، فَقَالَ عَبِيدُ اللَّهِ : أَبُو صَالِحٍ يَقْبِضُ عَلَى الثَّعَبَانَ ، وَيَلْقَى الرَّوْمَاحَ وَالسَّيْفَ بِيَدِهِ ، وَقَدْ اعْتَرَاهُ مِنْ جُرْكَهُ مَا تَرَوْنَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وَمَا يضافُ أَوْ ينْسَبُ إِلَى الشَّعَرَاءِ « حُلَّةُ امْرِئِ الْقِيسِ » تَضَرِّبُ مثَلًا لِلْمُشْرِقِ الْمُحْسَنِ يَكُونُ لَهُ أَشَرُّ قَبِيبٍ ، ذَلِكَ أَنَّهُ بِلَا إِلَيْهِ قِصْرٌ السَّرُومُ يَسْتَعِنُ بِهِ عَلَى قَتْلَةِ أَبِيهِ ، وَيَسْتَنْجِدُهُ ، وَبَعْدَ أَنْ سَاعَدَهُ أَوْقَعَ الْوَشَأَةَ بِهِ عَنْدَ قِصْرِهِ ، فَأُرْسَلَ فِي أُثْرِهِ بِحَلَةٍ مَسْمُومَةٍ ، فَلَمَّا لَبَسَهَا تَفَرَّجَ جَلَدُهُ ، وَتَسَاقَطَ لَحْمُهُ ، يَقُولُ فِي ذَلِكَ :

وَيُذَلِّلُثُ فَرِزْجًا دَامِيًّا بَعْدَ صَحَّةٍ  
وَمَاتَ بِأَنْقَرَهُ .

وَمَا يضافُ إِلَى الْبَلْدَانِ ، قَوْلَهُمْ « عَزِيزُ مَصْرَ » ، ذُكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَيُقَالُ « اسْقَفُ نَجْرَانَ » وَهُوَ قَسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ، أَحَدُ حِكَمَاءِ الْعَرَبِ وَيَلْغَاهُمْ ، وَيُقَالُ « سَحْرَةُ الْهَنْدِ » إِذَا يَضْرِبُ الْمُثْلَ بِهِمْ لَأَنَّ لِلْهَنْدِ السَّحْرَ وَالرُّقْى وَالْتَّدْخِينَ وَالشَّطَرْنَجَ وَخَرْطَةِ التَّمَاثِيلِ .

وَمَا يضافُ إِلَى أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ قَوْلَهُمْ ( كَلْبُ الْقَصَابِ ) يَضْرِبُ مثَلًا لِلْفَقِيرِ يَجَاوِرُ الْغَنَى ،

فيري من نعيم جاره ويسوس نفسه ما ينghost عيشه ، والعاممة تقول : كلاب القصابين أسرع  
عمر من غيرها بعشرين سنة لأنها لا تزال ترى من اللحوم ما لا تصل إليه . فكأن رؤية ما  
تشتهيه وتحمّل منه يورثها العم .

\* \* \*

### أبو .. وأم

يخصص الشعالي الفصل الثامن عشر لما يضاف أو ينسب إلى الآباء والأمهات الذين لم  
يلدوا ، والأبناء الذين لم يولدوا ، يُقال مثلاً ، (أبو يحيى) لقابض الأرواح ، كما يُقال للأسود  
(أبو البيضاء) ولسلاعمي (أبو البصیر) . ويُقال (أبو براش) لطافر منتش بالوان التقوش  
يتلون في اليوم بعدة ألوان ، ويُضرب به المثل للمتلون ، أما (أبو مالك) فيعني الجموع ،  
والعرب تسمى الخبز جابرًا وعاصيًا وعامريًا ، ثم يورد الشعالي قائمة بالعديد من الكنى التي  
يتدواها العرب ، فمنها :

الفرس : أبو المضاء ، والفيل : أبو الحجاج ، والأسد : أبو العارث والشعلب : أبو  
الخصين ، والقرن : أبو ذئبة وأبو قيس ، والفهد : أبو الوئاب . والأرنب : أبو نبهان ،  
والستور : أبو خداش ، والدبيك : أبو اليقطان ، والماء : أبو غياث ، والثريد : أبو رذين .  
والحلل : أبو نافع . والجبن أبو مسافر ، واللحم : أبو الحصيبي ، والتمر : أبو عسون ،  
والحلوي : أبو ناجع والغنام : أبو شائق ، والنوم : أبو راحة ، والشيع : أبو الأمن ، والشمام  
أبو نظيف .

ثم ينتقل الشعالي إلى الأمهات ، (أم الكتاب) هي فاتحة الكتاب لأنها المقدمة التي تقرأ  
أمام كل سورة في الصلاة ، (أم القرى) هي مكة ، إنها أم كل أرض (أم النجوم) هي  
المجرة ، (أم المؤمنين) هي عائشة رضي الله عنها . (أم دُفَر) كنية الدنيا ، كما يُقال لها أيضًا  
(أم خنور) ، ولما قال عبد الملك بن مروان :

وقد تناهينا من أم خنور - يعني الدنيا - ونعمتها وغضارتها ، لم يعش بعد قوله هذا إلا  
أسبوعاً ، (أم عامر) هي الضبع ، (أم عوف) هي الجرادة (أم طحة) هي القملة . (أم  
فشعم) هي المنية والخرب والداهية الكبيرة ، ويُقال للخرب أيضًا (أم قسطل) و(أم شملة)  
هي الشمس .

وعن البنين يقول الشعالي ، (ابن الليل يعني القمر ، والعرب تقول من يعيش في  
الصحراء (ابن الليل) وما زال الناس في صعيد مصر يطلقون نفس الكنية على المجرمين  
والخارجين عن المجتمع ، وهناك فيلم سينمائي مشهور يحمل الاسم . ويُقال (ابن ذكاء)

يعنى الصبح ، و (ابن الغمام) أى البرد ، ويُقال (ابن الغمد) للسيف ، وذلِك لطُول ملازمته لِيَاه ، أما النهار فيقال له (ابن الدهر) أما (بنو الأيام) هم أهل العصر ، و (بني الدنيا) هم الناس .

وعن البنات يقول الشاعري إن (ابنة الجبل) تعنى الصدى الذى يحب المتكلم بين الجبال ، و (بنت الفِكْر) هى الرأى والشعر . وابنة الكُرم هى الخمر ، أما بنات الليل فهى الأحلام .

\* \* \*

### من الأذواء إلى .. أصابع زينب ..

أما ما يضاف إلى الأذواء والمذوات فكثير . من ذلك (ذو الأوتاد) وقد جاء ذكره في القرآن الكريم . و (ذو القرنين) ويُقال إنه الإسكندر الأكبر ، و (ذو التُّورَيْن) وهو عثمان بن عفان رضى الله عنه ، سمي بذلك لأن الرسول الكريم زوجه ابنته رقية ، فكانا أحسن زوجين في الإسلام ، وما تُوفيت زوجه عليه السلام أم كلثوم ، وما تُوفيت قاتل : لو كانت لنا ثلاثة لزوجناكها ، فهو ذو التُّورَيْن هذه القصة . ويُقال (ذو الرياستين) وهو الفضل بن سهل ، سهـاء الخليفة المأمون بذلك لأنه دبر أمر السيف والقليل ، وولي رئاسة الجيوش والمذواين . و (ذات النطافتين) أمرها معروفة وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق ، أما (ذات المخار) فهي هنيدة بنت صعصعة عممة الفرزدق ، وكانت هناك شجرة اسمها (ذات الأنواط) كانت قريش ومن سواهم من الكفار من العرب يسألونها كل ستة فيعلقون عليها أسلحتهم ويدبحون عندها ويقومون عندها يوماً .

أما النساء المضافات ، المنسوبيات فمنهن (زرقاء الياءمة) ويضرب بها المثل في دقة البصر وحدة النظر ، كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، وقد أخبرت قومها برؤيتها لأشجار تتحرك فلم يصدقواها ، ولم تكن الأشجار إلا جيشاً معادياً تخفي بأشجار ، تمكن من مbagته قومها ، وأسروها وشقا عينيها ، ويُقال (حضراء الدُّمن) وتلك من جوامع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، القليلة الألفاظ الكثيرة المعانى التي لم تسبقه العرب إليها . ولما قال : إياكم وحضراء الدُّمن ، قيل « يا رسول الله وما حضراء الدُّمن؟ قال : المرأة الحسناء في منبت السوء .

أما ما يضاف إلى النساء فمنه (كيد النساء) و (نخلة مريم) قبل في القرآن الكريم ، «وَهَزَى إِلَيْك بِمَجْدِعِ النَّخْلَة تُسَاقِطُ عَلَيْك رَطْبَانِ جَنِيَا» ، و (عرش بلقيس) و (شوم البوس) هي بنت منفذ التمييمية . زادت أختها أم جساس بن مرتة ومع البوس حارثاً لها من حَرْث يقال

له سعد بن شمس ومعه ناقة ، فرمאהها كليب وائل ، فأقبلت على صاحبها وضرعها يتزف دمها ، فانطلق إلى البوس فأخبرها بالقصة ، فقالت ، واذله ، واغربته ، وسمعها ابن أختها جساس فركب ومضى إلى كليب حيث طعنه طعنة أثقلته فهات منها ، وهكذا بدأت الحرب بين بكر وتغلب فدامت أربعين سنة ، ويقال (مرأة الغريبة) لأن المرأة الغربية تتعهد مرأتها من الجلاء بغيرها ، وتتفقد دائمًا محسن وجهها ، لذلك ضرب بها المثل ، فيقال أنت من مرأة الغريبة ، ويدرك الشعالي (أصابع زينب) ويقول إنه ضرب من الحلوى ببغداد يُدعى أصابع زينب ، وما يزال هذا النوع من الحلوى موجودًا في مصر والشام وبنفس الاسم .

\* \* \*

من الرئيس إلى .. الكلمة

وما يُنسب إلى الأعضاء عند العرب بكثره (الرأس) ، فتقول : رأس المال ، ورأس الليل ، ورأس الجبل ، ورأس الزمان ، ورأس القوم ، ورأس الجريدة ، ورأس الأمر ، ورأس العقل ، ورأس الدين ، وهكذا . . وتحصص الشعالي فصلاً كاملاً لما يضاف أو يُنسب إلى الإبل ، فيقال مثلاً (حنين الإبل) تقول العرب ما أفعل ذلك ما حنت الإبل وما أطئت الإبل ، وتقول (ركبنا البعير) في الشيء المتساوي بغيره . وتقول (ضبطة عشواء) لمن يصيب مرة ويخطئ مرة ، والعشواء هي الناقة التي لا تُنصر ليلاً ، قال زهير :

رأيت المنشايا خطط عشوائية من تصميمه ومن من خططه يُعْمَلُ في هرم في الفصل الذي يخصصه للحمراء ، تستوقفنا ملاحظة خاصة بالمؤلف ، ربما لم ترد في أي من كتبه الأخرى ، إذ يقول في الفقرة المعروفة (خاصي العبر) ويضرب مثلاً لمن يرجع خاتماً من مهمته ، يقول الشاعري :

« وقد ضرب أبو خراش مثلاً في شعر له لست أستحضره » يفلت التعاليس هنا من صرامة البحث ، ويعرف للقارئ أنه لا يذكر الشعر الذي أراد أن يستشهد به .

وفي الفصل المخصص للأسد ، يذكر الشعالي عشر خصال مستعارة من الحيوان يجب أن تنسم بها القيادة ، فمن ذلك : جُرعة الأسد ، وخشل الذئب ، وروغان الثعلب ، وحملة الشنزير ، وصبر الكلب على الجراحة ، وتحنن الدجاجة وسخاء الديك وحمل الغراب وحراسة الكُركي وهداية الحمام . ويُقال للذئب (نوم الذئب) ذلك أنه يغمض إحدى عينيه ويفتح الأخرى أثناء نومه قال الشاعر يصفه :

## يُنَامُ بِالْحَدِيَّ مَقْلُوبَهُ وَيَتَقَسَّى بِأَخْرَى الْمَنَابَاتِ فَهُوَ يَقْظَانُ هَاجِمٍ

ونقول العرب ( كلبة حَوْمَل ) يضرب بها المثل فيقال : أجوع من كلبة حَوْمَل ، وحَوْمَل امرأة كانت تربى كلبة للحراسة ، وتحببها وتطردتها بالنهار ، فرأىت ليلة القمر طالعاً ففتحت عليه تظنه رغيفاً لاستدارته ، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع .

\* \* \*

### فسي الطيسور

يُقال ( عناق الطير ) أى أحراها ، وهى تصيد ولا تُصَاد ، مثل العقبان والبراء ، والصقور ، والشواهين ، ويُقال أيضاً ( عناق الحيل ) هى التي لا يمكن إدراكتها . ولكنها تُدرك إذا طلبت وكثيراً ما يتزدد ( عنقاء مُغَرِّب ) ، ويضرب مثلاً للشىء الذى يُشَمَّ به ولا يُرَى . وإذا أرادت العرب الأخبار عن هلاك شئ ويطلاقنه قالت : حلقت به في الجنة عنقاء مُغَرِّب . أما ( طير النار ) فالقصد به طائر السمندل ، وهو يدخل النار فيعود شائعاً ، ويُقال ( غُراب البين ) كان القوم يتشاهدون منه ، ومن اسمه اشتقت الغربة ، ويُضرب المثل بضم الحرم مثلاً على الأمان والصيانة ، كما يُقال ( طوق الحِمَامَة ) مثلاً ما يلزم وما لا يُرجح ويقيس ويستديم ، ويُقال ( كمد الحباري ) يضرب مثلاً لمن يموت كمداً ، فيقال ، مات فلان كمد الحباري ، ذلك أن الحباري إذا تحسست فترت همتها ، وألقت ريشها كله مرة واحدة ، حتى إذا رأت صوبيحتها يطرون ولا يهوض لها فُرِّيَّها ماتت كمداً . ويُضرب المثل ( ببيضة الديك ) ، للشىء النادر يحدث مرة واحدة ولا يتكرر ، إذ يُقال إن الديك بيبيض مرة واحدة في حياته ..

\* \* \*

### الارض .. الدور .. البلدان

نقول العرب ( سمع الأرض وبصرها ) ، عندما يلتفى الثنان ولا ثالث لها إلا طول الأرض وعرضها ، وتقول أيضاً ( أمانة الأرض ) و ( كتمان الأرض ) لأنها تحفظ ما يودع فيها .

ويُضرب المثل بدار أبي سفيان في الأمن ، ذلك أن الرسول الكريم لما فتح مكة ودخل دار أبي سفيان قال « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ». أما قصر غمدان ، فأحد أبنية العرب المتينة ، الشهيرة ، كان بصنعاء ، تسكنته ملوك حمير ، ثم تنقلت به أح韶اً أدت إلى خرابه ، وما يزال موضعه معروضاً في صنعاء حتى يومنا هذا . وما ضرب به المثل أيضاً ( أهرام مصر ) في الشبات والقدم والمحصانة وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : عجائب الدنيا أربع ، منارة الإسكندرية وكنيسة الراهب ومسجد دمشق ، وقسطنطية سنجق .

وضرب المثل بخراج مصر في الكثرة ، وكتان مصر ، وقطن خراسان ، وتفاح الشام ، قال الشاعر .

من كف ظبي غزيل	نفاحة شامية
لغزير تلك القبيل	ما خلقت مد خلقت
حمرة خبي خجل	كأنما حمرتها

ويقال أيضاً (زجاج الشام) يضرب به المثل في الدقة ، و (زيت الشام) للجودة والنظافة ، ويقال (عود الهند) مثلاً على طيب الرايحة ، و (سيوف الهند) للجودة . و (سيوف اليمن) لخدتها ، و (ثياب الروم) لحستها ، و (سكر الأهواز) لجودته ، و (ورد جور) لطبيه ، و (سجاد أرمينية) لفخامته ، و (طراائف الصين) لندرتها . و (مسك التبت) لجودته . كما يُضرب المثل بطرب الزنج ، وهم محبون للغناه والرقص ، ويقال (حن الأهواز) لشدة فتكها . و (هواه جوجان) لقواته وسرعة تغيره ، و (برد همدان) لوعورته .

\* \* \*

هكذا . . يمضي الشعالي ليذكر لنا ما يضاف وينسب إلى النار ، والماء ، والشجر ، واللباس والثياب ، والطعام والشراب ، والسلاح ، والحلق ، واللبالي ، والأرمان والأوقات ، والأدب وما يتعلق به ، ثم يخصص الباب الستين للأقوال التي يستشهدون بها ، مثل (عرق الموت) ويضرب مثلاً لأشد الشدة و (غضب العاشق) ويشبه سحابة صيف لأنه لا يدوم ، و (للة الخلوة) وهو ما يُمتع أكثر ، ويقال (ينبوع الأحزان) ، أنشد عبيد الله ابن طاهر :

ألم تر أن الدهر يهدم ما بني	ويأخذ ما أعطي
فمن سرء إلا يرى ما يسوءه	فلا يأخذ شيئاً يناف له فقداً

ويصل الشعالي بنا إلى خاتمة الأبواب ، وينحصر للجنان كأن يقال (جنة الدنيا) ويقول إن المقصود بها الشام ، وما أخرج هرقل عن بلاد الشام وفر هارباً إلى بلاد الروم يكى وغشى عليه ، فلما أفاق قال : السلام عليك يا سوريا يا جنة الدنيا ، سلام غير ملaci . ويقال (باب الجنة) و (روضة الجنة) و (كنوز الجنة) ، كان يقال : أربعة من كنوز الجنة : كتihan المصيبة وكتihan المرض ، وكتihan الفاقة ، وكتihan الصدقة .

هكذا يختتم أبو منصور الشعالي النسابوري كتابه الفريد ، والذي حفظ لنا فيه ما كان يمكن أن يتبدد ثاراً فلاد تدركه الأفلاة ، وبصائرنا ببعض ما يشيع هل أستنا حتى الآن ، ونحن نجهل أصله . غفر الله له ورجمه .

## سرور النفس بمدارك الحواس الخمس

تأليف: أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي

هذبه: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)

حفله: الدكتور إحسان عباس

يُروى أن أحد بن يوسف التيفاشي ، كان يتمتع بروح علمية دقيقة . عبّا للتجربة .. وتحمل المشاق في سبيل المعاينة الذاتية ، وأثناء إعداده لكتابه الشهير عن الأحجار الكريمة «أزهار الأماكن في جواهر الأحجار» . سمع عن أن الزمرد الذي يابى إذا عرض للحيات اتفقات عينها ، وكان عنده فص زمرد ذبابي خالص فاستاجر حواء ليصيده له أفعى ، ففعل ، وجعلها في طشت ، ثم قرب الفص من عينيها ، فما لبث أن سمع فرقعة خفيفة ، ثم بزرت عينها بروزاً ظاهراً ، وبقيت الحية حاتمة في الطشت لا تدرى أين تتوجه.

كان التيفاشي عالماً ، أديباً ، ذا معرفة موسوعية في عصره - القرنين السادس والسابع المجريين - كان متتنوع الثقافة ، طيباً بين الأطباء ، فلكياً بين الفلكيين موسيقاً بين الموسيقيين ، كما كان شاعراً وفانياً ، كثير الترحال في طلب العلم ، يطالع ، يسمع ، يدون مشاهداته . من هنا تنوعت تنوعاً مؤلفاته كبيرةً ، نذكر بعضها تفسير التيفاشي للقرآن الكريم، لم يصلنا للأسف ، ذكره القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى ، وقال إنه يطلب عليه الطابع الفصصى وكتاب «مشكاة أنوار المخلفاء وعيون أخبار الظفراء» وكتاب «سجع المدليل في أخبار النيل» وكتاب «المتقد من التهلكة في دفع مضار السهام المهلكة» وكتاب «العدة الفائقة في محاسن الأفارقة» ، كما وضع عدة مؤلفات في الجنس ، ومن أغرب الكتب التي نسبت إليه . «نزة الألباب فيها لا يوجد في كتاب» ويصور الحياة الخفية من المجتمع ، حيث جمع المؤلف ورصد نماذج عديدة من الحياة السرية للمجتمعات في تونس ومصر ودمشق وبغداد ، ومن الكتب التي وصلتنا «فصل الخطاب» . وكان يقع في حوالى عشرة مجلدات ، وجاء محمد بن منظور ليختصره ويرتب أبوايه ، وسماه «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» . وهذا وصل إلى عصرنا ، وأخرجه الدكتور إحسان عباس من مجاهل المخطوطات

النسية ، وحققه تحقيقاً علمياً رائعاً . وقدم له ، وأصدره منذ سنوات في بيروت . . وهذا ما  
توقف عنده .

\* \* \*

### فصل الخطاب

العنوان الأصل لموسعة التيفاشي ١ فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى  
الألباب » وطبقاً لما ورد في المصادر القديمة فيبدو أن الكتاب كان يقع في أربعين جزءاً ، لا يقل  
الواحد عن مائتي صفحة ، يتناول مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والسماء  
والكواكب ، والعالم الحيواني بما فيه من أصناف المخلوقات ، وعالم الأحجار والمعادن ،  
والطب ، والموسيقى ، وتاريخ الأمم .

من هذه الموسعة الضخمة وصلنا جزء سهاد المؤلف « نثار الأزهار في الليل والنهار » وجزء  
آخر عنوانه « طل الأسحار على الجلitar في الهواء والنار » أما البقية فلم تصلنا ، ربما ضاعت إلى  
الآبد ، وربما ما تزال في مكتبة ما ، أو في زاوية بعيدة في الصحراء ، أو في مكتبة مسجد  
عنيق . . ربما .

ما تبقى من الكتاب الذي اختصره ابن منظور إذن يحوي مادة علمية وأدبية فريدة ، يقول  
الدكتور إحسان عباس :

« لست أفال في ما لسرور النفس من قيمة ، فهو صورة لاجتياح ثقافتين ، الثقافة العربية  
الإسلامية والثقافة المستمدة من اليونان ، وهو كذلك صورة للقاء على المستوى الأدبي بين  
الشرق العربي والمغرب العربي ، كان أمثال التيفاشي وابن سعيد وابن دحية الكلبي وغيرهم  
من المغاربة المهاجرين يمثلون حلقة وصل بين الشرق والمغرب فيؤلفون للمشارقة والمغاربة  
على السواء .

وللنج عالم الكتاب .

\* \* \*

### الليل والنهار

يقول ابن منظور الذي اختصر الكتاب في مقدمة قصيرة ، جميلة ، دقيقة الشر ، إنه بذلك  
جهذاً كبيراً في العثور على نسخة من الكتاب حتى نجح بالفعل في الحصول عليها :

« ورأيته قد جمع فيها أشياء لم يقصد بها سوى تكثير حجم الكتاب ، ولم يراع فيه التكرار ،  
ولا ما تمحجه أسماع ذوى الألباب فاستخرت الله في تعليق ما يكتنار منه ، ورغبت في إبرازه إلى

الوجود ، فإنه مadam بخطه لا يفهم أحد شيئاً عنه ، فأخذت دُبّده ورميّت زَبَده . وأوردت تكررها تركت مكررها . . .

ثم يختتم مقدمته بتلك الجملة الجميلة .

«إلى الله الرغبة في الصبح عن مصنفه وعنى ، والعفو عنها اثبته بقلميّنا ، فإن العفو غاية الثمنى » . . .

\* \* \*

الليل والنهار هما موضوع الباب الأول . منهج المؤلف أن يذكر الآيات القرآنية التي ذكرت الموضوع الذي يتناوله ، والأحاديث النبوية ، ثم أقوال المحدثين وقصائد الشعراء ، السؤال الأول الذي يواجهنا ، لماذا سمى النهار نهاراً ، والليل ليلاً ؟ سمى النهار نهاراً لظهور ضوء الفجر بحري كالنهر من المشرق إلى المغرب معتقداً حتى يأتى على الظلام ، وسمى الليل ليلاً لأنه يلاقي بالأشخاص حتى يتشكل الناظر في الشيء ، فيقول : هو هو . ثم يقول لا ، لا فقد لا لا لها ، والنهار ضد الليل ولا يجمع كهما لا يجمع العذاب والسراب ، فإن جمع قُلت في قليله أنهر .

أما السؤال الثاني ، أيهما أسبق ، الليل أو النهار ؟ . بعد استعراض آراء الفلاسفة والمتكلمين . يقول المؤلف إن مذاهب العرب متفرقة على تقديم الليل على النهار ، وعلى هذا يورخون ، فيقولون ، خمس بقين ولست بقين من الشهر ، والعملة في ذلك أن الشهر تعلم بدايته بالليل ، فيكون أوله على ذلك الليل .

يقول الرسول الكريم «الليل والنهار مطبيان يقربان كل بعده ويأتيان بكل موعد» ، وفي كليلة ودمنة تُشَلُ أيام العمر بغضبيين ثابتين على فم بشر وإنسان قائم عليهما ، والليل والنهار كجرذين أبيض وأسود يُحدِّثُين في قطع الغصبيين وهو لا عندهما :

ومن أجل الأشعار التي يوردها المؤلف في وصف الليل والنهار ما قاله ابن الدمينة .

أنقضى نهارى بالحديث وبالمنى

ويجمعنى والهم بالليل جامِع

وقول النابغة التميمي في طول الليل :

كلينى لهم يا أميمة ناصِب  
تقاعس حتى قلت ليس بمنجل

أما الأصل في وصف الليل بالطول ، فهو بيت الحارث بن خالد وهو :

تعالوا أعينوني على الليل إنه  
على كل عين لا تسام طويل

## الهلال .. والقمر

من الليل إلى النهار ، من الغبوق إلى الاصطباح ، ينتقل المؤلف بين الشعر والثر ، يورث الحكايات ، وما قاله أهل المغرب ، وما جادت به قريحة أهل المغرب . حتى يصل إلى الباب الرابع الذي يخصصه للهلال وأطواره .

في اللغة يقال ، أهللنا بشهر كلنا ، ويقال لأول ليلة : النحيرة ، وغرة الشهر أول ليلة منه ، لأن الهلال يظهر فيها كالغرة في وجه الفرس .

وللقمر من أول طلوعه إلى اختفائه أسماء ، فمنها : الهلال . الطالع ، الرمد ، النمير ، الزيرقان ، الباهر ، الزمهرير ، الفاسق ، ذريق ، البدر ، عفرا ، الساهور ، السهر .

والعرب تسمى الشمس والقمر القمررين ، فيغلبون القمر - والشمس أفضل منه - لعلتين : إحداهما الشذكيه والأخرى أنهما أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمير . ويهديهم السبل في سرى الليل في السفر ويزيل عنهم وحشة الغاست . وينم على المؤذى والطارق .

قيل لأعرابي : الشمس أحسن أم القمر ؟ قال : القمر أحسن والشمس أجهر . قيل ، وكيف صار القمر أحسن ، قال : لأن العيون عليه أجرس ، وتقول العرب : سافروا في يمنة الليالي فإن أنس القمر يذهب وحشة السفر .

والعرب تسمى كل ثلات ليال من الشهر باسم ، فيقولون : ثلات غرر ، وثلاث نفل ، وثلاث تسع ، وثلاث عشر ، وثلاث بيض ، وثلاث درع وثلاث ظلم ، وثلاث حنادس ، وثلاث دادى ، وثلاث محاق . ومن أوصاف الشعرا ، ما قاله الداؤه الدمشقي :

لڪأنها هو حيرة المفکر	ولرب ليل فيك ضل صباحة
يبدى الضياء لنا بخد منثى	والبدر أول ما بسا مثلثا
قد رجت في هامة من عنبر	فكأنها هو خسدة من فضة

والعرب تقول في ذم الهلال : لا مرجحا بمحجتين ، محل الدين ، ومعدب الحين ، قالوا وفي القمر عيوب عدة ، لونه لون الأبرص ، وجهه وجه المجلوم ، يحمل الدين ، ويعجل كراء السكن ، وينهك الأبدان ، ويخلق الكثبان وينم على العاشق ، ويفضح السارق .

\* \* \*

الفجیر

أما الفجر فاسمها مأخذ من انفجار الماء ، لأنه ينفجر كالماء شيئاً بعد شيئاً ، ويليه السحر ، أما السدفة فظلمة يخالفطها ضوء يكون من أول الليل ومن آخره يذهب إلى بقایا الشفق ، لأن الشفق في أول الليل كالفجر في آخره .  
ومن دقيق الشعر ، ما قاله الأمير تميم بن العز .

شربنا على نفح المطوية السور  
معتفقة أفنى الزمان وجودها  
كان السحاب الغر أصيحر كؤسا  
فيتنا نتحت الكأس فيما وإننا  
إلى أن رأيت النجم وهو مغرب  
كان سواه الليل والفجر طالع  
ومن الأصوات التي تتردد مع قرب شروق الشمس ، صياغ الديك . وهديل الحمام ،  
وللديوك والحمام يفرد المؤلف فصلاً طويلاً ، كذلك للشمس وحركتها النهارية عبر السماء ،  
حتى يصل إلى الليل مرة أخرى ، ولكنه في هذه المرة يتحدث عن الكواكب ، وللمكواكب في  
الزمن القديم شأن عظيم .

\* \* \*

النحو و المorphology

«الشريا» من أشهر نجوم النساء عند العرب ، يعظمونها ، ويكثر ذكرها في شعرهم ، وإذا طلعت في النساء شتاءً أشتد البرد . قال شاعر :

خليلي لأنى للثريا حاسداً  
ولأنى على ريب الزمان لواجدُ  
أيجمع منها شفلاً لها وهي سبعةُ  
وأ فقد من أحبيته وهو واحدُ  
أما نجم الجوزاء فمن أحسن ما قيل فيه شعر أبي بكر الخالدي :

وتمايل الجوزاء يمكى في الذُّجى  
وتنقبت بخفيف غيم أبيض  
كتنفس الحسناء في المرأة إذ  
مبلان شارب قهوة لم تُخرج  
هنى فيه بين تحفَّر وتبَرُّج  
كملت عَاسِنَها ولم تُترَّج

وعطارد ، والزهرة ، وفي الباب الثامن يذكر آراء المتجمين وال فلاسفة القدماء في الفلك والبروج  
والكواكب ، وعلاقة الكواكب بعناصر العالم ، مثلاً ، علاقة الكواكب بالأمكنة :  
زحل : له الجبال اليابسة التي لا تنبت .  
المشتري : له الأرضون السهلة .  
المريخ : له الأرضون الخشنة .  
الشمس : لها الجبال ذوات المعادن  
الزهرة : لها الأرضون الكبيرة والأنهار والمياه .  
عطارد : له الرمال .  
القمر : له كل قاع وأرض مستوية .

وهذا الجزء يعد موسوعة علمية مصغرة لعلم الفلك ، وهكذا ينتهي الجزء الأول من الكتاب .

\* \* \*

## ظلل الأصحاب

عنوان الجزء الثاني «طل الأسحاق على الجنان في الهواء والنار»، وجميع ما يحدث بين السماء والأرض من الآثار» ويعتبر امتداداً للجزء الأول، إلا أن موضوعاته يتلخص عليها الطابع العلمي أكثر، ينقسم هذا الجزء إلى عشرة أبواب، الأولى خصصت للفصول الأربع، وما قبل في الرييم، أبيات ابن الرومي:

ونسرجين كالتغور مبتسئم  
لـه دموع المحـلـق الشـاكـس  
أبـكـاه قـطـرـنـدـي وـاضـحـكـه  
فـهـوـ مـنـ القـطـرـ ضـاحـكـ بـاـكـي

وَمَا يَذَكُرُهُ الْمُؤْلِفُ عَنِ الصِّيفِ أَصْنَافُ الْمَرَاوحِ ، فَمِنْهَا مَرَاوحُ الْخُوْصِ ، وَمَرَاوحُ الْأَدِيمِ  
وَمَرَاوحُ الْخَيْشِ ، أَمَا الْخَرِيفَ فَقَدْ شَمِيْخَ لَأَنَّ الشَّهَارَ تُخْرِفُ فِيهِ أَيْ تَجْنِيْنَ وَتَقْطُعُ وَمِنْهُ  
شَتْقُ الْخَرْفُ لِلشَّيْخِ ، وَهُوَ ذَهَابُ الْعُقْلِ ، وَمَا قِيلَ فِي الْخَرِيفِ ، مَا أَشْدَدَهُ أَبْنَى الْمُعْتَزِ  
هَاتِ كَأسُ الْمَدَامِ فِي أَيْلُوْلِ  
وَخَبَّأَتْ بَحْرَةُ الْمَوَاجِرِ عَنْهَا  
وَخَرَجَنَا مِنَ السَّمَوَمِ إِلَى دُوْ-  
وَنَسِيمِ يَيْشَرِ الْأَرْضِ بِالْفَلَقِ  
وَكَانَ نَزَدَادُ قَرِيَّا مِنَ الْجَنِ  
وَوِجْهُهُ الْبَلَادُ تَنْتَظِرُهُ الْغَيْرِ

ويمدح أبوهلال العسكري الشفاء فيقول :

لست أنسى منه دمائة دجن  
وتجنسوا تبشر الأرض بالقططر  
وقال الأصمى إن العرب كانت تسمى الشفاء « الفاضح » ، وقيل لأعرابي وقد هجم  
البرد : ما أعددت لهذا الفصل الضارب بمحشراته ؟ قال « أعددت له عرّى المتنين . وخفاء  
القدمين ، وقلقلة الفكين . ودمع العينين ، وسيلان المنخرين ، مع شدة الرعدة ، وقرفصاء  
القعدة وذرب المعدة وكسوف البال ، وفرط البليال ، وقلة المال ، وكثرة العيال وقيل لأعرابي ،  
ما أشدّ البرد ؟ قال : إذا أصبحت الأرض ندية والسماء نقية . والريح شامية .  
وروى أعرابي يردد يوم قرقيقيل له : تحول إلى الشمس . فقال : الشمس اليوم تحتاج إلى  
قطيفة .

\* \* \*

البرق وحنين العرب به إلى أوطانهم ، والغيم ، وقوس قزح ، والمطر وأراء الفلاسفة في التشبع  
والمطر والبرد والبلعيد ، كل هذه الظواهر يتوقف أمامها المؤلف طويلاً ، ويدرك ما يختص بها في  
التصوص الدينية ، والأدبية ، والعلمية ، طبقاً لنهج الكتاب ، كذلك يفرد الباب السابع  
للرياح أنواعها ، ومواعيد هبوبها ، وأسمائها ، وما قيل في كل منها شعراً ونثراً ، أما الباب  
الثامن فيتناول فيه النار ، ونار النفط ، والصاعقة ونار الفحم والكواين .

قال العلماء : ليس في العالم جسم ينجز غير مزوج ، ومرشل غير مركب ، ومطلق القوى  
غير محبوس ، أحسن من النار ، ويقال شرابٌ كأنه النار ، وامرأة حسنةٌ كأن لون وجهها لون  
النار ، وقالت أعرابية : هذا والله وأنا أحسن من النار ، ويقال لمن يُوصف بالذكاء : ما هُوَ  
إلا نارٌ موددة .

قال بعض الحكماء ، النيران أربعة نارٌ تأكل وتشرب وهي نار المعدة ، ونارٌ تأكلُ ولا تشربُ  
وهي النار الموددة ، ونارٌ تشربُ ولا تأكلُ وهي نار الشجر ، ونارٌ لا تأكلُ ولا تشرب وهي نار  
الحجر ، يتوقف المؤلف طويلاً أمام ألوان النيران وارتباطها بمصادرها وأنواع الدخان ،  
وألوانه ، ثم يتطرق إلى أوصاف الشموع والفوانيش والقناديل والثريات والسراج ، وبمناسبة  
السراج يروي المؤلف حكاية لقاء البنى باليكى يقول :

« كان أبو جعفر أحمد بن البشّى ، معاصرًا للبيكى ، وكلاهما علم في زمانه في الأدب ، وكان  
كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ، فرحل كل منهما للقاء صاحبه ، فاتفق أن وصل البنى في ليلة  
مطيرة ذات برد وريح إلى الجزيرة الخضراء بعدور الأندلس ، وقد أمسى ، فقصد خاناً وقد

أغلق الخانى بابه ، فقمع الباب فلم يفتح له ، ولم يكن قد ومه متوقعاً في ذلك الوقت على تلك الحال من المطر والظلام . وألتح في طلب البيات ، وسألة التجار أن يفتح له ففتح له ، فدخل فلم يجد موضعاً سوى بيت لا عهد له بساكن مدة طويلة ، فكتن له فيه موضعاً وأغلق بابه عليه ونام ، ثم دُقَ الباب على الخانى ، وإذا باًخر في مثل حاله قد قذف به الليل والليل إلى الخان ، فقضى الخانى ، وأقسم ألا يفتح ، وضيَّع الوارد من السيل والمطر وألتح ورحة التجار ورغبوا إليه أن يفتح له ، فدخل ، فأرشده إلى البيت الذي فيه الوارد الأول ، فدخل عليه وسلم وهو في الظلام ، فقام له الأول وأثراه بموضعه الذي كتبه لنفسه ، وهيا له غيره ، فعندما أخذها مرضجعها اجتاز بها الخانى والسراج في يده يطوف به زوايا الخان فدخل عليهما ضوء السراج ، فتحركت القوة الشعرية للبنى فقال بدحية :

ومنصباح كأن النور فيه عجبا من أحب وقد تجلّ

فياذر الآخر وقال عجيزا له :

## أشار إلى الدجى بـسان أفعى فـمـرـذـلـه جـرـعـاـ روـئـى

فنهض البنى وقال : تكون اليكى ؟ . فتبرس اليكى وقال : تكون البنى ؟ وتعانقا وتعارفا ، وعرفهما التجار ، فلم يصبحا إلا على حالة رفاهية من المال والقهاش ما جعل لهما التجار ، وسمع بهما وللالمدينة ، فأوسع لها وأحسن اليهما ، وأقاما مدة مجتمعين وفترقا على أحسن حال .

• • •

هذا ما وصلنا من الملخص الذى قام به ابن منظور لموسوعة التيفاشى ، مجرد جزأين صغيرين لكنهما عاصمان بالأدب ، بالشعر ، بالمعارف القديمة ، ثرى في أى مجاهل ترقد المجلدات العشرة التى تكون مختصر ابن منظور . أم أنها اندثرت إلى الأبد ؟

## مقامات يمنية

يوماً بعد يوم ، يزداد إيمانى ويقينى بخصوصية القص العربى بتفرد أشكال الحكى ، وما موقعنا الآن من هذا التراث الخصب إلا كواقف على شاطئ بحر هند ، مجهمول ، لم يكتشف بعد . لم تدرك بعد كُل دُره ونفائه .

أقول هذا بعد طول ممارسة ، وطول اطلاع وسبر جاهل طال انقطاعنا عنها ، منذ أسباب لزمت كتاباً جديداً ، تقىساً ، صدر منذ عامين في صنعاء اليمن ، واستغرق هذه المسافة الزمنية الممتددة حتى وصل إلى القاهرة بشكل استثنائي خلال معرض القاهرة السنوي ، وسقىاً لأيام خواں بعيدة جداً ، لم تكن فيها طائرات ، ولا وسائل نقل الكترونية ، كان المخطوط ينسخ في الأزهر أو الزيتونة ، أو القروين ، أو دمشق ، أو بسوق الوراقين في بغداد ، فيصل أطراف العالم العربي أو الإسلامي بعد أوقات جد قصار ، الأوقات التي تستلزمها حركة الجبال والقوافل لا غير ، لم تكن هناك رقابة ، أو معاملة للكتاب على أساس أمني ، هكذا وصل بنا الحال في عصر التقدم ، لكن هذا موضوع آخر ، التفصيل فيه يطول ، والخوض فيه ذو محاذير ، فلنرجحه . لعل وعسى ، ولنتوقف لحظات عند هذا الكتاب .

\* \* \*

« جموع المقامات اليمنية » ، جمع وتحقيق ، عبد الله محمد الحبشي ، يضم ثياباً وثلاثين مقامة فريدة ، تختلف تماماً عن مقامات بديع الزمان المهداني والحريري والزنجيري ، وما وصلنا من مقامات أندلسية ، اختلاف لا يقتصر على الشكل فقط ، ولكن في المضمون أيضاً ، واليمن بلد غنى ، ثري بالتراث ، منه جاء كتاب « التيجان » لعبيد بن رية الجرهبي ، الذي أعتبره عملاً فنياً ، روائياً ، شديد الخصوصية ، وما يزال التراث القديم حياً يُروى في القرى التي تقف عند الحد الفاصل بين القمة والهوة ، بين المادة والفراغ ، أو على سفوح الجبال ، راقد في بطون المخطوطات القابعة في خزانة الجامع الكبير بصنعاء ، أو هذا المسجد العتيق المدثر بالزمن في بلدة « مُشلاً » ، والذي ما زال لون الضوء في فراغه الرخيم يتراءى أمامي ،

سواء وليت شرقاً أو غرباً ، أوازرت مكائس ، كل ما أرجوه أن تتوالى جهود جمع التراث اليمني التي يقودها واحد من خيرة المثقفين العرب ، الدكتور عبد العزيز المقالع ، قبل أن تطمر بوسائل التحديث ، التليفزيون ، السينما ، وما شابه <sup>١</sup>

كان لأهل اليمن تقدير كبير لمقامات الحريري ، وفي كتبهم الأدبية تناول الإشارات إليها ، يقول من ترجم للعلامة أحمد بن عمر المرجد المتوفى ٩٣٠ هجرية .

« كان إذا سئم من القراءة والمطالعة استدعي بمقامات الحريري فيطالع فيها ويسعى طبق المخلوي . . . »

ونمضي مع شروح أدباء اليمن لمقامات الحريري ، فنجد لها تقرير في دروسهم العلمية وبرغم تأثيرهم وإعجابهم بها ، فلم يقلدوها عندما شرعوا في إنشاء مقاماتهم هم ، في المقامات اليمنية لا يوجد بطل واحد محوري ، مثل « أبو » الفتح السكندرى وعيسى ابن هشام عند المدائى ، أو الحارث بن همام « وأبو » زيد السروجي عند الحريري ، في اليمن نفاجأ بتنوعية جديدة ، بطلها فريد ، ليس في الأدب العربى وإنما في إطار الأدب العالمى ، مرة يكون البطل إنساناً عاقلاً ، ومرة يكون حيواناً ، ومرة يكون جاداً ، أو عنصراً من عناصر الطبيعة كالماء أو البحر أو عنصراً معمارياً كالمسجد والبناء ، أو مكانياً كالضاحية والمقاطعة ، ويضفي المؤلف على هذه العناصر أحاسيس إنسانية ، وينطقها بمشاعر شتى ، وهذا أمر فريد ، ولتوسيعه يجب استعراض موضوعات المقامات .

\* \* \*

المقامة الأولى بعنوان « المفاخرة بين الشمعدان والقنديل » . ويغلب عليها الطابع المغرى ذو الطابع الديني ، وتنتهى بالصالحة بين الطرفين المتنازعين بعد أن يستعرض كل منها مزاياه ويتقد عيوب الآخر ، يرجع تاريخها إلى القرن السابع الهجرى ، أما مقامة « كاشف الغمة في المفاخرة بين النخلة والكرمة » فيدور الحوار فيها حاداً ، ويستعين كل طرف بالأحاديث النبوية ، والأيات القرآنية ، ويتصدر المؤلف محمد بن أبي القاسم النجدى ( ٨٢٥ هـ ٨٧٤ هـ ) للكرمة .

« فلما قرع النخلة ما خرس لسانها عن الجواب وعلمت أنه ذهب بها عن منهاج الصواب ، أخذت تلوم نفسها حيث لا ينفع الملام والباحث عن حثته بظفنه جدير بأن يلام . . . » .

وفي « المقامة المنظرية » لإبراهيم بن محمد الوزير ( توفي ١٠١٣ هـ ) ، وفي مقامة « أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب » للأديب عبد الله بن على الوزير ، نجد طرق المقامة مكائين ، فالروضة وبئر العزب ضاحييان لصنعاء ، وهناك مقامة أخرى حول نفس

الموضوع للأديب الخفجي (توفي ١١٨٠ هـ) ، أما مقامة «الطراز المذهب» لابن أبي الرجال (توفي سنة ١١٣٥ هـ) ، فابطأها مساجد تشكو أحوالها بعد نضوب أموال الأوقاف ، والصياغة على مستوى فني عال ، يعتمد على الحبكة الفنية والخوار الأدبي رفع المستوى ، وفي المضمون قدر هائل من الجرأة في نقد الأوضاع نشك في أنه يمكن تحققه في أدبنا المعاصر خشية ردود الأفعال والمصادرة وضيق الأفق الذي استشرى في حياتنا الأدبية والفكرية .

\* \* \*

«فقصد مسجد (جناح) وأوضح له الشكية غاية الإيصال ، وطلب منه أن يواسيه أو يشير عليه بالتصححة أو يوسيه ، فأطرق (جناح) إطراق الأفعوان ، ثم رفع إليه رأسه بعد زمان وقال : قد عرفت ضعف حالي وركة مسعاك وخيبة آمالك ، وأنا وأنت من زمن الأتراء ، ولا يريد لنا الناظر غير الهاك ، فنزل نفسك منزلة الغريب وسيأتيك الفرج عن قريب ، فكم كربة في غربة ، ومنية في أمنية ، وهكذا حال الغريب إذا ظعن عن الوطن والخبيب . . . .

يشكو مسجد آخر ولكن شعراً في مقامة نظمها عبد الله الشامي ، وتشكو مساجد الحديدة شعراً في مقامة أخرى نظمها صائم الدهر الأمدل ، ونلاحظ هنا جرأة أدباء اليمن في النقد الاجتماعي والسياسي ، ويضفي الخوار بين أطراف متعددة حيوية وطراقة على النص الأدبي . ومن أغرب المقامات تلك التي جرت على ألسنة الحيوانات .

\* \* \*

كتب الأديب يحيى بن إبراهيم جحاف (توفي ١١١٧ هـ) مقامة على لسان بقرة ، وسماها بقرة السيد إسحاعيل بن محمد زين العابدين ، يقول :

«وكانت من المتكلمات على رب العالمين ، جوابة ، طوافة ، كثيرة التنقل من حافة إلى حافة ، قالت : خرجمت في بعض الأيام من السافل لانقطاع فضلات المأكل ، والتعرض لما يسره الله من الغساول ، فهاربت أطلب المعيشة وانقل من ريشة إلى ريشة ، حتى شاعت في المقالة وعرفت بالبقرة الجلالة .

وتنقضى البقرة تقضى لقاءها بقرة أخرى ، ويدور حوار جاف بينها ، وتحتمي بقرة السيد إسحاعيل قائلة .

«وخرجت من عندها وقد يبس ريقى وجهلت طريقى ، ورأيت عدوى في ثياب صديقى ، وجرت من عينى دمعة ، وفعلت لي في العالم سمعة ، وليتها قربت لي قليلاً من

الرقعة . ونويت أنني لا أوجه إليها الكلام ولا أسلم عليها ما حييت السلام ، ولا أعود إليها ولا أعود إليها . . .

وللأديب نفسه مقامة أخرى في الكتاب ، بعنوان « مقاومة في انقراس الدولة المغولية ، وفيها نجد درجة رفيعة من التشرى العرى ، أما مقامة إحراق الكتب فمن النصوص الجميلة الفريدة ، لذا اتوقف عندها قليلاً . . .

\* \* \*

كتبها محمد بن إسماعيل الأمير ( ١٠٩٩ هـ - ١١٨٢ هـ ) ، يبدو أنه كتبها بعد حادثة تعرضت فيها الكتب الأدبية للأضطهاد ، يقول في مفتتحها :

« الحمد لله المودب بأحسن الأدب ، والصلة والسلام على من قال « إنه لا يذهب بالنار الأدب الأدباب » وعلى آله الذين آدابهم الطف من « نسمة السحر » في الروضة الندية ومحاكيتهم أللهم من الحدائق الوردية . وبعد فإنه ورد إلينا سؤال داعم العين لاطيًّا للخدود . قائلًا « يتيمة الدهر » قد أوردت النار وبشس الورد المورود . طالبًا للجواب فيها يلزم من ارتكب هذه العظيمة وما جزاء من عذاب بالنار تلك يتيمة . فاقول : إن صح ما قاله من تحرير تلك العذراء التي من ( الحور العين ) ومن إلقائها في النار كأنها من قرناء الشياطين ، فاقسم بـ ( دمية القصر ) مقلدة ( بقلائد العقيان ) و ( سلافة العصر ) ، يديرها الفتمع بن خاقان ، لقد ذوى ( ريحانة الأدب ) و ( روضة المشتاق ) بها ارتكب من عظيم التمزيق والتحرير بالإحرق ، وأقلعت سحب ( الغيث الذي انسجم ) . وصاحب ديوان الأدب : يا الله للMuslimين ، أيها فيها بينكم الأدب ويئض ؟

ويمضي الحوار على ألسنة أشهر كتب الأدب العرى ، إلى أن يقول المؤلف في النهاية :

« إن هذه الجنائية تقصّر عن جواب السائل عنها على إه الرواية والدرائية ، وأنه بحدير بان تسفك فيه دماء المحابير وترق ، وأن تقوم الحرب بين ذوى الأدب منهم على ساق ، فلينفضل السائل المقال ، ولويوضع من أى الطرفين وقع السؤال ، بعد أن يصل ويسلّم على محمد وآل خير آل . . . » .

\* \* \*

ونمضي مع المقامات اليمنية ، « براهين الاحتجاج والمناظر فيها وقع بين البندق والقوس من المفاخرة » لإبراهيم الهندي ، و « المفاخرة بين الشمعة والسراج » لحسين بن صالح ابن

محمد أبي الرجال ، «المفاحرة بين العجائز والبنات» لعلى الحفنجي و «المفاحرة بين العنب والخل» لمحمد الأمير ، و «المفاحرة بين القرط والعقد» لمحسن بن عبد الكريم اسحاق . و «مسامة الرفاق في مناظرة القات والتبايق» للفقيه عفيف بن هبة القاضي ، و «المفاحرة بين الشور والخيار» لعمر بن عبد الله المعلم ، هكذا تنطق كل عناصر الوجود ، المتكلم منها والأعمجم ، عناصر البر والبحر وهذا الشكل من الإبداع ليس منبت الصلة بالأدب العربي . في الأقطار الأخرى ، نجد ملامح فريبة في مقامات السيوطي ، وفي التراث العربي الأندلسي نجد نصاً لابن الخطيب يتضمن مفاحرة بين بلدتي مالقة وسلا ، وثمة نص آخر لابن عبد الظاهر يتضمن مفاحرة بين دمشق والقاهرة ، ويشير عبد الله الحبشي جامع المقامات اليمنية أن هذه النماذج السابقة لم تصح في شكل قصصي ، إنما كتبت مباشرة على هيئة حوار ، أما المقامات اليمنية فتتضمن صيفاً أدبية قصصية فريدة ، ومتكاملة ، ولكن نعمت الاهتمام بها ، وإعادة اكتشافها ، أم .. لا بد من الانتظار حتى يقع عليها أحد الباحثين في الغرب ، عندئذ تبدل النظرة ، وتتضطلع القيمة التي تغيب عن الكثرين الآن ؟

## زخرفة .. الف ليلة

مدينة فاس ، ١٩٧٩ ..

أحد أيام ديسمبر ، أى منذ خمس عشرة تقريرًا ، وقفت في فناء مدرسة العطارين ، أتأمل النقوش التي تغطي الجدران ، قطع الزليج الدقيقة . المختلفة ، التي تشكل وحدات زخرفية رائعة ، متصلة ، منفصلة ، لا نهاية ، تبقى الناظر إليها في تأمل دائم ، أما المقرنصات الجصية ، والخشبية ، فتتراءكم في تجاور بديع ، لا يلغى خصوصية كل منها .

يومها انبثق داخل الخاطر ، لو أتنى أقدر على تحقيق ذلك في الشر ، أكون حقًا أنيجزت أمراً فريداً ، على مستوى اللغة ، أو على مستوى التكوين ، وبالخصوص ، المعمار الروائي ، ولأنني أؤمن أن الرواية هي فن كل الفنون ، لم يزل هذا دأبي ، وجواهر جهدي ، يدفعني إلى ذلك الرغبة في تحقيق الخصوصية ، من خلال عناصر مختلفة ، متصلة أو تمقن الصلة بالمضمون ، بمشاعري ، برؤىي للحياة والكون ، ومحاولتي النفاذ إلى كنه الصيورة . صيورة الزمن ، والوقت .

ومع معايشي لـ ألف ليلة وليلة ، اكتشفت أن القصاصون القديم حق هذا بالفعل ، وأن الرؤية التي كانت تحكم الفنان العربي المسلم ، سواء كان خطاطاً ، أو رساماً ، هي نفس الرؤية التي كمنت في عمل الرواى القديم المجهول الذى صاغ هذه الحكايات . أو تلك الملاحم الكبرى ، مثل الهمالية ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، وذات اهمة . وعنترا . واستمر في التوقف عند ألف ليلة وليلة التي اعتبرها ذروة فن القصص العربي ، وعندما أقول العربي ، فإنسى أعني التراث الثقافي والفنى الداخل في عناصر تكوين الثقافة العربية . والمتسمى إلى حقب تاريخية مختلفة ، وديانات متعددة ، وحضارات متباينة ، متجاورة . ومسئيات .. وآفة ، متفاعلة من ثقافات أخرى .

\* \* \*

يقول الباحث التونسي الأستاذ على المواتي ، إن التجريد الزخرفي ، بدأ من تبسيط

الأشكال النباتية ، بدأ هذا الفن انطلاقه في العصر العباسي ، وتحول الفن الإسلامي في جزء كبير منه إلى فن نقشى يجسد كلام الله . نашراً آياته فوق كل شىء يصنعه الإنسان ، كما أصبح فناً للزخرفة النباتية وال الهندسية ، زخرفة مطلوبة لذاتها ، لا لمجرد التزيين . وهو أيضاً فن خصب ومتتنوع بشكل مذهل ، ويرمى هذا التزييق بتنويعه المفارق ، وإيقاعه المتواصل « ذهنياً » خارج المادة التي تحمله ، إلى إيجاد متعة متقطعة النظير ، تتصل بالتأمل في الله ، المقتدر غير المحدود الذي يعجز الإنسان عن وصفه ، وذلك بعيداً عن أي شكل طبعى معروف ومحدد ، يمكن أن يلهى الإنسان عن وجهه الكريم .

لقد أدت النصوص المقدسة والقائلة بتحرير الشبيه إلى إيجاد فن بالغ الخصوصية قائم بذاته ، ولا يتعارض مع أحاديث النهي عن التصوير ، لقد بحث الفنان المسلم إلى عدد من الأساليب التشكيلية التي ترمي إلى الابتعاد عن نقل الواقع كما هو إلى الصورة .

ويرى الباحث الأردوبي الكسندر بابا دبولي ، أن الفنان المسلم تكيف مع مطالب النهي الديني ، وأدى هذا إلى تصور خاص جداً للعمل الفنى في الحضارة الإسلامية وهو أن هذا العمل ينبغي ألا يكون مرأة أمينة للعالم المرضى ، بل عالماً خاصاً من الأشكال والألوان يتحكمه منطق تشكيلي داخلى . ويسؤكد بابا دبولي في بحثه الذى ناقشه في جامعة السوربون وترجم مقدمته على اللواتى « أن الفنان المسلم قد اخترع جالية الفن الحديث قبل ستة أو سبعة قرون وأن « جوهر كل فن وقانونه الأساسي هو أن يكون عالماً مستقلاً وألا يخضع إلا لمنطقه الخاص » .

\* \* \*

عندما صاغ الفنان التشكيل المسلم رؤيته تلك ، كان يستمد عناصرها من التراث الإنسانى القديم ، وإذا نظرنا إلى الأشكال الرئيسية في فن الزخرفة العريسى سنجد أصولها في ثقافات العالم القديم .

المربيع ، أصله يونانى ، ويرمز إلى العناصر الأساسية الأربعية التراب ، الماء ، الهواء ، والنيران .

أما المثلث فينحدر من العصر الفرعونى ، يعبر عن الصلة بين السماء والأرض . بين البداية والنهاية التي تتلاشى في نقطة من الفراغ ، نقطة اتصال المادة بالروح ، ليس هذا ما يوحى به بناء مثل الأهرام . واعتقد أن المثلث الفرعونى هو الأصل التاريخى المنجمة السادسية التي أخذها الإسرائيلىون واعتبروها رمزاً لهم .

أما الدائرة فأصلها مصرى وهندي ، ترمز إلى الشمس ، إلى أفق السماء ، إلى الوحدة ، إلى البداية والنهاية ، إلى الاتصال والانفصال ، في كل نقطة من محيطها تبدأ وتنتهى أيضاً . تماماً

كثرة الحياة ، كالحياة التي تتضمن الموت والموت الذي تبعث منه الحياة . إنها المحيط الذي يدور حول المركز ..

فلنعتبر أن الحكاية التي تبدأ منها قصة شهرزاد نفسها هي مركز الدائرة ، وهي منطق الخط المستمر ، اللانهائي ، الذي يحيط ويختخل أيضًا ما تجريه الليلى من حكايات .

داخل الدائرة يمكن أن يتسم في فراغه تشكييل المربع ، والمثلث ، وشبيه المحرف ، والمستطيل ، ثم تتجزأ المساحات الناشئة إلى مالا نهاية ، أما شكل التلوب ، المستوحى من كرمة العنب فأصله سومري ويوناني ، أما المخمس فيونانى ، والثمن فينسب إلى الخاتم السليمانى .

ثم تقابلنا بقية الأشكال من عقد ، وضفائر ، وأطباق نجمية ، وشبكات ، وختلط المؤثرات المتصدرة من فنون العالم القديم ، منصهرا في رؤية الفنان المسلم الجديدة ، التي حققت بالفعل الخصوصية ..

\* \* \*

لا يعني ثبات هذه الأشكال جمود الفن الإسلامي الزخرف ، ومضييه وفقاً لقواعد عديدة ، إنها كان همُ الفنان وشغله الشاغل البحث عن تكوين جديد يبتكر يتولد عن تماس قواطع الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتتوالى باستمرار في حيوية وتدفق لانهائي . ويقابل هداف الف ليلة الوحدة والتنوع ، فالعمل يحفل بمعنات القصص التي تختلف شكلاً ومضموناً . عوالم متتابعة ، تبدو متصلة ، لكنها مستقلة .

في الرسم الزخرفي الإسلامي ، تتأمل الوحدة ، وفي اللحظة التي يخلي إليك أنها انتهت ، تفاجأ عند نقطة معينة في الفراغ أن الوحدة التالية تبدأ . تماماً كقصص ألف ليلة وليلة . إذ توشك الحكاية على التمام ، على الاكتمال ، تبدو جهة وكأنها عارضة ، يضرب مثل وكأنه قيل مصادفة ، كلمات قليلة لكنها تؤدي إلى بداية حكاية جديدة ، والداعف يكون غالباً الحكى من أجل النجاة .

شهرزاد تقصد كل ليلة ما يقرب من ثلاثة سنوات متصلة حتى تندى نفسها ، وبنات جنسها .

التجار الثلاثة ينكى كل منهم ما جرى له ، مع الغزال ، والكلبيين ، والبغلة ليغفر الجنى عن صاحبهم . هكذا الأمر في قصة الحمال والبنات الثلاثة . هذه القصة التي أدعوا المخصصين إلى دراستها . وتحليل عناصرها ، ومقارنتها بالأشكال الزخرفية العربية ، مبدئياً .

سنجد أنها تحتوى على انتهى عشرة حكايات متداخلة ، تشبه النجمة الزخرفية الأنثى عشرية . لكن هذا التقسيم ليس نهائيا ، فلو أمعنا النظر سنجد أنه من الممكن تجزئ هذه القصص المتداخلة إلى أخرى . وعندما توشك القصة المركزية المحيطة على الانتهاء ، تبدأ قصة التفاحات الثلاث ، ومنها تتفرع حكاية المرأة التي قتلت ظلها ، وحكاية الوزيرين نور الدين المصري ، وبدر الدين البصري ، ومن ثم حكاية حسن البصري ، ثم حكاية ابنته . وحكاية زوجته ، ثم تبدأ قصة الأحذب الذي يتهمن بقتله أربعة الواحد تلو الآخر ، لكل منهم حكابته ، آخرهم المزين الذي يقصص سبع قصص ، كل واحدة تتعلق بأحد . أخواته ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، حتى وإن بدا ثمة خاتمة فإنها تتضمن بداية جديدة .

\* \* \*

تفضي الخطوط في فن الزخرفة العربي وفقا لنظام خفى ، صارم ، لكنه تلقائى أيضا ، يتقطّع الخط بالخط عند نقطة معينة فكأنه تقابل المصائر ، وفي اللحظة التي تلتجم فيها النقطة بالنقطة ، يقع الفراق ، فتختلط الخطوط وجهات شتى .

وخلال هذا التلاقي والتفرق تتوالد الأشكال المختلفة . من مربعة وخمسة وستة ، من هندسية وأخرى مورقة . إن الغاية من التكوين هنا هي التعبير عن الكل . وليس إبراز شكل معين للذاته . لكن هذا الكل أيضا يحتوى على الموجودات ، والتفاصيل الصغيرة ، الدقيقة ، وربما يفسر هذا المظور الإسلامي في التمنيات التي تزين المخطوطات القديمة ، حيث تتجاوز المستويات ، ويترفع كل منها عن الآخر ، فترى الواقع في جملته ، وليس في محدوديته ، وإن لم يغب عن الناظر أدق التفاصيل .

\* \* \*

من خلال معايشتى لألف ليلة وليلة ، أقول بوجود صلة وثيقة بين فن العمارة الإسلامية ، وفن الزخرفة العربي ، صلة نتاج تكوين خاص ورؤى لعل إدراكها والوعى بها يسهمان في فهم عناصر القصص العربي واستيعابها من أجل الوصول إلى أشكال خاصة تسهم في إتاحة فرصة أكبر ومساحة أوسع للتعبير .

ما طرحته يمثل الخطوط العامة لاجتهدات شديدة الخصوصية تبلورت عندي أثناء معايشتى لهذا العمل الفذ الذي أزعم أن أسراره لم تكتشف بعد . ربما أصبت ، ربما أخطأت ، لكننى في كل الأحوال أشير وأحاول لفت النظر .

## مدينة ألف ليلة وليلة

منذ فترة ليست بالقصيرة ، أحايش ألف ليلة وليلة ..

لا أقول قراءة ، وإنما معايشة . هذا دأبى مع القصص الأدبية العظمى . إن في أدبنا العربي . أو الأدب الأخرى ، عرف معظمنا ألف ليلة وليلة منذ الطفولة ، سفر حكایات وأعجیب . ومع بدايات المراھقة كنا نطالع سطراً قليلاً تحوى إشارات جنسية ، سطور جعلت الكتاب منبوداً إلى حد ما حتى بعد حذفها من الطبعات الحديثة . بدأت فوضعت أمامى طبعات ثلاثة رئيسية اجتهدت زمناً حتى اقتبستها ، طبعة كلکتا ، طبعة بولاق ، وأخيراً .. طبعة الدكتور محسن مهدي ، بدأت من الأخيرة مع أنها صدرت منذ سنوات قليلة ، وأين .. في بريد ، دار النشر المولندي العتيقة التي أصدرت عدداً من أهم المصادر العربية . هذه الطبعة تحوى أقدم نصوص مكتوبة ، عن خطوطات حفظة في المكتبة الوطنية بباريس ، وأخرى توزعت على العديد من البلدان ، وفي حدود علمي لمحاولة الدكتور محسن مهدي الأولى من نوعها لضبط وتحقيق أصول النص . أما طبعة كلکتا فهـى أقدم طبعة للكتاب (١٨١٤) . أما طبعة بولاق (١٨٣٥) فـهي أشهرها ، لأنها كاملة ، لأنها اعتمدت أصلاً خطياً واحداً ، ولست هنا في مجال تقييم الطبعات الثلاث ، أو تقييم الجهد العلمي الرائع الذي قام به الدكتور محسن مهدي ، إنما أشير فقط إلى بعض الانطباعات المخالفة المتولدة نتيجة معايشتي لهذا النص العالمي ، الذي تأثر به الأجانب أكثر مما تأثرنا نحن به ، والحقيقة التي تدعى الآن ، هي انعكاس الفنون العربية والإسلامية على تصميم الكتاب وبنائه الداخلي . بالتحديد ، العلاقة بين تصميم المدن العربية وفن الزخرفة العربي . وبين تصميم ألف ليلة وليلة .

\* \* \*

القاهرة القديمة ، فاس البالية بالغرب ، مراكش ، صنائع العتيقة ، البصرة مدن عربية عرفتها ، وعايشتها ، في الأولى أمضيت جل عمرى ، وفي الأخرىات تجولت وشاهدت وعاينت ، في عام خمسة وثمانين وتسعمائة ألف وحيث قصبة تونس ، شارع رئيسي مزدحم ،

عربيض ، تماماً مثل قصبة القاهرة التي كانت تصل بين بوابتها الرئيسية وقلعة الجبل ، هذه الطرق الفسيحة ، يتفرع منها خطوط ، جمع خط ، أى طرق طسوية تحيط بناحية متكاملة ، وهذه الخطوط تؤدى إلى بوابات ، كل مدخل إلى حارة ، والحارة داخلها مجموعة من الدروب ، والدروب تتفرع إلى أزقة ، أو زنقات كما تعرف في المغرب ، وأحياناً تحتوى على عطفة ، هكذا يتولى تصميم المدينة العربية القديمة من الأفسح ، إلى الضيق فالأضيق ، طبعاً هناك مركز ديني وهو المسجد الجامع ، ومركز دنيوي هو قصر الحاكم أو القلعة . هذا تصميم لم يأت من فراغ ، إنما هو نتاج ظروف اجتماعية ، ومناخية ، ومعمارية ، وعسكرية ، ألم تؤدى مظاهرات قصبة الجزائر إلى جعلها مقراً للمقاومة ، صعب على الجند الفرياء اختراقها ، نفس الوضع راجهه نابليون في القاهرة القديمة مما دفعه إلى محاولة إزالة أبواب الحارات . في الطرق الكبرى تتنظم الأسواق ، هنا يجتمع المجموع ، يجده الناس حاجاتهم ، ولكن بيوقهم هناك في داخل الحارات والأزقة والدروب ، حيث الحيوانات الخاصة ، حيث يتجه العالم الكبير إلى عوالم صغيرة ، أما هذا التصميم فيؤدى إلى حجب الرياح المثيرة للأثيرية ، الحارة ، إلى كسر حدتها ، إلى ميل الظل على الظل ، إلى الرحة بالملارة ، والخد من التيارات الباردة في الشتاء ، تصميم يبدأ من الكلى ، وينتهي ، حتى يدق وينهيل إليك أنه سينتلاش فيبدأ عندئذ من جديد .

إذن .. كيف يبدو الأمر في مدينة ألف ليلة وليلة التي تحيى البلاد والمحيطات والمعابد والغرائب ، والمصائر والحيوات ..

\* \* \*

المركز . أو البؤرة هنا ، حكاية الأخوان المكان ، الأول يرى امرأته تخونه مع عبد أسود ، يخرج فاصداً أخاه ، يسعى إلى إيجاد تفسير ما جرى له ، وهناك يرى الجواري العشر ومعهن امرأة أخيبة مع العبيد السود ، ومن يرى مصيبة غيره فهو عليه مصيبته ، يمكن لشقيقه ما جرى ، فيخرج حسان هائمين ، وفي البر الفسيح تبدأ حكاية العفريت الذي وضع معشوقته في صندوق محكم ، والشى تنتهز فرصة نومه لتجبر شهريار على مواقعتها . وبعد أن رأى شهريار ما رأى يعود إلى ملكه كارها النساء ، مقرراً الزواج من المرأة ليلة واحدة فقط ، حتى تطوع شهريزاد للزواج منه ، مضمراً الخطة والنية على إنفاذ بنات جنسها ، وإذاء إصرارها يمكن لها والدها حكاية الحمار والشور ، تصر على قرارها ، فيبحكى لها حكاية أخرى ، يريد إنفاذها بالحكاية وهي تضمر النية نفسها أيضاً ، تزيد إنفاذ نفسها وبنات جنسها بالحكاية أيضاً ، فهي تحكى لكن لا تموت . وهنا سر تولى الليل ، وليس فقط التي تفعل ذلك ، ولكن معظم الشخصيات التي تروى سيرتها يقدمون أيضاً على الحكى حتى لا يموتون ويتزوج شهريار

من شهرزاد ، وتطلب هى من أختها دنيازاد أن تطلب منها قص بعض ما تعرفه ، هكذا تبدأ الليل ، وهكذا تم الحكاية المركز ، والتى هي أيضاً بمثابة المدخل ، البوابية الرئيسية المؤدية ، أو السور المحيط ، المترف ، وهذه البوابة ، أو هذا السور ، ليس كلاً واحداً ، إنما يضم أجزاء عدّة أيضاً . ولكنها أدق ، تؤدي في جموعها إلى الجزئي أيضاً ..

\* \* \*

تبدأ الليل في أقدم نصوصها الخطية بحكاية التاجر الذي رمى نواة البلح فقتل جنّيًّا بدون أن يقصد ، وظهور والد الجنى الذي يتوعده بالقتل ، فيطلب التاجر مهلة سنة حتى يعود إلى أهله ويسدد ديونه للناس ، وبعد سنة يرجع فعلاً إلى نفس الموضع ويجلس متظراً وهنا يقدم عليه ثلاثة شيوخ لكل منهم حكاية غريبة ، يرجو كل منهم الجنى أن يصنف إلى ما جرى له ، فإذا وجده غريباً يهب له ثلث دم التاجر ، وتتفصّل أمامنا ثلاث حكايات ، حكاية الشيخ الأول وأمرأته التي سحرته إلى غرالة ، والثانية وأخويه المسحورين كلبين ، والثالثة وابنة عمه المسحورة إلى بغلة ، تؤدي الحكايات الثلاث المترفة إلى إنقاذ التاجر .

هكذا . تنتهي خطة أو حارة ، لكنها ليست ستّاً ، إنما تؤدي إلى حارة أخرى ، ونقطة الأصل عبارة ترد على لسان شهرزاد « وليس هذا بـأعجّب من قصة الصياد والغُرفت » ، أو « أين هذا مما سأحدّثكم به الليلة المقبلة » ؟ .

تبدأ الحارة التي تضم حكاية الصياد الذي أخرج الغُرفت من القمقم ، فقرر الغُرفت أن يكافئه باختيار طريقة ملوته ، يتحايل عليه الصياد حتى يعيده إلى القمقم . ويرجوه الغُرفت الإفراج عنه ، وهنا يتفرع درب من الحارة الرئيسية ، يحوي حكاية يرويها الصياد عن الملك يونان ، ولكن هذا الدرب يتفرع إلى آخر ، فيه حكاية التاجر والبيعاء التي يرويها الملك يونان نفسه . وهذا الدرب يؤدي إلى رحبة صغيرة يخرج فيها الغُرفت من القمقم ، بعد أن يقرر مكانة الصياد ، ثم تتفصّل الرحبة إلى عدة دروب وأزقة متداخلة ، فالغُرفت يقود الصياد إلى بركة السمك الملؤون ، « ومنها يأخذ الصياد أربع سمكّات إلى السلطان ، لكل سمكة حكاية ، هذا يقود إلى حكاية الشاب المسحور ، ثم إلى حكاياته مع زوجته التي خانته ، ثم حكاية المدينة المسحورة التي تقع على بعد نصف نهار .. عند ذهاب الصياد بمفرده إليها ، ولكن عندما يصاحب السلطان ويقف على ما جرى فيها ، يكون الراكب كله في حاجة إلى سنة كاملة للعودة . (لتتّظر هنا إلى تحطيم الزمن والمسافات المكانية ، ولكن هذا موضوع آخر) .

ينتهي الخط الذي يحوي حكاية الصياد الغُرفت ، هذا الخط الذي تفرعت منه حكايات شتى ، كل منها بمثابة حارة ، درب ، زقاق ، عطفة ، رحبة ، تبدأ حكاية أخرى من أجل وأعقد حكايات ألف ليلة ، وهي حكاية الحال والثلاث بنات .

يلتقى الحمال بـأحدى البنات في السوق ، تقوده إلى البيت حيث شقيقتيها ، يشترطن عليه إلا يتكلم عنها يشاهده ، ثم يصل القرنديان ، ثم يصل الخليفة هارون الرشيد وزيره ، وهارون الرشيد شخصية تتكرر كثيراً في حكايات ألف ليلة ، إن ظهورها يمثل أحد عوامل الوحيدة في هذه المدينة المأهولة ، أو النغم الذي يتكرر على مسافات معينة ليؤكد وحدة العمل ، وتماسكه .

البنات يصرخن ، يصربن بعضهن ، ويجلدن الكلبتين السوداويين ، الخليفة لا يطبق صبراً يريد أن يعرف حكاياتهن يدفع بالحمل إلى قلعة القرنديان كى يسأل ، البنات يغضبن ، يستدعيهن العبيد السود السبع ، يأمرنهم بقطع رقاب الضيوف ، ولكنهن يستفسرن عن سبب عور القرنديان ، فتبدأ حكاية القرندي الأول ، كيف فقد عينه على يد الوزير؟ ومنها تتفرع حكاية أخرى ، عن ابن عم القرندي ، ثم تتوالى حكايات القرندي الثاني ، ثم الثالث والتى يرد فيها ذكر جبل المهاطيس ، والقصر المعلق في الهواء ، والجوارى الأربعين ، والباب التاسع والتسعين .  
بعد انتهاء حكايات القرنديان الثلاث ، تقصن البنات الثلاث ما جرى لهن ، وتنتهي حكاية الحمال والثلاث بنات . ولكنها لا تؤدى إلى جدار مسدود ، إنما تبدأ منها حكاية التفاحات الثلاث .

هكذا تتوالى الحكايات ، منها الرئيس ، والفرعى ، كل حكاية تؤدى إلى الأخرى يبدو الأمر تلقائياً ، وكأنه بدون ترتيب ، أو يخضع لتداعٍ تلقائى ، ولكننا إذا أمعنا النظر سنجد نظاماً عكياً . صارماً ، ربما لا يفصح عن هندسة البناء وحركته . والتجاهات القارئ المتعجل ، أو الذى لا يقرأ ألف ليلة وليلة قراءة عميقه جادة ، متعمقة ، غير متأهبة بنفس القدر الذى يتم به التأهب للتعامل مع نص أدبي نقل إلى لغتنا مما تعارفنا على تسميته بالأدب العالمى ١١

\* \* \*

.. في النص الذى حققه الدكتور محسن مهدى قصستان مستقلتان ، لا يتسرعان من حكايات فرعية ، إنما يتصلان بالحكاية الإطار ، الحكاية الكبرى التى محورها شهر زاد نفسها ، إنما حكاية ابن بطار والجارية شمس النهار ، وحكاية أئيس الجليس ، ونور الدين ابن خاقان . أىى اعتبرهما بمثابة ضاحيتين لمدينة ألف ليلة وليلة الكبرى ، ضاحيتان منفصلتان لكنهما متصلتان .

« ولكن علاقة النص الأدبي بالمدينة العتيقة . لا يمثل الوجه الوحيد للتفاعل والتشابه بين الفنون العربية المختلفة ، هناك فن الزخرفة ، وتكويناته ، ووحداته المشعبة المنفصلة ، المتصلة ، وهذا حديث آخر ، أبسط فيه بعضـاً من انتباعاتى المتولدة نتيجة معايشة نص أدبي رفيع ، أتصور أنه ذروة ما قدمته الإنسانية من فن الحكى والقص .. ٤ .

## حق الطريق في الإسلام

الفوائد النفيضة الباهرة  
في بيان حكم شوارع القاهرة

يقول أبو حامد المقدسي الشافعى في مقدمة رسالته الصغيرة ما نصه :

« وبعد ، فقد وقع أوائل سنة التسعين وثمانين بالقاهرة المحروسة حوادث عجيبة ونواذر غريبة كلها بإدارة الملك الظاهر ، العزيز الجبار ، مكور الليل على النهار ، والعالم بخفايا الأسرار ، فمنها قطع الطريق بالشوارع والأسواق وهم الموانئ والبيوت الخاوية بحرسم المدارس والخواص والمساجد البارزة في الشوارع المانعة للناس من تمام الارتفاع ، فانصلح بذلك قصبة بين القصرين من القاهرة وغيرها من الشوارع بالاتفاق فاتسعت أقطارها وأضاءت ، وانكشف عنها السواد والظلمة وأشرقت وأنارت ، وزال عنها الغم والخصر والغبن . . . . » .

وبسبب ذلك أنه في سنة ٨٨٢ هجرية ، بلغت الأوضاع المعاشرية حداً مزعجاً في مدينة القاهرة . إذ سدت الطرق والشوارع نتيجة قيام عدد كبير من الناس ببناء بيوتهم أو منشآتهم بشكل لم يرأوا فيه ما يعرف في الإسلام بحق الطريق ، عند ذلك قام الأمير يشبك بهدم ما يعرض مسالك الطرق ، وبالتالي ثار بعض الناس الذين لحقهم الضرر ، وهنا أقدم أبو حامد المقدسي على تأليف هذه الرسالة لتوضيح حق الطريق ، الذي يجب أن يتبع كيلاً يحدث غبن أو هضم ، فأشار إلى أحكام الفقهاء وأرائهم في هذا الموضوع ، وتعرض لأنواع الطرق ونشأتها ، كما أوضح الأحكام المتعلقة بذلك .

الرسالة ظلت خطوطها في المكتبة السليمانية بستانبول ، إلى أن أقدمت الدكتورة آمال العمرى حل تحقيقها ودراستها ، وإصدارها في سلسلة المائة كتاب التي بدأها طيب الذكر الدكتور أحمد قدرى رئيس الهيئة المصرية العامة للاثار ، والتي طبع فيها عدداً من الدراسات التاريخية الهامة ، ولكن استمرارها توقف بعد تنحيته عن الهيئة .

هذه الرسالة الفريدة الصغيرة تكشف جانباً هاماً من جوانب الحضارة العربية والإسلامية . وبعيداً يضيئ إنسانيتها .

## حُسْنُ الطَّرِيقِ

لتأكيد وإضفاء الطابع الانساني على المدينة . أشارت تعاليم الإسلام إلى « حُسْنُ الطَّرِيقِ » وحثت على مراعاة ذلك الحق ، ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أشار بهدم ما يعترض الطريق حتى ولو كان مسجداً . راعى حكام المسلمين هذه القاعدة في مختلف العصور ، عند بناء مدينة البصرة سنة ١٤ هـ - ٦٣٥ م ، أشار الخليفة عمر بن الخطاب بالقدر الذي ترتفع إليه المباني ، ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين المباني والطرق المطلة عليها خاصة وأن المباني لا تنشأ في الفراغ اللامباني ، لكنها ترتبط بالشوارع المطلة عليها . وتقول الدكتورة آمال العمري في مقدمة كتابها ، إن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور عند إنشاء مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٢ م ، شكل شوارعها واتساع طرقاتها بما يتناسب وعاصمة الجديدة التي نمت بعد ذلك وأصبحت من أعظم المدن الإسلامية . كان تخطيط المدينة الإسلامية يقوم على أساس مدرورة . وقواعد معتبرة تعكسها تلك الشروط التي حددتها الفكرة الإسلامية ، ومن بين هذه الشروط ما يتعلق بالطرق ، فيذكر شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الريبع في كتابه « سلوك المالك في تدبير المالك على التهام والكمال » الذي ألفه للمخلية المعتصم العباسى ( ٢٢٧ هـ - ٨٤٢ م ) ، ضمن أحد فصوله شروطاً ثمانية يجب أن يتبعها من يريد إنشاء مدينة ، كان منها « أن يقدر طرقاتها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق ، وأن يبني فيها جامعاً للصلوة في وسطها ليقرب على جميع أهلها وأن يقدر أسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حواجزهم من قرب » .

ولعل هذه الشروط كانت أساس تخطيط شوارع المدينة لديهم ، مضافة إلى تأثير التخطيط العام على شوارعها . ونكشف العلاقة بين المباني في المدينة وبين شوارعها عن مدى التزام المعمار الإسلامي بحق الطريق . ومن الأمثلة الحية القائمة حتى عصرنا هذا ما نراه في مقاسات بوابات المدن مثل بغداد والقاهرة ، فرغم المحرص على تحسين المدينة والارتفاع بأسوارها وتقليل بواباتها قدر المستطاع ، يلاحظ اتساع هذه البوابات وارتفاعها . ويدرك المؤرخ العقوبي عند وصفه لبوابات مدينة بغداد أنها كانت مرتفعة :

« بحبيث كان يدخل الفارس بالعلم والرماح بالرميغ الطويل من غير أن يميل العلم ولا يشنى الرميغ . . . . »

نفس الشئ نلاحظه في بوابات القاهرة الباقية حتى الآن والتي أنشأها بدر الجيلى ، إن اتساع بوابات الزويلة والفتح والنصر . إن هذا الارتفاع تطبيق عملي لأحكام الفقهاء . والتي تقول طبقاً لتعاليم الإسلام إن الطريق النافذ مباح فيه المرور لكل إنسان لأنه حق للمسلمين .

فليس لأحد أن يبني فيه أو يخالف خط جاره ، وهذا ما حرص السلاطين المماليك على تطبيقه بحزم في القاهرة ، والرسالة التي حققتها الدكتورة آمال العمرى تلقي أصواته هامة على تلك المبادئ الهامة في الإسلام .

\* \* \*

### الفوائد الباهرة

يقول أبو حامد المقدسي بعد مقدمته . وبعد ذكره تاريخ القاهرة منذ أن احتطها الفاطميين . وبعد استعراض مفصل لما كانت عليه أوضاع المدينة خاصة شارع المعز لدين الله ، يقول :

« وأما حكم الشوارع والطرق بالقاهرة وغيرها من مدن الإسلام فيقول مذهب الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه في ذلك وقد ذكر أصحابه تبعاً له رضى الله تعالى عنهم وعن جميع العلية أجمعين ، المسألة في كتاب الصلح في التراجم في المخصوص المشتركة كالشوارع ونحوها ، فقالوا الطريق قسان نافذ وغير نافذ . أما النافذ وهو المراد بالذكر وهو الشارع المنفك عن الاختصاص فالناس كلهم فيه سواء يستحقون الدور فيه ولا اختصاص فيه لأحد ، بل هو مشترك عام . . . » .

ثم يذكر مؤلف الرسالة ما قاله الإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل والإمام أبو حنيفة ، وكلهم يؤكدون حق الإنسان في الطريق العام ، ثم يذكر ما أجمع عليه الأئمة والفقهاء ، إذ يجوز لكل إنسان أن يفتح الأبواب من ملكه إلى الشارع كيف شاء . أما بناء الدكّة أو المصطبة وغرس الشجرة . فان كان يضيق الطريق ويضر بالمارّة منع منه بل إذا قامست منشأة أو إضافة إلى البناء تتبع عنها إقلال الضوء في الشارع فيمتنع ذلك .

\* \* \*

### العلاقة المتبادلة

محمد الأحكام الفقهية أيضًا العلاقة الوثيقة بين المباني والشوارع المطلة عليها ، والمعروف أن عناصر الاتصال والحركة للمبني لا تقتصر على داخل المبني ذاته ، بل تمتد أيضًا إلى ما يحيط به من شوارع وحارّات وأزقة ، وخاصّة إذا كان للمبني ملحقات أو امتداد في الجهة الأخرى من الشارع ، لذلك كانت السلام الخارجية للمباني تأخذ الوضع الجانبي ، وهذا ما نراه بوضوح في جميع المساجد المملوكيّة العظيمى التي أنشئت داخل القاهرة . . وهنالك نموذج فريد

في القاهرة للحفاظ على حق الطريق . يتمثل في ذلك البناء العلوى الذى يربط جامع قجماس الإسحاقى بالميضأة ويعبره المصلون من أعلى تفاصيلا لغلق أو إعاقة الطريق ، ويعرض هذا الجزء من البناء باسم الساباط . ويقع على ارتفاع ستة أمتار .

وفي مكان آخر نجد نموذجا مختلفا للحفاظ على حق الطريق ، يتمثل في قبور قرمذ الشهير ، والذى ذكره الروائى الكبير نجيب محفوظ فى أعماله كثيرا ، إنه نفق يمتد تحت مسجد الأمير مثقال ، ويضم من استمرارية درب قرمذ الذى يبدأ من ميدان بيت القاضى ويستمر حتى شارع المعز لدين الله .

تقول الدكتورة آمال العمري ، إن الاهتمام بحق الطريق لم يكن قاصرا فقط على داخل المدن ، إنما كان يشمل الطرق الموصولة بين البلدان . فأنشئت عليها الحانات ، ومراكيز البريد ، وحفرت الآبار . وكانت قوة الدول تقاس بسلامة طرقها ، ودرجة تأمينها .

\* \* \*

يقول أبو حامد المقدسى الشافعى نقلا عن الإمام الغزالى إنه من المنكر في الشوارع وضع الأساطين ، وبناء الدكى ، ووضع الأخشاب وأعمال الحبوب والأطعمة ونحوها على الطرقات . ويذهب الإمام أخون بن حنبل إلى حد أنه إذا ضاق الطريق على المارة وبه مسجد ، هدم المسجد أو بعضه لتتوسيعه أى لتتوسيع الطريق .

وبعد أن يستعرض المؤلف أحكام سائر الأئمة والفقهاء ، يختتم رسالته الهامة بقوله :

« وأقول هذا إذا اقتصروا على هدم ما وصفناه ولم يتجاوزوا الحد الذى ذكرناه ، وأما إذا تعدوا ذلك وهدموا ما لا يستحق الهدم شرعا بل لمجرد التشوي وهوى الأنفس ليضىء المكان أو يتسع عن القدر الجائز ، فلاشك أن فعل ذلك والأمر به حرام مطلقا ، ولا يجوز لأحد الإقدام عليه ولا الأمر به ولا الإعانة عليه لما فيه من حصول الضرر للمسلمين من هدم مساكنهم وعمل أوطنهم وإضاعة أموالهم سفها وباطلا وخصوصا هدم أوقاف الضعفاء من الأيتام والفقراء والمحاجين من الفقهاء وقطع أرزاقهم من ذلك أو ضعفها التى قد أجرأها الله تعالى لهم على يد من اختاره من عباده » .

هكذا تكشف هذه الرسالة الصغيرة عن أحد أوجه تحضر وإنسانية الإسلام » .

## عميد المؤرخين المصريين

عبد الرحمن بن عبد الحكم

في ٦٤٠ هـ ، دخل العرب مصر ، ومن قبل عرفت مصر أقواماً كثيرين جاءوا إليها فاتحين ، واستقروا فيها مددًا متفاوتة ، ولكن لم ينجع أحدهم في فرض لغته ، أو ثقافته كان هناك السرومان ، وقبلهم اليونان ومن قبل الفرس ، ولكن مصر بقيت هي مصر ، لقد كان تأثير المصريين أحياناً في الغزاة والفاتحين أشد من تأثيرهم هم ، كانت مصر كالبوققة تظهر ولا تنتهي ومع جيء العرب إلى مصر بدت ظاهرة جديدة في التاريخ المصري ، لقد استقرت القبائل العربية في مختلف الأقاليم المصرية ، واحتللت العرب بالمصريين ، وكانت الثمرة ، هي تعرية مصر ، وتمصير العرب ، ذاباً معاً ، وانتشر الإسلام ، وبعد قرنين ونصف من الزمان كانت الملائحة العربية لمصر قد ترسخت وانتضحت ، بل إن مصر أصبحت القاعدة الكبرى التي تخدم الثقافتين العربية والإسلامية في اندفاعهما تجاه الغرب والأندلس ، والجنوب في اتجاه بلاد النوبة وبقية الأقطار الإفريقية ..

في هذه المرحلة الزمنية عاش عبد الرحمن بن عبد الحكم ، أقدم المؤرخين المصريين ، وأول من دون ملامح مصر العربية ، وببدايات العصر العربي الذي كان قريباً نسبياً منه ، من المصادر التاريخية نعرف أنه توفي سنة ٢٥٧ هـ بالفسطاط ، ودفن إلى جوار الإمام الشافعى ، كان عمره عند وفاته حوالي سبعين عاماً ، أى أن مولده كان في سنة ١٨٧ هـ تقريباً .

كانت أسرة بني عبد الحكم على حظ وافر من الشراء ، لكن الأهم من ذلك هو اشتهرارها بالعلم ، خاصة رواية الحديث وتحقيقه ، ورواية الحديث كانت تقتضى توفر شروط معينة في صاحبها ، إذ لا بد أن يكون ملماً بكلفة الأسانيد ، ومعرفة الرواة الذين ينقل عنهم ، والقدرة على المقارنة ، بشكل عام كانت رواية الحديث هي المدخل الطبيعي الذي يدا منه المؤرخون الإسلاميون ، كان والده مؤرخاً وإخوه من كبار المحدثين ، وبالطبع نشأ عبد الرحمن بن عبد الحكم في هذه البيئة العلمية ، وتأثر برواية الحديث وانتقل بسهولة إلى رواية الأخبار ، وهكذا

كان أول مؤرخ في مدرسة التاريخ العربي لمصر ، ولكن هذا لا يعني أن الظروف كانت سهلة ممهدة أمامه ، لقد نزلت محن قاسية على الأسرة بعد وفاة والده أثناء الفتنة التي تسببت فيها الخليفة العباسى الواقى بالله فتنة خلق القرآن ، لقد رفض الأبناء الاعتراف بمذهب خلق القرآن كما رفضه غيرهم التمسكون بالأصول ويسبب ذلك عانوا عذاب السجن ، ومات أحد الأخوة في سجن يزيد التركى معدباً بالسوط ، والشوى بالثار ، كما أصيّبت الأسرة بمحنّة مالية واجتماعية عندما عهد إليها أن تكون حارسة على أموال أحد الولاة الذين صادرت الدولة أموالهم ، وعندما أرسلت الدولة من يحاسبهم لم تستطع الأسرة تسديد حسابها فزج بهم في السجون ، وصودرت أملاكهم ، في ظل تلك الظروف الوعرة نشأ مؤرخنا ، انتهى في مسيرة دراسته إلى التاريخ ، ولا شك أن المضمون التاريخي لمصر ، سواء المتناقل ، أو المتمثل في الآثار القديمة كان مصدر وحي له على الإحساس بالتاريخ وتدوينه وهكذا يفتح كتابه بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالقطب أهل مصر ، ثم يذكر بعض فضائل مصر ، ومحاسنها ، والأيات القرآنية التي ذكرت مصر ، أو الأحاديث النبوية ، ولأول مرة يقدم مؤرخ على تدوين تاريخ البلاد كتاريخ وطن محلى ، ليس جزءاً من تاريخ بلدان أخرى ، أو ليس مذكوراً عرضاً ، ومن خلال هذا الوطن العربي الجديد ، يرصد ابن عبد الحكم تاريخ الوطن الأشمل الممتد غرباً حتى المحيط وشمالاً حتى فارس والصين ، ولأول مرة تصبح مصر العربية هي بذرة كتاب مستقل مؤرخ دقيق ، يدون ، ويسجل ، وهنا نجد شكلاً جديداً للتدوين التاريخي ، لقد ساير المحدثين في روایتهم الأسانيد ، وخالف المؤرخين فيما اتباعه من تصنيف ، مثل البلاذرى المتوفى سنة ٢٦٩ هـ ، أو الطبرى المتوفى سنة ٢١٠ هـ ، والدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ، فقد نهج منهجاً فريداً في كتابة التاريخ المفصل للإسلام والعرب في مصر من مصادره الشفوية والتحريرية ، وتمثل الأخيرة في مخطوطات المؤرخين الذين سبقوه ، مثل يحيى بن عبد الله بن بکير ، وابن هبعة ، والليث بن سعد ، ويزيد بن حبيب ، كان ابن عبد الحكم دقيقاً إلى حد أنه كان يهتم بمصدر الحديث أكثر من اهتمامه بالمضمون نفسه وبالإضافة إلى ذلك تبدو روایته الشخصية وملحوظاته والروايات المتناقلة ، ومعاييره للأماكن وهذا ما اعتمد عليه بشكل أساسى في الجزء الخالص بخطط الفسطاط ، لقد كان ابن عبد الحكم أول من سجل تفاصيل الخطط التي أزدهرت فيها بعد على أيدي القضاوى ، والمسىحي ، وبلغت قمتها على يدى المقرىزى ، ومن المتأخرین على مبارك ، يقول ابن خلكان في وفيات الأعيان ، إن ابن عبد الحكم كان من أهل الحديث والتاريخ ، وكان أول من انفرد من مؤرخى جميع الأقطار الإسلامية بكتابه الشارع المجل لبلد معين ، إن المادة التي جمعها ساعدت على إظهار دور مصر في فجر تاريخها العربى ، ودورها في خدمة العروبة والإسلام .

## ماذا في تاريخ ابن عبد الحكم ٩٩

يتكون «فتح مصر والمغرب» من سبعة أقسام ، نلاحظ الرقم سبعة السحرى هنا الجزء الأول يختص بفضائل مصر ، إن الرحيل مع الأسطورة كان التاريخ القديم لمصر قد أصبح موغلاً في البعد ، نائباً غامضاً تقوم الآثار أو «البرابي» كما كانوا يسمونها ، ولا يدرى أحد سر القلم الغريب الذي كتب هذه التفاصيل ، ويدرك المقربي أن الأهرام كان مغطى بأكمامه بالكتاب ، لقد انفتحت فيها بعد ، ولنا أن نتصور مدى ما كان سيكشف لنا من أسرار لو وصلت إلينا هذه الكتابة الهيروغليفية ، لكن نفس هذه اللغة كانت تحير المؤرخين القدماء ، من هنا أوجدوا تاريخاً بديلاً ، تاريخاً أسطوريًا كبدائل للتاريخ الواقعي ، وبعد هذا التاريخ هو الأساس الذي نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعد ابن عبد الحكم ولا توجد أي علاقة بين التاريخ الأسطوري لمصر ، والتاريخ المدون الذي عرف بعد اكتشاف أسرار اللغات الفرعونية ، فيها عدا بعض النقاط المحددة ، كذكر الصراع بين الفرس والروم .

في الجزء الثاني من الكتاب ينتقل ابن عبد الحكم إلى الفتح الإسلامي لمصر بقيادة عمرو بن العاص ، وهنا يعتبر ابن عبد الحكم من أقدم المؤرخين الذين وصلت كتاباتهم عن تاريخ مصر في العصر العربي الأول ، وهو أقربهم إلى عصر الفتح يورد حركة الجيش العربي في مصر حتى فتح الفسطاط ، ثم فتح الإسكندرية ، وعند حديثه عن تاريخ الإسكندرية يقول إن الذي أسسها هو ذو القرنين الرومي واسمه الإسكندر، وبه سميت الإسكندرية ، ولكن سرعان ما يورد أساطير حول الإسكندرية ، ويدرك معلومات دقيقة حول عدد السكان ، ويختص عدد السكان بمصر ويقدرهم بستة ملايين نفس ، وكانت الجزءية المقررة على كل منهم دينارين ، وتؤيد المراجع العلمية الحديثة تقديره لعدد سكان مصر ، ولكنها تختلف من حيث تقديره للنسبة المئوية من الخزينة ، ويدرك أنه عندما خرج الوالي ابن رفاعة إلى الريف ، أحصى حوالي عشرة آلاف قرية ، ويستمر في رسم صورة دقيقة للإدارة العربية ، من حيث جبائية المخراج ، ونظام الضرائب ، والإدارة ، ومن خلال الأحداث يرى ترحيب المصريين بالفتح العربي .

«إنه كان بالإسكندرية أسقف يقال له أبو ميسامين (بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للمروم دولة وأن ملوكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوناً لعمرو» .

«جاءة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوناً على ما أرادوا من قتال الروم» .

ويذكر أن عمرو بن العاص اهتم بالاستفسار من أهالى البلاد أنفسهم عن أفضل سبيل للإدارة ، وقد أجابه الأسقف بنيامين قائلاً :

« تأوى عياراتها وخرابها من خسنه وجوه ، أن يستخرج خراجها في إيان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم ، ويرفع خراجها في إيان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم ، وتحفر في كل سنة خلجانها وتسد ترها ، ولا يقبل عمل أهلها بسرد البغى ، فإذا فعل هذا فيها عمرت ، وأن عمل فيها بخلافه خربت » .

وقد نفذ عمرو بن العاص وصية الأسقف بنيامين بحذافيرها ، واستطاع بذلك تقليل حدة المظالم ، وتطهير الأجهزة الإدارية من الفساد ، وانتقلت العاصمة الإدارية من الإسكندرية إلى القسططاط وعندما استقر عمرو بن العاص في القسططاط بنى دارا للإماراة وأرسل إلى عمرو بن الخطاب يعلمه بذلك ، فكتب إليه عمرو بن الخطاب قائلاً : « إنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر » ، وأمره بأن يجعلها سوقاً للمسلمين ، وكان ذلك يتافق مع حرص عمر بن الخطاب على البساطة ، ثم أنشأ « الدسيوان » الذى يضبط الأموال ويقرر العطاء المفروض للجند وأسرهم ، طبقاً للأسس التى وضعها عمر بن الخطاب ، ويدرك ابن عبد الحكم جهود عمر من أجل التنسيق بين الإدارة الإسلامية الجديدة ، وأشكال الإدارة القديمة ، ويدرك أن عمرو بن العاص كان حريصاً على شرح التنظيمات الإدارية الجديدة ، للناس عن طريق الخطاب العامة ويورث نصاً خطاباً مطول ألقاه عمرو بن العاص في يوم جمعة من أيام عبد الفصح سنة ٦٤٤ م ، ويعد من أقدم الوثائق التى توضح أسس التشريع الإسلامى في مصر ، وركز على اهتمام عمرو بن العاص بتعمير مصر حتى أنه كان لا يرسل الخراج إلى الخليفة إلا بعد اقطاع كل ما تحتاج إليه البلاد من أجل « حفر خلجانها وإقامة جسورها » ، وبناء قنطرتها وقطع جزائرها » وذلك عملاً بتصحية بنيامين ، ويفرد ابن عبد الحكم فصلاً كاملاً يورث فيه المكاتبات التى تم تبادلها بين الخليفة عمر بن الخطاب ، وحاكم مصر عمرو ابن العاص بسبب تأخر وصول الخراج ، وعنوان الفصل « ذكر استطهاء عمر بن الخطاب عمرو بن العاص في الخراج » .

أما الجزء الثالث فيضم الخطط ، وعرض فيه ابن عبد الحكم للمخطط والأربع التي أقامها العرب في القسططاط والجيزة . لقد أوضح خطط مصر الأولى ونزول القبائل بالقسططاط وقيام المساجد والمنازل الأولى ، كذلك خطط الإسكندرية وتنبع نموها في عهد حكامها العرب ، وفي هذا القسم يعتبر ابن عبد الحكم هو الواضع الأول لأسس الخطط المصرية ، ومنه استفاد كافة المؤرخين الذين جاءوا بعده ..

في الجزء الرابع يصف إدارة مصر تحت إمارة عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد ، وينظر فتح الفيوم ، وبرقة ، طرابلس ، بقيادة عمرو بن العاص ، وينظر فتح التوبة وشمال أفريقيا بقيادة عبد الله بن سعد ، وثورة الإسكندرية وفتحها الثاني ، وينتهي هذا الجزء بوفاة فاتح مصر عمرو بن العاص .

أما الجزء الخامس فيخصصه لفتح شمال أفريقيا وأسبانيا ، حتى سنة ١٣٠ هـ تقريباً ، ويندو فتح المغرب هنا وكأنها تكملة طبيعية لفتح مصر ، وسوف نلاحظ فيها بعد أن مزخر مصر العربية نظروا إلى الغرب على أساس أنه امتداد جغرافي طبيعي لمصر ، وتكتسح أهمية ابن عبد الحكم كمصدر في تاريخ الفتوحات العربية في المغرب إلى أنه مصرى ، وأن القوات العربية كانت تخرج من مصر ، وإليها كانت تعود بالغانم ، وتصدر روايته أقدم وأكمل رواية في هذا الموضوع وحتى القرن الثالث الهجرى ، واللاحظ أن رواية ابن عبد الحكم تستند إلى مصادر محددة ولم تخلط الواقع بالسطورة ، ويحيى الجزء السادس تاريخاً مختصرًا لقضاء مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ، أي قبل وفاة المؤلف بعشر سنوات .. ويضم الجزء السابع مختارات من الأحاديث والروايات المنسوبة لأصحاب رسول الله الذين وفدوا على مصر ، وقد ذكر ابن عبد الحكم اثنين وخمسين صاحبها .

عرف كتاب «فتح مصر والغرب» بدءاً من القرن الخامس الهجرى ، حين بدأ بعض المؤرخين يروون عن ابن عبد الحكم ، ثم بقيت نسخ الكتاب خطوطه يتناقلها الرواة والمؤرخون ، وعرف الكتاب طريقه إلى المطبعة في القرن التاسع عشر سنة ١٨٥٦م ، عندما نشر جزء من الكتاب ، ثم نشر جزء آخر سنة ١٨٥٨ ، ثم نشر جزء ثالث عام ١٩١٤ ، وتم نشره كاملاً لأول مرة على يد المستشرق الإنجليزى شارل تورى عام ١٩٢٠ وطبع في جامعة «بيل» ، ثم نشر الجزء الخامس عام ١٩٤١ في الجزائر ، وهو الخاص بفتح المغرب والأندلس ، وفي سنة ١٩٦١ نشر الأستاذ عبد المنعم عامر جزءاً من الكتاب وضع له عنواناً «القسم التاريخي» ، ولكن لم ينشر القسم الثاني ، أي أن الكتاب لم يطبع كاملاً حتى الآن باللغة العربية ، غير أن أهم ما تم بخصوص ابن عبد الحكم تلك الندوة التى عقدتها الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٧١ وخصصتها للدراسة «ابن عبد الحكم» ثم صدرت مجموعة الدراسات في كتاب عن الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥ ، ليتنا نقرأ عن تحقيق ونشر الكتاب كاملاً ، ذلك الكتاب الذى يحفظ للزمن نصارة وجه مصر العربى في زمانه الأول .

\* \* \*

## النجم الزاهرة

لابن تغري بردى

« تتوالى السنون كالنجم الزواهر أمام ابن تغري بردى المؤرخ المصري الكبير ، لم تتوالش ولم ينطفئ » بريتها ، لأنه أمسك بأحداثها ونبضها بين دفتي كتابه الضخم « النجم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » الذي ألفه « ليقتدى كل ملك يأتي بعدهم بجميل الخصال ويتتجنب ما صدر منهم من اقتراف المظالم وقيبح الفعال » .

إنه يبدأ كتابه بتلخيص ما تضمنه :

« استفتحه بفتح مصر ، وعلى أي وجه فتحت ، وجمع في ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار ، ثم ذكر من ولتها من يوم فتحت ، وما وقع في دولته من العجب ، ثم ذكر أيضاً ما أحدث صاحبها أيام ولاته من الأمور ، وما جدده ، من القواعد والولايات في مدي الدهور . . . . » .

إلى ركن هادئ من داره الكبيرة التي كانت من أجمل دور القاهرة وأوسعها وأكثراها حسناً ، كان ابن تغري يقع يومياً لينظم النجم الزاهرة ويضيف الأيام تلو الأيام ، مبتدئاً كتابه من الفتح العربي لمصر وليس من بدء الخليقة كما جرت عليه سنة المؤرخين الآخرين الكبار ، وعلى الرغم من أصل ابن تغري بردى المملوكي الرومي « اليوناني » فإننا نجد في النجم الزاهرة جمعاً ثرياً للثقافة العربية التي حصلها المؤلف ، ويعكس هذا قوة الثقافة العربية وعمق تأثيرها في هؤلاء الملائكة الغرباء أصلاً عن المجتمع الذي جاءوا إليه من بلادهم ، والذي صهرهم فيه ولم ينصله فيهم ، تبليغ ثقافة مؤرخنا في اطلاعه الواسع على مصادر التاريخ الذي يكتب عنه خاصة الحقب التي لم يشاهدها ولم يدركها ، إنه لا يكتفى بالنقل عن مؤرخ واحد ، إنما يورد أكثر من نص لأكثر من مؤرخ ، وعلى سبيل المثال فإنه عندما يلدون أحداث عصر كافور الإخشيدى يستند إلى أكثر من رواية لأكثر من مؤلف حافظ « أبو » عبد الله الذهبي في تاريخ الإسلام ، و « أبو » المظفر في تاريخه مرآة الزمان ، و « أبو » جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر

العلوي النساء ، وأين زولا ، وعندما يورد أخبار المتشي مع كافور يبذّوها على لسانه «قلت: وتنذّر حيتند أحوال المتنبي ...»<sup>(1)</sup>.

و عبر النجوم الزاهرة تناثر مقططفات شعرية عديدة أكثر من أي كتاب آخر من مصادر التاريخ الأخرى ، هذه المقططفات تعكس ثقافة المؤرخ العربية ، و تعكس أيضاً حسناً مرهقاً بالتاريخ و انقضائه الزمن و تغير الأحوال .

بعد موت كافور الإخشيدى يورد ما كتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفردًا بالصحيح المر<sup>(٢)</sup> بمحمد العسكرية  
يُدوس قبرك أحاد الرجال وقد  
كانت أسود الشري تخشاك في الكتب  
وعندما يذكر رفاة محمد بن الحسين بن علي الأنباري الشاعر يأتي بمقتطف من شعره :

شنان ما بینهَا و بینی  
و بکسی بدمع بغیر عین  
بکسی عین ، بغیر دمع

ولا يكتفى بذلك إنما يورد نصوصاً أخرى مماثلة ويقارن فيها بينها ويقول «أعجبني في هذا... «أو» ربما يجيئ في بالي أيضاً بهذا المعنى قول القائل...» وعند ذكره لوفاة محمد بن عتيق القيرغيزي<sup>(٣)</sup> يذكر إنشاده لبيتين من أبي العلاء :

وحق لسكان البسيطة أن ييكوا  
زجاج ولكن لايماد لنا سبك  
وتحطمنا الأيام حتى كأننا  
وعند وفاة عبد الكريم بن حزرة بن الخضر الدمشقي يذكر أبياتاً من الشعر (٤) :  
الضييق مرخبل والمسال عارية  
ولأنها الناس في الدنيا أحاديث  
فلا تغرنك الدنيا وزهرتها  
وفي نفس السنة يورى شعرًا على لسان أحد الذين رحلوا . .

إن الليالي للألام مناهل  
نطوى وتبسط بينها الأعمار  
فقصارهن مع المهموم طولية  
وطواهمن مع السرور قصار  
وعندما تجيء الأخبار بممات الأمير جان بك الصوفى يذكر ..  
إذا قيل تم (٥) سوق زواهنا إذا قيل تم

### ١) الشعوم الظاهرة بـ ٤ صورٍ

٢) الـمـ : المـفـازـةـ الـمـ,ـ لـاـ نـبـاتـ فـهـاـ .

٣) الجنة الخامنئي، أحداث سنة ١٤٥٢ هـ، ص ٢١٧.

(٤) أجزاء المقام، أحداث سنة ١٥٢٦ هـ.

(٥) النجوم الظاهرة بين المترادف، عشر ص ٨٧.

ويذكر قول القائل في معرض الحديث عن تقلب أحوال أمير ..  
ويوم سمين ويوم هزيل      ويوم أمر من المخولة  
وليل أبيت على مزيلة      وليل أبيت جليس الملوك

\* \* \*

كان ابن تغري بردى الواسع الثقافة ملماً بالموسيقى ، وعلم النجوم ، وانعكس ذلك في كتابه عند وصفه الدقيق للظواهر الطبيعية كالخشوف والكسوف ، أو ظهور المذنبات ، وتبعد معرفته بالموسيقى عند ما نقرأ ترجمته لوفاة مغنٍ مصري . . . وتزعم الأستاذ المادح المغنٍ ناصر الدين محمد المازوني الأصل ، المصري ، أحد الأفراد في إنشاد القصيد وعمل المسابع ، في ليلة الجمعة ثامن من جمادى الأولى بعد أن ابتلع بمرض الفالج ، وبطفل نصفه ، ومسكت حسه ، وكان من عجائب الدنيا في فنونه ، كان صوته كاملاً ، مع شجارة وندارة وحلوة ، كان رئيساً في إنشاد القصيد على الضروب والحدود ، سافر غير مرة إلى الحجاز حادياً في خدمة الأكابر ، وكان له تسبيح هائل على الماذن ، ففي هذه الشلالة كان إليه المتهوى ، وكان يشارك في الموسيقى جيداً . . . (١).

وكان ابن تغري بردى ملِّيًّا بفنون القتال والغروسيَّة إلى جانب ثقافته العريضة وذلك بحكم نشأته بين المماليك، لقد كان لهذه النشأة تأثير كبير عليه، وبالتالي على ما كتب، ولد ابن تغري بردى من أب مملوكي، كان أبوه رومي الأصل أي يونانيًا جاء به تجارة الرقيق إلى الملك الظاهر برقوق ثم سلمه إلى معلم لقنه مبادئ الإسلام واللغة العربية، وعندما بلغ مرحلة الشباب أعتقه الملك الظاهر وظل يتدرج في المناصب حتى تولى نيابة الشام سنة ٨٠٣هـ، وكانت من أجل وظائف الدولة وترشح صاحبها لولاية السلطنة، غير أنَّ القيادات السياسيَّة أدركته عند قيام الدولة المملوكيَّة الجركسيَّة فعزل عن وظيفته مرات، وأضطر إلى الفرار من مصر إلى الشام وأثناء غيابه تزوج السلطان الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ، ثم عفا السلطان عنه وأولاه أحد المناصب الحريمة الرفيعة، في بداية سنة ٨١٥هـ توفى الأمير تغري بردى وكان ابنه أبو المحاسن «مؤرخًا» لم يبلغ بعد الثانية من العمر، عنى بتربيته زوج أخته الثانية قاضي القضاة، نصر الدين بن العديم، ثم زوجها الثاني، قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، درس ابن تغري بردى علوم الكلام وال نحو والبيان على جماعة من أعلام العصر، ومنذ صغره، أحبَّ التاريخ، ودفعه هذا إلى حضور مجلس المقربيَّة أعظم مؤرخِي العصر، درس عليه، وصاحبَه، كما استفاد أيضًا من بدر الدين العيني أحد المؤرخين الكبار في ذلك العصر،

١١) الترجمة الظاهرة الجزء ١٦ ص ١٩٢ أحداث سنة ٨٦٢.

بالإضافة إلى ذلك فقد تعلم على يد أكابر مماليلك والده أنواع الفروسية وفنون القتال ، وبهذا يكون قد جمع بين النشأتين الأدبية والدينية والنشأة العسكرية ، بالإضافة إلى حياة هادئة يكفلها إقطاع كبير يدر عليه دخلاً وفيرًا . وحق له ذلك نوعاً من التفرغ بعيداً عن مشاغل المناصب ، أو تقلبات السياسة ، ولم يكن هذا يعني أنه يعيش على هامش المجتمع المملوكي ، إنما كان باعتباره أحد كبار أولاد الناس قريباً من بلاط السلاطين ، يطلع في كل أسبوع إلى القلعة ليحضر مجلس العلماء الذي يعقد بين يدي السلطان ، تربطه صداقات وطيبة بكتاب الأمراء ، وفي بداية الجزء الخامس عشر من النجوم الزاهرة ٨٢٦هـ نجد وصفاً دقيقاً لحملة السلطان الأشرف برسباي على مدينة آمد ، وكان ابن تغرى بردي من المماليلك الذين توجهوا لقاوضة قرايلك الذي جردت ضده الحملة ، وفي عهد السلطان جقمق ازدادت صلاته بالبلاط المملوكي ، ولم يتغير وضعه أيام الأشرف ابنال ، أو في عهد خشقدم ، حتى عهد السلطان قايتباي الذي لم يدنته كله في نجومه الزاهرة وذلك لوفاته .

لقد أدت صلاته الوطيدة بالسلاطين والأمراء باعتباره أحد أفراد المماليلك إلى أن يعكس أدق صورة ممكنة للمماليلك الذين حكموا مصر ، طبائعهم وعاداتهم ، وأسلوبهم في الحكم ، لقد كان على علم أكثر من غيره بأحوال المماليلك ودخولاتهم ، كما أن هذا يجعله ثقة في دقة الأخبار التي أوردها خاصة عن الفترة التي عايشها بنفسه والتي انفرد فيها بتدوين الأحداث بعد وفاة المقرizi وحتى عام ٨٧٣هـ ، وأدى هذا بالتالي إلى تواري أخبار الحياة اليومية للشعب المصري وافتقارها في النجوم الزاهرة .

إن أخبار الشعب لا نجدها في النجوم الزاهرة إلا كصدى بعيد لكيفية انعكاسها على المماليلك والسلطة الحاكمة ، فكأنها إشارات باهتة ترسّلها الأرض إلى النجوم الزاهرة غير أنها تستطيع أن ترصد حركة الشعب المصري بشكل عام خلال الفتنة التي أثارها المماليلك ، ويمكن القول إن الشعب لم يكن يقف متفرجاً أو ساكتاً إنما كان ينحاز أحياناً إلى بعض أطراف الصراع ، وكان لهذا الانحياز تأثيره في الغالب ..

\* \* \*

عندما يقتل الأمير علم الدين سنجر ابن عبد الله الشجاعي المنصوري ، أحد مماليلك السلطان قلاطون وكان سيره غليظ القلب ، فرح أهل مصر بقتله فرحاً زائداً ، وعندما طاف المشاعلية برأسه كان الناس يتزاحون ليلطمموا رأسه أو ليبولوا عليه ، ولشدة الزحام بلغ سعر النطمة نصف درهم وبالبولة درهماً كاملاً .

وعندما يضيق السلطان الناصر قلاطون بتحكم بعض أمرائه فيه ويقرر التخلص منهم ،

فيادي الأماء بالركوب عليه ، عند ذلك يتجمع العامة أمام القلعة « كان جعهم قد كثر ، وكان من عادتهم أنهم لا يريدون أن يل المملك أحد من المماليك ، بل إن كان ولابد يكون الذي يل المملك من بنى قلاوون ، وكانتوا مع ذلك شديدي المحبة للملك الناصر محمد بن قلاوون » ، « وتكاثر جعهم وصاروا يدعون للسلطان ويقولون « الله يخون الخائن الله يخون من يخون ابن قلاوون » . وأضطر المماليك إزاء تمسك العامة بالملك الناصر إلى التراجع « فبعث الأماء عند ذلك ثانية إلى السلطان بأنهم عاليكه وفي طاعته »<sup>(١)</sup> .

وعندما توجه الملك الناصر بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكرك منفياً أشد بعض عوام

القاهرة :

أريد لقاكم والمزار بعيد	أحبة قلبي إنسى لوحيد
ومن شف قلبي بالفارق فريد	نفس حزناً أنسى مقيم ببلدة
وجوه أحبائي الذين أريد	أجول بطرق في الديار فلا أرى

وعندما عزل السلطان برفع كثراً الدعاء من العامة له ، وكثير الأسف على فقده ، صاروا يقولون « راح برقوم وغزلانه ، وجاء الناصري و-tierane » ، وعندما وقعت الفتنة الكبرى بين الأمير الكبير يليغا الناصري وبين الأمير تمزيغا الأفضل المدعو بمنكاش ٧٩٠ هـ ، فإن العامة ينحازون إلى جانب منكاش ويشتكون في المعارك الدائرة بالقاهرة ، لكن لا يعني هذا أن الشعب كان يلعب دوراً رئيسياً في حسم الصراع الذي يقام بين المماليك ، نلاحظ أن هذال يحدث إلا عند الانحياز إلى جانب حكام يشعر الشعب بمحاسنهم المرهفة أنهم عادلون وأهل ظلمة من غيرهم ، ونلاحظ أن موقف الناس بشكل عام كان سليماً خاصة في عصر الدولة الجراكسة ، لم يكن الصراع الذي يجري في القلعة يهمهم إلا بالقدر الذي يهدد الأمن وحياة الناس ، ويفسح ابن تغري بردي المجال في كتابه لحوادث قليلة تعكس ما يجري بين الناس ، فعندما قرر الأشرف برسيان منع الشحاذين يصف ابن تغري بردي أحواهم ويحسن قرار السلطان ، وفي يوم الجمعة تاسع شوال سنة ٨٤١ هـ يصف ما جرى بين العامة عندما هجح الكثيرون بأن القيامة ستقوم يوم الجمعة ويموت الكل ، تخوف العامة من ذلك ، وتزاحموا على باب الحمامات ليموتوا على طهارة كاملة ، وركب ابن تغري بردي أيضاً ومضى إلى الأزهر ، وتصادف أن الخطيب أغشى عليه فوق المنبر فاضطره الناس أضطراباً عظيماً .

وفي يوم الخميس الخامس عشر جمادى الآخرة سنة ٨٦٠ هـ ، يورد ابن تغري بردي صورة لما

(١) التحريم الظاهر أحداث سنة ٦٩٨ هـ ص ١٧٢ - ١٧٣ الجزء الثامن .

يميل بالناس من الرعب عند وقوع الفتنة بين المالك ، فائتاه إحدى ثورات المالك تصادف خروج جهاز عرس لابنة أحد الأمراء ، « وحل ذلك على رؤوس الحالين والبغال كما هي عادة المصريين ، وسار الحالون بالنتائج فوق من فوق رأس بعضهم قطعة نحاس ، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد ، ففتح الجندي من فرسه وضربه ، ثم ساقه ، فلسم ثشك العامة أن المالك نزلوا إلى ثعب حوانيت القاهرة ، فأغلقت القاهرة في الحال وماجت الناس ، وتعطلت المعاش ، وحصل على الرعية من الازتعاج أمر كبير من غير موجب » .

\* \* \*

يقدم ابن تغري بردي في نجومه الزاهرة عدداً كبيراً من تواجم أمراء المالك ورجال عصره ، إنه يصف لنا دخانل الأمراء وكبار المالك ، ينتقل عن والده أحد أحداث الفتنة التي جرت أيام الظاهر برقوق ، وينتقل عن عدد من أصدقائه الذين كانوا من كبار رجال الدولة ، أنه يهدىنا عن ثورات المالك ، وأساليبهم في الركوب على القلعة ، ورميمهم عليها بالقطط ، كانت القلعة رمزاً للسلطة في مصر وتعبيرًا عن مركزيتها الشديدة فبمجرد الاستيلاء عليها يتم الاستيلاء على السلطة كلها ، كما يقدم لنا أساليب المالك في الصراع ، وكيف يتتحقق الواحد منهم بعد بلوغه أعلى المراتب لمجرد وشایة عليه ، أو شك من السلطان يستقر في أعماق نفسه.

وعلى الرغم من انتهاء ابن تغري بردي إلى المالك ، فإنه كان أحياناً يسجل ما يجده بالناس من ظلمهم وجورهم عندما وقع الطاعون بالقاهرة أول شهر رمضان ١٤٨٤هـ أفنع الفقهاء السلطان بمنع النساء من الخروج إلى الطرقات ، وماه السلطان إلى منعهن من الخروج إلى الطرقات ظناً منه بأن منعهن سيرفع الطاعون ، وهكذا تعطل البيع بواسطه النساء وصارت المرأة لا تستطيع تشيع جنازة ولدها إذا مات ، ويعمل على ذلك قائلاً « كل ذلك لعدم أهلية الحكم واستحسان الولاية على الخواتم ، وإلا فالخمرة معروفة ولو كانت في الخبرة ، والفارجارة معروفة ولو كانت في البيت الحرام » .

وفي ترجمته للأمير تغري بردى الذي كان على صلة بوالد المؤلف يقول « . . . وكان عارفاً بأمور دنياه وأمر معيشته متجملاً في مركبه وملبسه وماله ، إلا أنه كان بخيلاً ، شحيناً ، حريضاً على جمع المال ، قليل الدين ، لا يحفظ مسألة تامة في دينه ، مع قلة فهم وذوق ، وغلظة طبع ، على قاعدة أوباش التركيان ، وكان عارياً من سائر العلوم والفنون ، غير ما ذكرنا ، لم أره منذ عمري مسلك كتاباً بيده ، ليقرأه ، هذا مع الجبن وعدم الشبات في الحروب » (١) .

(١) النجوم الزاهرة الجزء ١٥ ص ٤٧٣ .

وفي ترجمته لصهره يقول عنه :

« وكان عارفاً بأنواع الفروسية كلعب الرمح وضرب الكرة وسوق المحمل والبرجاس ، رأساً في ذلك جيئاً ، إمام عصره في ركوب الخيل ومعرفة تقليبيها في أنواع الملاعيب المذكورة ، انتهت إليه الرئاسة في ذلك بلا مدافعة ، لا أقول ذلك لكونه صهري ، بل أقوله على الإنفاق ، مع دين وعفة عن المنكرات والفروج ، وقيام ليل وزيارة الصالحين دوماً، غير أنه كان مسيقاً وعنه حدة مزاج ، ولم تكن شجاعته في الحروب بقدر معرفته لأنواع الملاعيب والفروسية<sup>(١)</sup> ، وعلى الرغم من المركز المرموق الذي وصل إليه في عهد الظاهر جقمق إلا أنه يذكر في ترجمته له عجز خزانة الدولة ، ونقص الاستعدادات العسكرية ، وينسب ما جرى بعده من اضطرابات إنما بسبب قلة الأموال ، كما يقدم لنا صورة لما كان يحدث بين المماليك والمعتمدين ، أو السلطة المدنية والدينية ، فعندما يذكر ترجمة الأمير سيف الدين جارقطلو أتابك العساكر بالديار المصرية الذي توفي عام ٨٣٦ هـ يتحدث عن طيته ، ويطرق إلى جلوسه عند السلطان مع قاضي القضاة بدر الدين العيني ، كان القاضي يشدد على ضرب الخمر ، فإذا زاد على الحد يقول جارقطلو « يا قاضي ما تذكر إلا شرب الخمر وتبالغ في حقهم بأأنواع العذاب ، ليس ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام » ، ولقد تطور الصراع بين هاتين السلطتين ، المدنية والدينية حتى اتسع طابع العنف في أعوام ٨٥٤ هـ ٨٥٧ هـ حتى ٨٦٠ هـ ، إذ يحدثنا ابن تغري بردي عنها قام به المماليك الجلبيان من تعدد على المعتمدين ، وإلحاحهم على السلطان في طلب إقطاعات الفقهاء .

كما قدم لنا أيضاً صورة للمصريين الذين كانوا يصلون إلى مراكز الإدارة العليا في الدولة ، وما كان يغيرى عندما تقلب الأحوال عليهم ، أو يتغير خاطر السلطان عليهم ، ويدو ذلك واضحاً فيها جرى للقاضي زين الدين عبد الباسط ، الذي وصل إلى منصب ناظر الجيوش المصرية ، وهو دمشقي الأصل ، مصرى النشأة ، جاء إلى مصر فقيراً فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ قريه وأدناه رولا نظر الخزانة ، ولما عظم أمره سألنا في السكن بعض دورنا ، فأجبناه إلى ذلك<sup>(٢)</sup> ، وبعد أن وصل إلى منصب ناظر الجيش ، واستمر به سنتين بذاته يأكل ، حتى قبض عليه في عهد السلطان الظاهر جقمق ، وسجن ، وصودر .

وفي عهد الملك المظفر حاجى ، وفي يوم الثلاثاء أول المحرم سنة ٧٤٨ هـ ، قبض على نديم الملك وكان اسمه الشيخ على بن الكسيع ، وضرب بالمقارع ضرباً عظيماً ، وقلعت أسنانه

(١) النجوم الظاهرة الجزء ١٥ ، ٤٧٦ .

(٢) النجوم الظاهرة الجزء السادس عشر ص ٢٤٨ .

وأضراسه ، ونوع له العذاب تنويعاً ، كان الشیخ علی له حدبة في ظهره ، كسيحًا لا يستطيع القیام ، إنما يحمل علی ظهر غلامه ، تعرف بأحد الأمراء وصار يضحكه ، وعرفه الامیر بالملك المظفر ، فصاحبہ الملك ، وعاصفه الشراب ، ثم زوجه بـ مسحى حظایا ، وصار يسألہ عن الناس فتقل له أخبارهم علی ما يريد ، وداخله في قضاء الأشغال ، فخافه الأمراء وغيرهم خشية لسانه ، وراحوا يغدقون علیه الأموال ، وعندما مضت دولة السلطان المظفر حاجی ، تنبه إلیه الأمراء ، فامسکوه وسلموه إلی الوالی ، فعاقبہ حتى هلك ..

أما الشيخ ناصر الدين ابن بنت الميلق فقد استدعاه السلطان الملك الظاهر بررقة سنة 784 هـ ، وولاه قضاء الشافعية ، وفي البداية أظهر ابن ميلق تمنعاً زائداً عن قبول القضاء وصل ركتنى الاستخاراة حتى أذعن ، وألبسه السلطان تشريف القضاء بيده وأخذ طيلسانه يتبرك به ، وهنا شعر كبار رجال الدولة بالخوف ، وظنوا أنه يحمل الناس على عرض الحق وأنه يسير على طريق السلف من القضاة ، كان معروفاً عنه زهده ، وارتدائه الشياط الخشنة ، والتجاهر بقول الحق ، وكان أول مابدا به أن عزل قضاة مصر كلهم من العريش إلى أسوان ، وبعد يومين تكلم أحد كبار الموظفين في إعادة بعض المعزولين ، فاستجاب ، وهنا انكسرت هيته ، ولم يقف الأمر عند ذلك إنما فوجئ الناس بأنه خلع الملابس الخشنة ، ولبس الشاش الكبير الغالى الثمن ، وبهذا يترفع في أحواله وأفعاله ، وبهذا يجمع حوله جماعة مكرهة من الناس ، فانطلقت ألسنة الجميم بالواقعية في عرضه وسخطوا عليه . .

\* \* \*

ينفرد ابن تغرى بردى بين كل مؤرخى عصره والسابقين واللاحقين عليه بأنه اهتم بفيضان النيل اهتماماً خاصاً ، في نهاية أحداث كل سنة يقول « أمر النيل في هذه السنة - الماء القديم كل ذراع ، مبلغ الزيادة كل ذراع » ، لقد سجل تقلبات النيل منذ الفتح الإسلامي حتى عام ٨٧٢ هـ الذي يختتم به النجوم الزاهرة ، يرصد في كل سنة أدنى مستوى وصلت إليه المياه أيام التحراريق ، وأعلى زيادة وصلت إليه أثناء الفيضان ، وكان متوسط انخفاض مياه النهر أيام التحراريق ما بين أربعة ذراع إلى سبعة ذراع فيما عدا بعض السنين التي انخفض فيها الماء إلى أقل من هذا المستوى ، مثل سنتي ٢٥٥٠ هـ ، وكان هذا الانخفاض يهدى المزروعات والأشخاص والحياة عند ذلك تشع الغلال ، وتبدأ المجاعة وفي أثرها الوباء . كان النيل هو تمثيل الحياة في مصر ، في أيام الفيضان يبلغ أعلى مستوى له ستة عشر ذراعاً إلى تسعه عشر ذراعاً ، والمستوى الأخير يهدى القرى والجسور بالغرق ، وكثيراً ما وصل فيضان النيل إلى درجة الخطورة مثلها حدث في سنة ٢٠٠ هـ وسنة ١٠٠ هـ ، وفي سنة ٥٤٣ هـ ، وفي سنة ٧٧٦ هـ ، وفي سنة ٨٠٠ هـ .

ويصف لنا ابن تغري بردى مقاييس النيل المختلفة ، منذ أول مقاييس أنشأه عمرو ابن العاص بأسوان ، ثم مقاييس المجزرة الذى أنشأه أسامة بن زيد التخوخى في عهد سليمان بن عبد الملك ثم المقاييس الكبير الذى أمر به الخليفة الموكيل العباسى في سنة ٢٤٧ هـ . وهو الذى استخدم فيها تلا ذلك من سنوات في قياس مياه النيل ، ومن عصره يسجل لنا المؤرخ مشهدًا كان يتكرر كثيراً في مصر كلها توقف النيل عن الزراعة أيام الفيضان ، إنه مشهد الاستسقاء ، في يوم الأحد الرابع عشر من رجب سنة ٨٥٤ هـ ، أمر السلطان أن يدور المحاسب على الناس ويعلّمهم بأنه سيتم غداً الاستسقاء في الصحراء وفي اليوم التالي ، «خرج قاضى القضاة شرف الدين يحيى المياوى ، إلى الصحراء ماشياً من داره بين المخلائق من الفقهاء والقراء والصوفية ، إلى أن وقف بين ثربة الملك الظاهر برقوم وبين قبة النصر قريباً من الجبل ، ونصب له هناك منبر ، وحضر الخليفة وبقية القضاة ، وصاروا في جمٍّ موفر من العالم من سائر الطوائف ، وخرجت اليهود والنصارى بكتبهم ، وصل قاضى القضاة المذكور بجماعة من الناس ركعتين خفيفتين ، ودعا الله سبحانه وتعالى بـ «اجراء النيل» ، وأمن الناس على دعائه وعظم ضجيج الخلائق من البكاء والتحبب والتضرع إلى الله تعالى ودام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور ، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهاج إلى الله تعالى ، فكان هذا اليوم من الأيام التي لم نعهد بمثلها . . . . .

\* \* \*

لابن تغري بردى كتب أخرى ، منها «المنهل الصاف والمستوف بعد الواقف» وقد ترجم فيه لأعيان عصره ، وهذا أول كتبه ، ثم أتبعه بكتاب مختصر في التاريخ يعد تكميلاً لكتاب السلوك للمقرizi ، وتتبع فيه بالتسجيل أحداث مصر في فترة زمنية قدرها اثنتا عشرة سنة تلى السنة التي توقف عندها المقرizi ، ثم بدأ في تدوين كتابه الموسوعي الضخم «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» والفضل الأول في بذله الاهتمام بنشر هذا الكتاب يرجع إلى المستشرقين الهولنديين جوينيل ومايس ، نشراً منه القسم الأول بين سنتي ١٨٥٢ و ١٨٥٣ ثم نشراً منه القسم الثانى في سنة ١٨٥٧ ، وتضمن القسمان تاريخ مصر حتى سنة ٣٦٥ هـ ، وفي سنة ١٩٠٨ قرر قسم اللغات السامية بجامعة كاليفورنيا نشر النجوم الزاهرة وتولى مسؤولية نشره المستشرق الأمريكي وليم بورير ، فبدأ عام ١٩٠٩ بنشر الأجزاء التالية للقسمين اللذين تم نشرهما ، واستمر في هذا العمل حتى ١٩٣٠ حيث أتم تلك المهمة العلمية الضخمة .

وفي سنة ١٩٢٨ بدأت دار الكتب المصرية في طبع الكتاب ، وتم نشر اثنى عشر مجلداً على مدى أربعين عاماً صدر آخر مجلد منها سنة ١٩٥٦ ، وتضمنت أحداث التاريخ المصري حتى

سنة ٨٠٨ هـ ، وتضمنت هذه الأجزاء تعليقات قيمة لمحمد رمزي المفتش بوزارة المالية ومؤلف القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ، وهذه التعليقات التي يتم من خلالها شرح الوظائف المملوکية والأثار والمشات التي يرد ذكرها ، وتحديد أماكنها الحالية في قاهرة القرن العشرين سواء الباقي منها أو المنشئ ، تعتبر جهدا علميا غنيا في حد ذاته قد يغيب عن أعين الباحثين في الموسوعات والملحوظات .

تم صدور الأجزاء الأربع الباقيه ، الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، وال السادس عشر ، وكان صدور الجزء الأخير منها عام ١٩٧٢ ، وهكذا يكون الكتاب بأكمله قد تم تحقيقه وطبعه ، وبين دفتيه تستقر النجوم الزاهية متاحة لكل من يهم بالترحال في تاريخ مصر العربية ، أو دراسته ..

## ابن إيس صاحب بدائع الزهور في وقائع الدهور

«اليوم سبت ، سادس عشر من شعبان ، عام الثين وعشرين وتسعمائة ، في المساء والليل مسلل فوق قاهرة ذلك الزمان المضطرب ، ممضى الشيخ محمد أحد بن إيس الحنفى المصرى ، إلى بيته مرتاح الروح ، مضطرب الفكر ، فتسع صفحات كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور» تارىخه الكبير الذى بدأ يدون فيه تاريخ مصر منذ بدء الخليقة ، كان يستعد لضيف إلى أحدائه أخطر ما سيلونه ، كان يشهد هذه الأيام غير العادية التي تتقدّر فيها مصادر كبيرة ، ويلتوى بجرى أمم وتحول حياة شعوب .

«اليوم أشييعت هذه الكابينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، وما ذلك إلا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من حند الأمير علان ، الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين فذكر أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق ، لي أن حضر مغلبى دوادار سكين وهو في حال النحس يزمع أقوع على رأسه ، وهو لابس كبير عتيق دنس ، وراكب على أكديش هزيل ، وقد ثهب بركة وأنحدرت خيوله وقباشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح وقال له : قل لاستاذك يلانينى حند منج دابق ... (١) .

لقد جاءت الأخبار بعد انقطاعها مدة طويلة تبليلت فيها الخواطر ، وحارت النفوس ، بما جرى في منج دابق شهال حلب ، حيث دارت الدائرة على جنود السلطان الأشرف قنصوة الغوري ، قتل من قتل ، وفر من فر ، ومات السلطان شهيداً بعد أن يبح صوته «وطق في رأسه فرخ جر» ، وهو ينادي عساكره ، (يا أغوات ... يا أمراء ... هذا وقت المروعة» ، غير أن ما كان مقدراً جرى ... .

(١) بدائع الزهور ، الجزء الخامس ص ٦٨ .

وتحصل تفاصيل الأحداث لـ ابن إِيَّاس ، ويُسرد الواقع كما تحقق منها كيف اصطف الجيشان ، كيف كان العسكر من المالكية مقوماً بـألف إِنسان من بني عثمان ، وكيف هزم « العثمانية » أول الأمر ، غير أن الخيانة أطلت برأسها فقد خامر خاين بك أو ( خاين بك ) على السلطان في الباطن ، مما جعل الدائرة تدور على جيش السلطان الغوري ، وينهض ابن إِيَّاس أخبار الموقعة المشتمة : « لم يقع مصر من قبل مثل هذه الكابينة العظمى ، والحادنة المهولة » .

وبصبر المؤرخ ، وبأنسة الشيوخ يتنتظر بجه الأنباء ، وقد ظلت هذه الأحداث وما جرى لمصر مادةً ما تبقى من عمر ابن إِيَّاس وكتابه ، حتى عام ٩٢٨ هـ ، ولبيقى الكتاب الضخم الذي تزيد صفحاته على الثلاث آلاف صفحة نابضاً بـحب عريق مصر ومتقدماً لفترة زمنية كاملة تزيد على الثلاثين عاماً شاهدتها المؤلف يوماً بيوم ، تبضم الصفحات التي تدون سنوات الاحتلال العثماني بأرقى آيات حب المؤلف للبلد الذي عاش فيه ، لقد كانت أصول ابن إِيَّاس غير مصرية ، لكن كتابه يفيض بوطنية صادقة ولكن تتبع أصول عائلة ابن إِيَّاس يجب أن نعود مائة وخمسين سنة قبل الغزو العثماني .

في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون اشتري مجموعة من بينهم مملوك اسمه أزدرم العمرى الناصري أبو المدقن ، أصبح أحد مالكـ السلطان الناصر ، تدرج في مراتب الوظائف حتى صار من كبار الأمراء زمنـ السلطانين حسن وشعبان ابنـ الناصر بنـ قلاوون ، في أيامها تولـ إمرةـ السلاح ، ويمكن أن نجد بعضـ أخبارـهـ فيـ كتابـ «ـ التـجـومـ الزـاهـرـةـ فيـ مـلـوكـ مصرـ وـالـقـاهـرـةـ »ـ لـابـنـ تـفـرـىـ بـرـدـىـ ،ـ ثـمـ تـقـلـدـ نـيـابةـ صـفـدـ ،ـ وـطـرـابـلـسـ ،ـ وـحلـبـ ،ـ وـأخـيرـاًـ اـخـتـارـهـ السـلـطـانـ شـعـبـانـ لـنـيـابةـ دـمـشـقـ عـاصـمـةـ الشـامـ ،ـ لـكـنـ الـمـوـتـ لـمـ يـمـهـلـهـ فـتـوـقـ فيـ الطـرـيقـ إـلـيـهـ سـنـةـ ١٣٦٦ـ مـ .

كان أزدرم العمرى جـدـ ابنـ إـيـاسـ لـأـمـهـ ،ـ أـمـاـ جـدـهـ لـأـبـيهـ فـهـوـ الـأـمـيرـ إـيـاسـ الفـخـرىـ ،ـ أـحـدـ مـالـكـ السـلـطـانـ بـرـقـوقـ ،ـ وـكـانـ دـوـادـارـاـ ثـانـيـاـ ،ـ لـكـنـ عـزـلـ عـنـ وـظـيـفـتـهـ ،ـ وـأـصـبـحـ هـوـ وـاـبـهـ أـحـدـ يـتـيمـيـانـ لـلـيـلـةـ أـلـلـادـ النـاسـ ،ـ وـهـذـهـ الـفـتـةـ كـانـ لـهـ مـوـقـعـ خـاصـ ،ـ فـهـيـ أـبـنـاءـ الـأـمـرـاءـ الـذـيـنـ مـاتـوـ وـشـغـلـتـ وـظـائـفـهـمـ ،ـ وـكـانـ الـتـبـعـ أـنـ يـمـنـحـ الـوـاحـدـ مـنـهـمـ عـدـدـاـ مـنـ الـفـنـادـيـنـ «ـ إـقـطـاعـ »ـ يـعـيـشـ مـنـهـ ،ـ بـشـرـطـ اـنـدـمـاجـهـ فـيـ الـجـيـشـ السـلـطـانـيـ عـنـدـ نـشـوبـ الـحـربـ ،ـ وـيـكـوـنـ صـاحـبـاـ لـلـخـدـمـةـ فـيـ إـحـدـيـ الـوـظـائـفـ الـمـدـنـيـةـ أـيـامـ السـلـمـ .

وـبـرـغـمـ ضـخـامـةـ مـاـ كـتـبـهـ مـحـمـدـ بـنـ إـيـاسـ أـحـدـ بـنـ إـيـاسـ فـنـلـاحـظـ أـنـ تـحـاشـيـ الـكـتـابـةـ عـنـ أـسـرـتـهـ ،ـ أـوـ عـنـ نـفـسـهـ ،ـ وـبـرـغـمـ ذـلـكـ يـمـكـنـ التـعـرـفـ مـنـ خـالـلـ كـتـابـهـ الـكـيـرـ عـلـيـ بـعـضـ الـمـعـلـومـاتـ عـنـ أـبـيهـ ،ـ

كان أحمد بن إياس من أشهر فتة أولاد الناس ، وعلى اتصال دائم بمشاهير الدولة من الأمراء والكتاب ، عاش حوالي أربع وثلاثين سنة أذجب خلالها عدداً كبيراً من الأبناء ، بلغ عددهم خمسة وعشرين ذكراً وأثني ، لم يوضح لنا ابن إياس ترتيبه في هذه الذرية الضخمة ، إنه يذكر مولده في سطر عابر من تاريخه الضخم .

«وفي ربيع الآخر من هذه السنة ، كان مولد الناصري محمد أحمد بن إياس مؤلف هذا التاريخ ، وذلك في يوم السبت السادس الشهر بعد طلوع الشمس وسماه والده محمد أبي البركات »<sup>(١)</sup> .

ويخبرنا أيضاً أنه لم يبق من أخوته بعد وفاة والده غير بنت واحدة ، وصبيين اثنين هما : مؤرخنا نفسه ، وأخوه يوسف . في هذه الفتة « أولاد الناس » نشأ ابن إياس ، وكان لنشوئه فيها عاملان ، أولهما أنه بانتهائه إلى هذه الفتة جعله بعيداً عن متناول مؤرخى العصر ، ومؤلفى السير والتراجم ، فتضاءلت عنده أخباره وسيره ، مما جعل المادة التى تصلنا عن حياته قليلة جداً ، خاصة وأن ابن إياس لم يخصص فى كتابه الكبير إلا ما يجموعه نصف صحفة للحديث عن نفسه أو عن عائلته .

أما العامل الثاني ، والبالغ الأهمية فوأن نشوئه في هذه الفتة جعله قريباً من الحياة اليومية للشعب ، مما أفسح المكان في تاريخه لأخبار لا نجد لها في كتب التاريخ الأخرى التي كان مؤلفوها أعضاء في السلطة المملوكية مثل ابن تغري بردى الذى كان وزيراً . لقدر كان أولاد الناس بعيدين عن صراع السلطة ، ويمكن القول إنهم كانوا يعيشون على هامش المجتمع المملوكي الحاكم ، لهذا كانوا قريين إلى المجتمع المصري بطبقاته المتوسطة والفقيرة ، أصبح ابن إياس من خلال هذا الوضع قريباً من المهموم اليومية لرجل الشارع ، معايشاً لها ، وحياة الشعب تبرز لنا حية ، متذبذبة من خلال أدق الأخبار التي أوردها ابن إياس جنباً إلى جنب مع أخبار السلاطين والخروب والصراعات .

\* \* \*

«وفي ذى الحجة ، جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين أولاد ابن عثمان ملك الروم ، وفيه عز ووجود الفلفل من مصر ، حتى بيع كل حمل فلفل بباهة دينار . . . »<sup>(٢)</sup> .

« ومن المخواudit في غيبة السلطان ، في شهر رمضان ، وجد إنسان سكران ، فقبض

(١) بدائع الزهور الجزء الثاني ص ٢٦٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الثاني ص ٥ أحداث ذى الحجة ٨١٥ .

عليه وضرب الحد ، ثم طيف به القاهرة ، فلما وصل إلى الصليبة ، ثارت عليه العوام فقتلوه وأحرقوه بالنار . . . <sup>(١)</sup>.

« وفي شوال ، جلس السلطان للحكم بين الناس في الاصطبل ، وضرب في ذلك اليوم ابن الطبلاوي والى القاهرة بالمقارع ، وكان لذلك سبب ، وذلك أن شخصاً غرق له ولد ، فلما شاوروا السوال في دفن الميت ، فلم يمكن أباًه من دفنه حتى يحضر له خمسة دنانير ، وكان أبو الغريق فقيراً ، فلم يقو على ذلك القدر الذي قسر عليه ، فما وسعه إلا أنه ترك ولده ملقى على شط الخليج وهرب ، فبات الغريق ليلاً حتى أكل الكلاب رجليه فلما بلغ السلطان تغير خاطره على ابن الطبلاوي وضربه بالمقارع . . . <sup>(٢)</sup>.

« وفي شعبان وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصاً من المماليك البراكسة كشف رأسه بين يدي السلطان فوجده أقزح ، فضحك عليه السلطان فقال له ذلك الملعون « أجعلنى ولى القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، وأخرج له مرسوماً سلطانياً بذلك ، وأن يكون شيخ القرعان ، وأخلع عليه خلعة ، فصار يدور في الأسواق والخارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقزح فيأخذ منه ديناراً حتى أعيان الناس فضح منه أهل القاهرة وشكوه إلى السلطان فضحك ونادى في القاهرة للقرعان بالأمان والاطمئنان وأن كل شيء على حاله . . . <sup>(٣)</sup>.

« وفيه ثار جماعة من العوام على المحاسب على بن القيس ورجوه . . . <sup>(٤)</sup>.

« وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهو أن السلطان أعاد إلى جماعة ما كان أخذته منهم من مال لما صار الناس في التجربة الأولى <sup>١</sup> . . . فتعجبوا الناس نفسه من ذلك ، لكونه فعل هذا من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى في المنام ما أوجب رد هذا المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل في المعنى .

خيراً يكون على الزمان معيناً  
لا تأخذوا منا ولا تعطونا <sup>(٥)</sup>

كنا نسُؤل أن نسأل بجاهكم  
والآن نقنع بالسلامة منكم

(١) بداع الزهور الجزء الثاني ص ٢٤ أحداث رمضان ٨١٨ هـ.

(٢) بداع الزهور الجزء الثاني ص ٤٠ أحداث شوال ٨٢١ هـ.

(٣) بداع الزهور الجزء الثاني ص ١١٤ أحداث شعبان ٨٣٠ هـ.

(٤) بداع الزهور الجزء الثاني ص ٢٧٥ أحداث رجب ٨٥٣ هـ.

(٥) بداع الزهور الجزء الثالث ص ٥٦ أحداث شعبان ٨٧٥ هـ.

« وفيه نودى من قبل السلطان بان أحدا لا يشكى أحدا للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان لأجل أنه وطع جارية في ملكه ، فما طاقت زوجته الغيرة فشكى إلى السلطان »<sup>(١)</sup> .

« وفيه ولدت امرأة أربعة من الأولاد في بطن واحد ، وهم صبيان وبنات وكان أبوهم فقيرا فحملهم إلى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ورسم لأبيهم بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح »<sup>(٢)</sup> .

ولكن شنتت عليه الناس أن مصروف عيارة المدرسة كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس ، وأخذ أغلب رخامها من أماكن شتى يابخس الأثيان ، وأخرب قاعة شموال اليهودي الصيرفي وأخذ أبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات ، وقد سمع بعض اللطفاء هذه المدرسة المسجد الحرام لما وقع فيها من غصوبة الأرض ومصروف العيارة من مال فيه شبهات ، وقد شنعوا الناس قبله على المؤيد شيخ لما بنى جامعه الذي بجوار باب زويلة أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف فقصوة الغوري ، وأهل مصر ما يطاقون من أستههم إذا أطلقواها في حق الناس »<sup>(٣)</sup> .

« وفيه وقعت نادرة غريبة وهو أن شخصا من أبناء التجار يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته في بيته خشب وأحرقها بالنار لأمر وقع منها . . . »<sup>(٤)</sup> .

« وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغل »<sup>(٥)</sup> فشنق على باب زويلة ومن الحوادث أن شخصا شابا يقال له سكينك أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشئ فسجين بالقشرة حتى يكون من أمره ما يكون »<sup>(٦)</sup> .

« ومن الحوادث في ذلك اليوم أن امرأة خرجت تضرج على السلطان وكانت حاملا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزلت الولد من بطنها في الحال »<sup>(٧)</sup> .

(١) بداع الزهور الجزء الثالث ص ٦٣ أحداث ربيع الأول ٨٧٦ هـ .

(٢) بداع الزهور الجزء الثالث ص ٧٢ أحداث ذى الحجة ٨٧٧ هـ .

(٣) بداع الزهور الجزء الرابع ص ٥٣ أحداث ذى الحجة ٩٠٨ هـ .

(٤) بداع الزهور الجزء الرابع ص ١٠٠ أحداث جمادى الآخرة ٩١٢ هـ .

(٥) زغل أى مزيف .

(٦) بداع الزهور الجزء الرابع ص ١٦٠ أحداث جمادى الأولى ٩١٥ هـ .

(٧) بداع الزهور الجزء الرابع ص ٣٣٦ أحداث شعبان ٩١٩ هـ .

« ومن الحوادث أن شخصاً خياطاً يقال له نجا بن تمساح ذنق صبياً صغيراً عمره عشر سنوات ، فزنته في بيت الجزيرة الوسطى ، فاستغاث الصبي فلديمه ذلك الخياط وأرماه في البشر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبي على الخياط ، وعرضته على السلطان ، فاعترف بقتل الصبي ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط في المكان الذي قتل فيه الصبي »<sup>(١)</sup> .

« وفرح كل واحد من الناس بسلطنته <sup>(٢)</sup> ، وكان عبىداً للعوام فإنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجرئ ، فلما انتهى أمر المبايعة أخلع السلطان على أمير المؤمنين يعقوب ونزل إلى داره في موكب حافل ، وزالت دولة الغوري كأنها لم تكن <sup>(٣)</sup> .

« وفي يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ، وهو أن ملك المرأة خاير بك أشهر النساء في القاهرة يأن كل من رأى كلباً يقتله ويعلقه على دكانه فبادرت النساء على القبض على الكلاب ، صارت التراكمية يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونهم نصفين بالسيوف فقتلوا في ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب »<sup>(٤)</sup> .

« فلما تزايد الأمر في قتل الكلاب ، طلع الزيني برؤسات بن موسى المحتسب إلى ملك المرأة خاير بك وشفع في الكلاب من القتل »<sup>(٥)</sup> .

وفيه حضر شخص من حلب فهلوان ، ونصب في بركة القصع التي بالجنيه صوارى وحجالاً ، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجم الغفير من الخلايق ، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة في صنعة الفهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب له أوماج وبته وأرمى بالنشاب في البته وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعيناه مربوطة بسخرة ، ومنها أنه مشى على الحبال وفي رجله قباقب وتحته الواقع صابون »<sup>(٦)</sup> .

« وفيه وقعت حادثة شنيعة وهو أن شخصاً من العوام كان أصله موزناً فدخل إلى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شبر ووضعهم في فمه فقبضوا عليه الخول وحصل بينهما شاجر ، فأغلظ عليه الخول القول وأتى به إلى حيث الولى وقص عليه أمره فطلع به الولى وعرضه على ملك المرأة وهو حامل القفة التي فيها الخيار الشبر ، فلما علم ملك المرأة

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع من ٣٧٨ أحداث ربيع الآخر ٩٢٠ مـ.

(٢) يقصد طوماً بـاي .

(٣) بدائع الزهور الجزء السادس من ١٠٥ أحداث رمضان ٩٢٢ مـ.

(٤) بدائع الزهور الجزء الخامس من ٢٤٩ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ مـ.

(٥) بدائع الزهور الجزء الخامس من ٢٥٢ أحداث ربيع الآخر ٩٢٤ مـ.

بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع الخيار الشنبر وصار يشتريه على ذاته ويتجه فيه ،  
ثم أن ملك الأمراء رسم للوالى بشق ذلك الرجل الذى سرق الخيار الشنبر »<sup>(١)</sup> .

« وفي يوم الاثنين ثامن عشر توفيت زوجة المقر الشهابى أحد بن الجيغان وكانت جركسية الجنس تدعى شهد دار وكانت مبدعة في الحسن والجمال من أجمل النساء حسناً ، فافتنت بها المقر الشهابى أحد بن الجيغان حتى أشغله عن أمور أحوال المملكة ، قيل إنها كانت تحسن الضرب بالسبعين آلات المطرية وهى : الجنك والعود والستنطور القانون والدرج والكمنجا والصينى ..<sup>(٢)</sup> .

وهكذا تتبع صفحات بداع الزهور بأحداث الحياة اليومية المصرية خاصة في الفترة التي عايشها ابن إيساس دون تاريفها يوماً ب يوم ، ويمكن أن يحتوى بداع الزهور من هنا على مرحلتين أساسيتين ، الأولى ينتقل فيها ابن إيساس عن كتب المؤرخين السابقين ، مع صياغة الأحداث بأسلوبه الخاص ، ثم ينتقل من الاعتماد الكل على كتب السالفين إلى مرحلة الاعتماد على المعاينة والمشاهدة ويندو هذا الانتقال واضحاً اعتباراً من سنة ١٤٦٨ م (٨٧٢ هـ) وهي السنة التي بلغ فيها ابن إيساس العشرين من العمر ، وخلال تلك الصفحات العديدة .. «أورد أخبار السلاطين والخلفاء والأمراء من سلطنة ولولية وعزل ووفاة وذكر أحوال الفئات المملوکية من ثورة أو ركود ، وكتب في النظم الإدارية ، والأحوال الاجتماعية والأعياد الدينية وغير الدينية ، ووصف المراكب والأسماط السلطانية ومواسم لعب الكرة والصيد وسجل مناسبات النيل زمن الفيضان والتحارير وذكر الأرصاد الجوية مع خسوف القمر وكسوف الشمس وهبوب الرياح وسقوط الأمطار وشرح أحوال العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأعيان والتجار ، وترجم للمموفين منهم ترجمة طويلة أو قصيرة حسب المقام ، وذكر المنشآت والمباني السلطانية والأميرية من مساجد وعماير ورباع وقباب ومدافن ، وتتبع أخبار الأسعار اليومية وشئون المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس ..<sup>(٣)</sup> .

نلاحظ أن ابن إيساس لم يكن يورد الخبر أو الواقعه بروح باردة ، أو يكتفى بالتدوين ، بل كان يسادر بالتعليق ، تعليق إنسان ذي روح مرهفة متأملة ، أقرب إلى الصوفية ، بل إن أسلوب تدوينه للأحداث التي سبق أن كتبها مؤرخون آخرون مختلف ، فهو يضفي الحيوية على

(١) بداع الزهور الجزء الخامس من ٢٥٥ أحداث جادى الآخرة ٩٢٤ هـ .

(٢) بداع الزهور الجزء الخامس من ٣٣٩ أحداث جادى الآخرة ٩٢٦ هـ .

(٣) الدكتور محمد مصطفى زيادة - سلسلة تراث الإنسانية ، المجلد الثالث .

الحدث ، ويبدو هذا واضحاً في حادثة قتل السلطان المؤيد لابنه إبراهيم بالسم ، إذا ما قارنا رواية ابن إياس للواقعة ، ورواية شهاب الدين ابن حجر العسقلاني لها في كتابه « إنباء العمر بأبناء العمر » .

كان ابن إياس شجاعاً أيضاً ، إذا فرض السلطان ضرورة على الناس هجاه بقصيدة ، أو ذكره بالكلام القاسى ، وبالتأكيد أن هذا كان يصل إلى حكام ذلك الزمان وكثيراً ما يتضرر ابن إياس على ما جرى في زمانه من جانب الحكام في حق الرعية « حدث أن أصيب السلطان الغوري بارتفاع في جفونه هدده بالعمى عندئذ راح يرفع المظالم عن الناس وألغى عدداً من الضرائب ، فكثر له الدعاء بالشفاء ، وتنى ابن إياس النجاة له ، وكلما زاد ارتفاع جفون السلطان كلما زاد عدله في الناس ، وعم الرشاء ، وحدث أن أحد الأطباء داوى له عينيه ، وأصبح يرى كالعادة ، عندئذ عاد الحال إلى ما كان عليه فكثر الدعاء عليه من الناس ، وانتقده ابن إياس بشدة » .

ونبرز روح النقد هذه بشدة بعد غزو العثمانيين لمصر ، لقد اهتزت روح ابن إياس بما جرى في أواخر عمره ، ويبدأ ينفر أسى في سطور الجزء الأخير من كتابه . لقد سار جنود العثمانيين كالبهائم في الطرق ، لا قائد لهم ، ولا نظام ، يلوطون بالغلمان ، ويخطفون النساء ويهتكون الأعراض ، وسجل ابن إياس ما فاضت به روحه في قصيدة طويلة ، يرثى فيها ما جرى لمصر ، يبدأها . . .

نحو حسوا على مصر لأمر قد جرى عمت مصيبة كل السورى  
كانت روحه تغل ، صحيح أن العثمانيين كانوا مسلمين ، وعندما طلب السلطان الغوري من المغاربة الخروج لحربيهم قالوا نحن ما نحارب إلا الفرنجة ، لكن سيف العثمانيين لعب في رقاب المصريين ، كانوا همجاً اجتاحتوا مصر التي تباهى بملكها الملوك . وتسجل صفحات بداع الزهور أول صفحات اليقظة الوطنية المصرية ضد المحتل في تاريخها الحديث ، ولا يكفى ابن إياس بقصيده ، إنما يورد قصيدة أخرى لشاعر من عصره اسمه قانصوه بن صادق تدور حول نفس المعنى ، إن ابن إياس يصب سخطه على العثمانيين الغزاة الذين فعلوا بمصر ما لم يفعله بختنصر البابلي ، وكان أشد ما ألمه الخراب الذي حاصل بالفلاحين وجعلهم يهجرون أرضهم ، وتحول مصر من سلطنة تمحى البحرين والحرمين إلى ولاية يعين حاكمها من استانبول ، إن الاحساس المتدفق بالوطنية المصرية لدى ابن إياس في هذا الزمن بعيد ليهز الروح حتى الآن .

ولم يكتف ابن إياس بمعاهدة العثمانيين ، إنما قاطع احتفالاتهم ، وأعيادهم ، ويحب أن

نعلم أن ما كان يكتبه ابن إيساس كان يشيع ويعرف ، وقد ظل الكتاب متداولاً فترة طويلة تحت حكم العثمانيين . وهكذا تعتبر صرخات ابن إيساس ضد العثمانيين أول احتجاج في التاريخ ضد هذا النوع الفظ من الاحتلال ، وطليعة الروح الوطنية في الشرق العربي .

\* \* \*

يتضح من الكتاب أن المؤلف قرأ الكثير من الكتب التي تدور حول تاريخ مصر ، والموسوعات التاريخية الكبيرة قبل أن يبدأ في تدوين كتابه ، بدأ في تأليف كتابه حوالي عام ١٤٩٣ م ١٩٩٣ هـ . أى عندما كان يبلغ الخامسة والأربعين من عمره ، وفي هذه الفترة كانت المنطقة تمر بأحداث مثلاطمة ، فمنذ أواخر سلطنة قايتباى والعداء أصبح سافراً للدولة العثمانية بسبب انتصار المماليك على العثمانيين في أطراف آسيا الصغرى خمس مرات متتالية ، وفي الشرق ظهر الخطر البرتغالي على التجارة المملوكية في الهند بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .

والطريف أن ابن إيساس لما ظهر الفرنجية في المحيط الهندى قدم تفسيراً طريفاً وهو «أن الفرنجية قد تعايلوا حتى فتحوا السد الذى بناه عليهم فيليب المقدونى وتسربوا منه إلى المحيط الهندى» أما في مصر فقد دب العطب إلى أوصال السلطة المملوكية ، وإن سادها استقرار نسبي زمن الغورى ، تلك بعض الملامع العامة التي عاشها المؤلف أثناء سنوات نضجه ، وفي خضم هذه الأحداث كان متضروضاً بصبر ودأب في تصميم كتابه والإعداد له وفي سنة ١٥٠٨ م حدث ما عكر عليه صفو حياته وهدده بعدم إتمام الكتاب ، لقد ضاقت أحوال السلطان الشورى المالية ، فلجأ إلى حرمان أولاد الناس من إقطاعاتهم ، وذهب إقطاع ابن إيساس إلى أربعة من المماليك الصغار ، وكان ابن إيساس قد استطاع بفضل هذا الإقطاع أن يعيش عيشة راضية وأن يتفرغ للكتابة غير أنه لحسن الحظ لم يبق طويلاً بعيداً عن أرضه ، فقد شُكِّل إلى السلطان ما حاق به ، واستجواب السلطان له ، استمر ابن إيساس بعد ذلك في تدوين زمانه حتى عام ١٥٢٢ م ، أى عندما بلغ السادسة والسبعين من عمره .

ويشير ابن إيساس ، في الجزء الثالث (ص ١١٨) إلى كتاب آخر له اسمه «نزهة الأئم في العجائب والحكم» ، ومن مؤلفاته الأخرى كتاب «عقود الجهان في وقائع الأزمان» وهو كتاب صغير في تاريخ مصر لا تربطه بذات الصلة بـ «نحو الزهور» ، وكتاب «مرج الزهور في وقائع الدهور» ويدور حول قصص الأنبياء والرسل وكتاب «نشق الأزهار في عجائب الأنوار» ويدور حول الفلك وهيئة تركيب الكون .

\* \* \*

يتميز أسلوب ابن إيساس بـ«لقاء» وحرارة ، وإيقاع هادئ في السرد ، مهذب . ساخر كفكاوية المصريين ، بل إن فيه روحًا مصرية هادئة ، خاصة عندما يتحدث عن الزمان ، أو يسخر من الحكام ، إنه يبدأ فصول كتابه بجملة «رب يسر وأعن» ثم يمضى سرده هادئاً راسخاً كـ«إيقاع الأيام في زمنه» : وإذا ما جرت حادثة ومضت بدون أن تترك أثراً يعلق قائلاً «ولم تنتفع في ذلك شاتان» .

كما نجد كثيراً من الألفاظ العامية في جمله وهذه الألفاظ تصنف حيوية وحرارة على صياغته للحدث أو الخبر . وعندما يصف المطر تكاد تشعر به «فيها من المحر في رابعة: أظلم الجو وأمطرت النساء مطراً غزيراً حتى أوجلت منه الأسواق واستمرت قطر يومين متواالية» ، وعندما يظلم فقير ولا تجد قصيته من ينصفها يقول «وااحت على من راح ...» .

وعندما يتجاهر الناس بالمعاصي وينادي فيهم السلطان بالكف عن ذلك يقول «فسمعوا من أذن وخرج من أخرى» ، وعندما يصوت أمير ظالم بـ«صف قائل» وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس مصادرات وأخذ بيروت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده» .

وعندما يستولى السلطان على ثروة أحد الأمراء يقول «واحتاط على موجودة من صامت وناعق» ، وعندما يقدم أحدهم رشوة يقول «ويرطل عليه بربطيلاً كبيراً ...» وكلمة بربطيل لا تزال تستعمل في مصر بمعنى الرشوة ، وهو يلتزم الدقة في تدوينه للأحداث فيقول مثلاً (وقد شاهدت ذلك بعيني) <sup>(١)</sup> عند وصف موكب السلطان ، أو يقول بعد سرده لما فرقه السلطان على الماليك «لم التزم صحة ذلك» <sup>(٢)</sup> وعند كسوف الشمس يقول «وكشفت الشمس في ذلك اليوم كسوفاً فاحشاً» ، وعندما تنتهي سنة يقول «وخرجت هذه السنة على خير» وعندما يعم الوباء «تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب» .

ويصف أحد الرجال عصره «كان الشيخ عبد الباسط خذيناً بنفسه وعندئذ يحتل البعض مكاناً لا يتفق مع إمكانياته» فتلعبت به الدنيا لكتلة هرجه ، وركب فيها في غير سرجه «وعندما يتحدث عن السلطان كان حكمه مستقرّاً» كانت الناس في أيامه في هدوء وفرح وبخلعة» .

إن المعلومات التي وصلتنا عن ابن إيساس قليلة فعلاً ، ولكن شخصية المؤلف وروحه ،

(١) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٣ .

(٢) بدائع الزهور الجزء الرابع ص ٢٩٤ .

وبنضه ، كل هذا موجود في كل صفحات الكتاب حتى لتشعر بإيقاع الزمن ، وطريقة حديث أهل عصره ، وتعليقاتهم المصرية الصميمية ، ولاشك أن هذا يضفي تفردًا على ذلك المؤلف الذي كان قريباً من الفن ، إذ حفظ لنا صفحات حية من عصره تنبض وتفيض وأنفذها من العدم .

\* \* \*

تجب الإشارة إلى الجهد الرائع الذي قام به الدكتور محمد مصطفى « مدير متحف الفن الإسلامي سابقًا » في نشر بداع الزهور ، هذا الجهد الذي استغرق عمرًا ، لقد دعا الدكتور باول كالفه عام ١٩٢٨ إلى الاشتراك معه في نشر الكتاب ، تم بالفعل نشر الأجزاء الثالث والرابع والخامس في سلسلة النشرات الإسلامية التي تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية ، وتناول هذه الأجزاء تاريخ مصر وتسرد الواقع المأمة اعتبارًا من سنة ٨٧٢ هـ ( ١٤٦٨ م ) حتى سنة ٩٢٨ هـ ( ١٥٢٢ م ) . على اعتبار أن ابن إيمان كان المؤرخ الوحيد تقريباً الذي عاصر هذه الفترة الخامسة من تاريخ البلاد .

\* \* \*

وكان من الغريب أن يصدر هذا الكتاب الهام بعيدًا عن وطنه ، ولكنه أصبح أخيرًا متاحًا للدارسين والقراء ، بعد أن أصدرته الهيئة العامة للكتاب ، وكان هذا قراراً أخذته المرحوم الشاعر صلاح عبد الصبور رحمه الله وجزاه خيراً ، وأخرجه إلى حيز التنفيذ الدكتور عز الدين إسماعيل رئيس الهيئة العامة للكتاب حالياً .

## تاریخ التراث العربي لسزکین

اكتشفت الكتاب أثناء زيارتي لجامعة مارتين لورير بمدينة هاله في ألمانيا ، تعرفت على الدكتور عرقه مصطفى وهو استاذ أصلًا في جامعة الأزهر يدرس اللغات القديمة المنتشرة . وفي مكتبته الخاصة أطلعني على الجهد العلمي الذي يقوم به من أجل ترجمة موسوعة « تاریخ التراث العربي » للعلامة التركي فؤاد سزکین بالمشاركة مع أساتذة آخرين . منهم الدكتور محمود فهمي حجازي . والدكتور سعيد عبد الرحيم .

أطلعني على الأصل الألماني . ويعقد في شهادة مجلدات ، ما تم حتى الآن ترجمة مجلدين من الأصل ، صدرًا في عشرة مجلدات باللغة العربية ، أشرف على المشروع ، ومولته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وما زال العمل مستمرًا .

بعد عودتى إلى القاهرة أرسلت خطابا إلى الجامعة ، إلى رئيسها الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، أخبرته اهتمامي بالكتاب ، وتعلّم الحصول عليه في القاهرة ، وأبديت استعدادى للحصول على نسخة وفقاً لآية شروط .

بعد عشرة أيام فقط ، فوجئت بخطاب من المسئول عن إدارة المكتبات بالجامعة يطلب مني التوجه إلى مطار القاهرة لاستلام نسخة أرسلت كهدية مضيّت إلى المطار لأعود بمجلدات الكتاب العشرة ، وكأني حصلت على كنز نفيس ، فقيمة الكتاب لاتعادلها قيمة أخرى منها كانت .

ماذا نجد في هذه الموسوعة ؟

\* \* \*

يقول الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي في مقدمة المجلد الأول « إن هذا الكتاب « تاریخ التراث العربي » يكشف بجلاء عظمة تاريخنا الثقافي الممتدة عبر القرون ، ويؤكد اهتمام سلفنا رضي الله عنهم ، بالبحث ونشر العلم .

« وكان قد سبق للهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة إصدار المجلد الأول من الكتاب في جزأين بترجمة الدكتورين فهمي أبو الفضل وعمر محمود فهمي حجازي . ثم توقف إصدار

الكتاب ، لذلك صحت عزيمة الجامعة على ترجمة ونشر المجلدات الخاصة بعلوم القرآن والحديث والفقه والعقيدة والتاريخ والشعر العربي واللغة والنحو والبلاغة والنشر الفنى والعروض والأدب والفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة والاجتماع . واستندت ترجمة المجلد الأول إلى الدكتور محمود فهمى حجازى ، وترجمة الجزء الشانى إلى الدكتور عرفة مصطفى . كما عهدت إلى أستاذة متخصصين في الجامعة قراءة الترجمة العربية للكتاب . وقامت إدارة الثقافة بالجامعة على طبعه ونشره . . .

\* \* \*

إذن ، خصص الجزء الأول من المجلد الأول ، لعلوم القرآن والحديث ، ويقع في خمسة صفحات من القطع الكبير ، يقول المؤلف فؤاد سزكين في المقدمة العامة للكتاب إنه كان قد عقد العزم منذ سبعة عشر عاماً على عمل ملحق بمخطوطات مكتبات استانبول يضيفها إلى الكتاب الشهير لبروكليان « تاريخ الأدب العربي » وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية وصدر عن دار المعارف بالقاهرة في خمسة أجزاء ، يقول سزكين إنه لم يكن يدرك أنه مقدم على مغامرة كبيرة ، فيبعد فترة من الزمن قرر المستشرق رشر O.Resher ، وهو حجة في تاريخ التراث العربي أن يشترك في هذا العمل ، وأن يقدم للبحث والدراسة كل المادة التي جمعها منذ زمن بعيد ، وخاصة أثناء عمله بالمكتبة السليمانية باستانبول ، عندئذ قرر سزكين عدم الالتفات بالخطبة السابقة ، إنما جمع كل ما يمكن جمعه من المواد والفالهارس . والدراسات التي ظهرت بعد كتاب بروكليان ، وكذلك من دراساته الخاصة للكتب المطبوعة . وجموعات المخطوطات . عندئذ تنازل العلامة رشر لسزكين عن هذه المواد ، وتخلى عن المشاركة في العمل ، فالعمل ضخم ، غير واضح المسار والنتهاية ، وكان الأستاذ رشر قد تقدم في العمر كثيراً .

\* \* \*

إذن . . انفرد سزكين بالعمل في هذه الموسوعة ، وعندما انتهى من الجزأين الأول والثانى وأعدهما للطبع . انضم إليها في الحقيقة عمل جديد مستقل عن كتاب بروكليان ، لقد درس سزكين كل المواد المتاحة وحققتها ، وراجع ما ذكره بروكليان وأضاف إليه مجموعة كبيرة من المعلومات المكملة مثل تاريخ المخطوطات . وعدد أوراقها وصفحاتها .

لقد ذكر أولاً المخطوطات التي قدمها بروكليان ، واتبعها بمخطوطات جديدة عشر عليها .

يقول فؤاد سزكين :

« وقد كان من الممكن أن يخرج هذا الكتاب في صورة أحسن وأكمل لو أتيحت لي فرصة الحصول على مساعدات مالية ، فجل رحلاتي العديدة في أنحاء أوروبا ، ولدى شمال أفريقيا ،

وكذلك إلى الشرقين الأدنى والأوسط حتى إلى الهند ، إنفقت عليها من مال الخاص ، وكذلك ما تكلفتة للمعديد من ساعدوبي ، وما دفعته ثمناً للمراجع والفالرس ، وتصویر المخطوطات ، واستخراج المقالات من المجلدات العلمية . وقبل سنوات وصلت هيئة اليونسكو ميلانا لتساعد في إخراج كتاب « بروكلمان » إخراجاً جديداً . ولكن اللجنة المكونة لهذا الغرض أرجأت البت في هذا الموضوع حتى تبحث ما إذا كان عمل هذا يمكن أن تشمله هذه المساعدة أم لا . ولكن الموضوع كان يوغل ، ولعل السبب الحقيقي لهذا التأجيل أنهم رأوا وجوب اشتراك مجموعة من العلماء في عمل كهذا يقوم كل واحد منهم ببحث مجال معينه من مجالات المخطوطات العربية ولا جدال أن إنساناً واحداً لا يستطيع أن يمتلك زمام كل مجالات التراث العربي ، ولكنني رأيت بنفسى تعدد إمكانية اشتراك مجموعة من العلماء ، وفوق ذلك فإن اقتناصي يزداد كل يوم بأن دراسة التراث العربى لم تقدم بعد تقدماً كافياً ، يتسع لنا الاتفاق على زمن نشأة فروع العلوم العربية المختلفة ، التي تبحث في هذا الكتاب ، وهذا الاتفاق هو الشرط الأساسي للقيام بعمل جماعى كهذا . وربما يطول انتظارنا حتى يمكن تحقيق مثل هذا العمل الجماعى ، فلابد أولاً من تكرار جهود عدد من العلماء ببحث كل واحد منهم - على حدة - المواد الجديدة . ويجمع الدراسات الحديثة هكذا . قام الأستاذ فؤاد سرakin بهذا الجهد العلمى الشخص بمفرده .

\* \* \*

خصص الجزء الأول من المجلد الأول كها أشرت لعلوم القرآن والحديث ، يذكر المؤلف أو لأكتب القراءات في العصر الأموي ، فيترجم لكل من فرا القرآن في العصر الأموي ، فيذكر تعرضاً به وبيحاته ، ثم مصادر ترجمته ، ثم آثاره المكتوبة .  
ثم يتقل إلى العصر العباسى . حيث شهد هذا العصر تطوراً في الدراسات اللغوية خاصة فيما يتعلق بشرح الموضع المشكلة في القرآن الكريم ، وكانت مراكز هذه الدراسات في البصرة والكوفة والمحاجز .

ثم يقدم كتب التفسير في العصر الأموي ، والعصر العباسى .

الباب الثاني يخصصه لعلم الحديث ، مسماهجه . وتطوره ، في صدر الإسلام ، ثم في العصرين الأموي والعباسي ، وتجده يترجم لكل علماء الحديث النبوى الشريف ، يذكر تراجم لحياتهم ، ومؤلفاتهم ، ومصادرهم ، والمخطوطات المتبقية في عصرنا الحديث . أماكنها ، وأرقامها في المكتبات .

الجزء الثاني من المجلد الأول ، خصص لكتابتين التاريخي عند العرب . تناول ، تاريخ

الباھلیة فی العصر الاموی ، ثم العباسی ، ثم درس تدوین التاریخ العام وتاریخ الدوّلة الاسلامیة . وحركة التأییف التاریخی فی العصر العباسی ، والتاریخ المھل ، وتاریخ المدن ، ثم التاریخ المھل وتاریخ المدن فی وسط الجزریة العرییة وجنبیها ، ثم التاریخ المھل وتاریخ مدن الشام ، والتاریخ المھل وتاریخ المدن فی العراق ، والتاریخ المھل وتاریخ المدن فی ایران والشرق ، ثم التاریخ المھل وتاریخ المدن فی مصر والمغرب ، ثم التاریخ المھل وتاریخ المدن فی الاندلیس ، ثم یتناول التاریخ الشفاف ، وأخیراً . . حرکة التأییف فی العصر العباسی .

ونجد استمراً لنفس منهج الكتاب ، حيث یورد مقدمة عامة للموضوع ، ثم یتناول المؤلفین ، یذكر ترجمة كل منهم ومصادر ترجمته ، وآثاره ، وأین توجد ، إذا كانت مخطوطه . وأین طبعت إذا كانت مطبوعة . وحتى يتضح أكثر منهج المؤلف ، ونقف على الجهد المائل الذي بذله ساورد نموذجاً من الجزء الثاني من المجلد الأول .

\* \* \*

## الجهشیاری

هو أبو عبد الله . محمد بن عبدوس بن عبد الله الجھشیاری . أصله من الكوفة ، نشأ مع أبيه في بغداد ، وكان أبوه حاجباً للوزیر علی بن عیسیٰ ، فخلفه على الحاجابة له ، ثم للوزیر حامد بن العباس فی خلافة المقتدر بالله ، وتوفي في بغداد سنة ٢٣١ھ/٩٤٣م .

### (أ) مصادر ترجمته :

مروج الذهب للمسعودی ٢٤٩/٨ الفهرست لابن النديم ١٢٧ ، ٤٢٧ ، الواقی بالوفیات للصفدی ٢٠٥ ، النجوم الزاهرا لابن تغزی بردی ٣/٢٨٩ . أخبار الراضی بالله . تحقیق کاثانار - الجزائر ١٩٤٦ ، ١٤٣/١ . الأعلام للزیرکل ١٣٥/٧ . معجم المؤلفین لکحالة ١٠/٢٧٥ وانتظر بروکلیان ملحق ١/٢١٩ .

- کتب سوردیل عنه فی دائرة المعارف الاسلامیة .

- کتب عنه لاتس رسالة جامعیة .

(ثم یورد عنوان الرسالة ، والجامعة ، وتاریخ مناقشتها) .

### (ب) آثاره :

«کتاب الوزراء والکتاب » .

لم يصلنا إلا قسم مخطوطاته . يوجد مخطوطات منه في : المكتبة الوطنية بفيينا ( ٩١٦ - ٢٠٤ ) ورقة ، ( ٥٤٦ هـ ) . نشره منشك .

وحققه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبي القاهرة ١٩٣٨ وجمع مواد القطع المقتبسة عنه في الكتب المطبوعة وذلك في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٣ / ٣١٨ - ٣٣٢ .

وجمع سورديل قطعاً أخرى من مخطوطين الاثنين . وكتب بها بحوثاً جديدة عن القسم الثاني من كتاب الوزراء والكتاب .

وكتب سورديل أيضاً عن التيمة الأدبية والسوائقيه لكتاب الوزراء ، والكتاب اعتماد خاص على الفصل الخاص بهارون الرشيد .

\* \* \*

وهكذا . نجد هذه الدقة العلمية مع الشعراء ، والكتاب ، والعلماء ، والحفاظ ، وال فلاسفة ، والأطباء ، والحكماء ، والمنجمين ، ورجال البحر ، أى أن الكتاب موسوعة موثقة ، علمية ، لسائر مؤلفات التراث العربي ، وسجل دقيق فريد لكل ما نشر منه ، والدراسات التي وضعت عنه ، والمخطوطات التي لم تنشر منه .

في الجزء الثالث من المجلد الأول نجده خصصاً للفقه ، أما الجزء الرابع لمخصص للعقائد والتصوف .

المجلد الثاني كله يتكون من خمسة أجزاء ، مخصص للشعر ، الأول يتضمن مقدمة ودراسات ، والثاني مخصص للشعر في العصر الجاهلي ، والثاني للشعر في صدر الإسلام ، والثالث للعصر العباسي ، والرابع للعصر العباسي أيضاً ، والخامس لشعراء مصر والمغرب والأندلس في العصر العباسي .

كل تلك طبع من الكتاب جزء خاص مستقل يتضمن قوائم بجميع مجموعات المخطوطات في مكتبات العالم .

حتى الآن صدرت عشرة مجلدات من الترجمة العربية ، ومن المتظر صدور بقية الأجزاء تباعاً ، فتحية للمؤلف فؤاد سرزيك ، وتحية لمن ترجم ، وتحية لمن دعم وأصدر هذا السفر الموسوعي الجليل الذي يبرز عظمة الحضارة العربية .



## الفهرس

تراث العرب بين السابق واللاحق .....	٥
عناصر الاستمرارية في الثقافة المصرية .....	١٧
تراجم .....	٢٣
لطائف المتن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق .....	٢٩
ابن سينا يتحدث عن نفسه .....	٤١
الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ .....	٤٧
كتاب العصا .....	٦٦
المنازل والديار .....	٧٢
الذخائر والتحف .....	٨١
الأنبيق في المنجنيق .....	٨٩
ثمار القلوب في المضاف والنسب .....	٩٨
سرور النفس بمدارك الحواس الخمس .....	١٠٨
مقامات يمنية .....	١١٦
زخرفة ألف ليلة .....	١٢١
مدينة ألف ليلة وليلة .....	١٢٥
الفوائد النفيسة الباهرة في بيان أحكام شوارع القاهرة .....	١٢٩
عميد المؤرخين المصريين .....	١٣٣
النجم الزاهر .....	١٣٨
ابن إياس صاحب بداع الزهور في وقائع الدهور .....	١٤٨
تاريخ التراث العربي لفؤاد سزيكين .....	١٥٩



رقم الارشاد: ٩٧/٤٠٩٢  
I.S.B.N. 977 - 09 - 0380 - 9

### **مطبع الشروق**

القاهرة : ٨١ شارع سيرينه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - ناكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (١٠)  
بيروت : ص.ب: ٨١٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ناكس: ٤٠٨١٧٧١٥ (١٠)



## منتهى الطلب إلى تراث العرب

إذاء ندرة المصادر ، وعدم تعامل دور النشر الكبرى مع التراث العربى ، وتعثر إصدارات مهمة ظلت مستمرة منذ أن عرفت مصر المطبعة ، فنكرت فى التعريف بمصادر تراثية ربما يصعب الحصول عليها الآن ، إما لندرتها وإما لارتفاع سعرها بما يعجز عنه الشباب محدود الإمكانية .

لذا فنكرت فى إعداد عروض وافية لعدد من هذه المصادر المهمة ، بحيث تعطى فكرة شاملة عنها . فإذا اهتم قارئى بكتاب معين ، فليتجه إليه ولا يعاني ما عانيناه فى البحث عنه . وقد حرصت على ذكر الناشر والسنة التى طبع فيها الكتاب .

وقد آثرت أن أبدأ بعرض عدد من كتب التراث المختلفة فى الأدب ، والتاريخ ، والفن الحجرى ، على أن أتبع هذا المجلد . بأخر أخصصه للتعريف بكتب الترجم فى التراث العربى ، وثالث أقدم فيه مصادر القص العربى ، ورابع أقدم فيه أهم ما كتب حول العمارة الإسلامية من القدماء والمحدين . راجيا بذلك أن أكون قد أسهمت بجهد ضئيل فى التعريف بتراثنا العربى ومصادره التى يصعب الوصول إليها والعثور عليها ، يوماً بعد يوم ، متمنياً من الله العلي القدير أن يهبنا العمر والقدرة على تحقيق ما نطمح إليه من التعريف بتراثنا العريق الذى يحيى فىنا ولا نراه .

جمال الفيصلانى

**To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)**